COLUMBIA UNIVERSITY
IN THE CITY OF NEW YORK
THE
LIBRARIES

يوسف السودا
عام بالاستئناف

في سبيل لبنان

طبعة ثانية

الالف الرابع

١٩٢٤

مطبعة الارز — بيروت

OFFSITE
DS
84
S28
1924g

— الطبعة الثانية —

نفدت الطبعة الاولى من هذا الكتاب . فاضطرّني الى طبعه ثانية تقرير تدريسه في بعض المدارس اللبنانية من وطنية واجنبية

اشكر لرؤساء تلك المدارس الكريمة ولمديري الدروس العربية فيها عنايتهم بهذا الكتاب وآمل ان يحذو غيرهم حذوهم في تقرير تدريسه . وغاية ما ارجو منه خدمة لبني وطني .

فاليكم ايها النشء الحبيب اللبناني تلامذة المدارس ، اقدم اليوم خلاصة جهود اخ اكبر ما سهّل عليه مواصلة الجهاد الا حبه لكم ، وما جعل التعب راحة في عينه الا ثقته بان هذا الوطن اللبناني لا يقوم الا بكم وانتم أمل الغد . فان نشأتم على حب لبنان خدمتم في المستقبل ذلك الوطن الذي احببتم . ولا يمكنكم ان تحبوه وتخدموه باخلاص الا اذا عرفتم ان آباءكم وجدودكم تركوه وديعة مقدّسة بين ايديكم . بعد ان كلفهم ثمناً غالياً دفعوه على ممرّ الاجيال من دمائهم الزكية .

فلعل ما في هذه الصفحات التالية يجب اليكم ذلك الوطن وتلك الوديعة فتقضون لها، يوم تصبحون رجالاً، الواجبَ كلَّ الواجب

بيروت في ٢٣ شباط سنة ١٩٢٤

يوسف السودا

— الطبعة الاولى —

اقدّم هذا الكتاب الى « مواطنيّ اللبنانيين » فيجدون فيه موجزاً لتاريخهم وبياناً لحقوق بلادهم واثباتاً لغايتها الوطنية . فيبرهنون للملاء انهم خليقون بذلك التاريخ ، اكفاء لاولئك الجدود ، يذودون عن حقوق بلادهم وينشطون الى تحقيق غايتها

ولعلّ « الغيرَ » اذا تبينوا حقوقنا وعرفوا اننا نعرفها ونذود عنها حسّنوا ظنهم وسدّدوا رأيهم

وعلى كل ، فقد وضعت هذا الكتاب وانا لا ارجو مرضاة ولا اتعمد اساءةً : انما واجب رأيته عليّ لبلادي فقضيته .

اسكندرية اول تشرين الثاني سنة ١٩١٨

توطئة الطبعة الأولى

امام هذا المعترك الفظيع الهائل وقد التهمت نيرانه القارات الخمس فهدرت دماء الملايين وضاعت الاموال لا تحصى وعمّ الخراب وضاقت اسباب المعيشة حتى كادت تفنى الناس جوعاً وفاقةً تقف الشعوب تتساءل : وما نتيجة تلك الضحايا وحتى م تهز هذه الحرب اعصاب العالم من ادناه الى اقصاه . فيجيبها « رسول العدل » بلسان الملايين من جنود اباسل افناهم الحديد والنار : « لا ترتاح تلك العظام في اجداثها الا اذا كان في تضحيتها ضمان المستقبل للاولاد والاحفاد فلا يروّعون بمثل هذه الحرب الطاحنة بل تُقطع اسبابها من اصولها البعيدة : واساس هذه الحرب شعلة اضطرمت في البلقان حيث شعوب صغيره ارغمت على امرها ، فاندلع لهيبها الى اوروبا ولفح القارة الافريقية فاوسيانيا فاسيا فاميريكا . انما تهدأ نفوس اولئك الشهداء في مواطنها الابدية اذا طلعت من ظلام قبورها شمس العدل تبدد ليل الظلم فيسود الحق على القوة ويتمتع الابناء بالسلام الى اجيال طوال . . »

.....

على الشاطىء الشرقي من البحر المتوسط يمتد بلد صغير بعدده ، كبير بقومه ، فخور بمجده ، ورث عن الفينيقيين حبّ الحرية وبعدَ الهمة ومضاء العزيمة . وامتنع في قمم جباله فلم يستعبد لغازٍ ولم يذلّ لفاتح حتى اصبح مجده مضربَ امثال فانشده الكتاب وتغنى بهِ سليمان

عنيت لبنان وهو الجبل الشامخ المدل بهيبته وجلاله على فلسطين وحلب والشام

لقد تقلب الدهر على لبنان بحدثانه : فعاصر « لبنان الفينيقي » ممالكَ اشور والفرس واليونان . واتى بعدهم « الرومان » فرأى لبنانُ ابناءه يتبوّأون عرش روما . واكتسح « العرب » سوريا فردّ لبنانُ تيارهم عنه . وظل على تمنعه حتى « الصليبيين » فحالفهم . ولم يوهن عزيمته جلاؤهم عن سوريا بل ظل بعدهم محتفظاً بامتيازاته في وجه « الاتراك » مدة حكمهم وعليه امراؤه الوطنيون من « المعنيين » الى « الشهابيين » الى عهد « القائقاميتين » ثم جاءت [معاهدة سنة الستين] فاثبتت امتيازاته القديمة واقام عليها حتى اليوم

ان غزاة سوريا من عرب واتراك لم ينظروا يوماً الى

امتيازات لبنان بعين الرضى وكان همهم الاقصى من قديم الزمان ان يلحقوه بولايات سوريا في حين كان اللبنانيون متشبثين بحريتهم وامتيازاتهم حتى الموت ، يزيد تعلقهم بها سعي حكام سوريا لانتزاعها منهم وادغامهم في الولايات. فنتجت من ثمّ على ممر الاجيال ، بين سوريا ولبنان ، مشادة مستمرة ومنازعة دامية حتى جبل تراب الجبل بدماء ابنائه مهرقة في سبيل الحرية والاستقلال . ولا يزال صدى حوادث سنة ١٨٦٠ يرن رائعاً مؤلماً في الاذآن .

وقد اكبرت اوربا تفاني اللبنانيين في سبيل استقلالهم فقررت التدخل في شؤونه ووضع امتيازاته في ضمانها حسماً لتلك المغالبة الدامية التي بلغت على عهد تركيا ما لم تبلغه من قبل هولاً وفظاعة . فكانت من ثم معاهدة سنة ١٨٦١ وهي قد ادخلت لبنان في القانون الدولي العام وجعلت امتيازاته في حرمة المعاهدات الدولية

فحسب اللبنانيون منذ ذاك الحين ان استقلالهم بات في مأمن من عبث العابثين . فاستسلموا الى حماية الدول ، ولم يعدوا عدتهم ، شأنهم في الماضي من الزمان ، ليوم يضطرون فيه الى الدفاع بنفسهم عن حريتهم وتراث اجدادهم

لذلك لم يستطيعوا دفع اذى حين باغتتهم هذه الحرب الطاحنة وهم في جبالهم آمنون

فاغتنمت تركيا الفرصة السانحة : يزيد جرأتها استضعافها اللبنانيين وهم قد استسلموا لحماية الدول ، ويغري صدرها عليهم ميلهم المعروف الى الحلفاء . فعاملتهم معاملة الاعداء توصلاً الى افنائهم وهدم صرح استقلالهم. فاذاقتهم ويلات الحرب ولا حرب في بلادهم . فنالوا من بلاياها ، جوعاً وبرداً ومرضاً وفاقة ، قسطاً لا تحسدهم عليه اشقى الامم :

فلم يقتل اللبنانيون تحت قساطل الهيجاء بين هزيع الاناشيد ، هزيم المدافع وصهيل الخيول وصلصلة الحراب وصليل السيوف ، وفي الموت على هذا الشكل ما فيه من نشوة وفخار ، بل أهلكوا برداً وجوعاً ومرضاً بين ظلام الفقر الرائع وسكون القبور الهائل .. بادوا وهم يتطلعون الى البحر يرقبون مغيثاً لا يأتي او كسرةً ترد رمقهم فلا ينالونها ، والموت يمشي اليهم هادئا فظيعاً قاسياً لا يرحم ... وقد مرت بهم اربع سنوات على هذه الحال حتى لقي نصف سكان لبنان تلك الميتة الخاملة بلاعزٍ ولا

فخر. وهو افظع شكل يتصوّره الانسان في ابادة شعب واهلاك امة . فضلاً عمن اباد الاتراك من رجاله واكليروسه وشبانه نفياً وشنقاً وتعذيباً . . أمةٌ بأسرها ذهبت ضحية نزوعها الى الاستقلال وشهيدة ميولها الى الحلفاء عموماً والى فرنسا خصوصاً . فبات للبنان على تلك الدول الكريمة حق جديد هي اجلُّ من ان تتبرأ منه يوم الحساب

فان أُهمل امر لبنان ، وحاشا لدول العدل اهماله ، ولم تقرّر معاهدة الصلح استقلاله فهو عائدٌ حتماً الى تلك الرواية المفجعة التي مثّل فصولها على ممر الاجيال

ان الشعب الحي الذي اعتاد الاستقلال ودفع للاحتفاظ به على ممر العصور ثمناً من دماء ابنائه غالياً فاحشاً ، قد يُرغم على امره حيناً من الدهر كما أُرغمت بولونيا وارمينيا ؛ لكنه لا يموت

فلئن غُلب لبنان على امره لضعفه اليوم او لغفلته ، فقد يأتي زمن يرجع فيه لبنانُ الى نفسه وينشط الى استقلاله . فيكون في الشرق ما كانت البلقان في الغرب : وفي حوادث هذه الحرب واسبابها عبرة للمعتبرين

. . . .

اذا طالب لبنان بحريته واستقلاله فهو يطالب بحق مقدس لا بحسنة يستجديها او بمنكر يواخذ عليه

وفوق ذلك فلبنان يستند في ما يطلبه الى تاريخ قديم مجيد يشهد ان لبنان كان حائزاً على استقلاله يوم لم يكن لاكثر دول اليوم وجود في عالم الامم المستقلة . بل يستند الى حق اعلى واسمى ، تموت اليوم في سبيل تأييده الملايين ، الا وهو حق المعاهدات واحترامها :

فلبنان ذو معاهدة دولية كفلت له استقلاله القديم تدرجاً الى الاستقلال المطلق : غاية كل حي ومنتهى آمال كل شعب

تلك حقيقةٌ عن تاريخ لبنان ومركزه الدولي يجهلها الكثيرون ويعتقدون انه لا فرق بين لبنان وبين الولايات السورية ، وانه مهما نال بعد الحرب من الاصلاح كان كثيراً عليه بالنسبة لمركزه قبل الحرب لاسيما والاستقلال على ما يدعون ، لا يكون طفرةً في الشعوب بل له نواميس لا يتعداها

ففي هذا البحث بيان موجز عن تاريخ لبنان السياسي وعن مركزه في قانون الدول العام

قضية عادلة تُعرض للعالم المتمدن دفاعاً عن حقوق لبنان يوم تُوزن حقوق الامم . فينال حقهُ من الاستقلال كما نال قسطه من المصائب فترتاح نفوس شهدائه اذا شعروا بانهم ذهبوا ضحية غالية في سبيل ذلك الاستقلال الغالي . بل يطمئنون في مراقدهم الابدية اذا طلعت منها شمسُ الحرية تتلالأ في ثلوج صنين . تنعش النفوس . وتحيي ميت الامال ؛ ويترامى الى بلاد المهجر صدى صوت صارخ من لبنان يدعو ابناءه اليه . فيعود الى ربوعهِ من هجره من أيد عاملة وادمغة مفكرة . فيجدد نسر الارز شبابه ويكون لبنان منارة وضاءة ترسل العلوم والمعارف نوراً وهدىً في سماء الشرق الادنى

الاسكندرية في اول كانون الاول سنة ١٩١٧

القسم الاول

« تاريخ لبنان السياسي »

من الفينقيين الى السنة التين

الباب الاول

لبنانه الفينيقي ١

لكل امةٍ ولعٌ بالرجوع الى اصولها والافتخار بانسابها استقاءً لحاضرها من منهل ماضيها : فايطاليا تعتز انها وريثة رومة العظمى وما فيها من همة وعلم ومجد . . . ويفتخر اليرنان انهم سلالة اولئك الاقطاب من رجال الهلادة وشعرائها وفلاسفتها امثال بريكليس وصوفوكل وسقراط .. والعالم المتمدن يقرّ ايطاليا واليونان على فخارهم ويحترم في الاحفاد عظمة الجدود . حتى ان اوروبا ساعدت ايطاليا واليونان على نيل الاستقلال استعادةً لذلك المجد واقراراً بذلك الفضل .

فاذا فاخر شعب باصوله واستمد الفضل من كريم انسابه فاحرِ بلبنان ان يذكر ويذكّر انه مهد الحضارة في العالم : ولدت في سفوحه واينعت على شواطئه ومنها

---

(١) *Maspero. Gzell*

الدبس : (سيادة المطران يوسف) تاريخ سوريا ج ١

حملها الفينيقيون الى اقاصي المسكونة

ولئن كان على اوروبا واجب لايطاليا واليونان فعليها اجل منه لبلاد هي معلمة روما وام اليونانية

***

كانت فينيقيا القديمة قائمة حيث يمتد اليوم لبنان بحدوده الطبيعية على وجه التقريب : من عكا جنوباً الى ارواد شمالا

ان فينيقيا هي التي علمت الامم ومدنت الشعوب وما اليونان والرومان الا عيالاً عليها علماً وادباً

فالفينيقيون اخترعوا الكتابة والملاحة و كثيراً من الصناعات الفاخرة ورادوا العالم للتجارة براً وبحراً . ولقد عرف العلم الحديث فضلهم فوفاهم حقهم من الثناء وعرفان الجميل :

اخترع الفينيقيون الكتابة فوضعوا للغتهم ٢٢ حرفاً هجائياً تمكنوا ان يكتبوا بها ما شاؤا .وعنهم اخذت سائر اللغات حروفها حتى ان العلماء لم يجدوا حتى اليوم حروف هجاء سابقة لحروف الفينيقيين . وكان اختراعهم هذا قبل عصر موسى

وهم اخترعوا الملاحة وزاولوا البحر لمقذافهم. وفي ذلك يقول مسبرو: بينما بعض من امراء البحر الفينيقيين يجرون الى اكتشاف البونتيكسون Pont-Euxin « البحر الاسود » كان البعض الاخر يسير الى اكريت ويكتشف اراضيها(١). وقد مدوا تجارتهم في سائر انحاء المعمور شرقاً وغرباً

ولهم يعود الفضل باختراع كثير من الصناعات: منها البرفير اي الارجوان. وكان يستعمله ملوك اشور وآرام وبابل وفارس ومدين في ملابسهم كما جاء في نبوآت حزقيال وارميا ودانيال. ومنها اختراعهم الزجاج الشفاف. وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعات الفينيقيين الزجاجية وهي تشهد لهم بطول الباع والمهارة بهذه الصناعة

وكان لهم السبق ايضاً في صنع الانية الخزفية وكانوا يشحنون منها الشيء الكثير مثل الجرار والقدور والكؤوس والصحاف فتوزع في الاقطار حتى على شواطئ الاتلنتيك وجزر بريطانيا

وكان لهم مهارة خاصة في ما يعمل من المتاع بالنحاس

---

١ مسبرو: تاريخ شعوب الشرق القديم ص ٢٩٤

الاصفر من آنية وزينة وقد ذكرت لهم ذلك التورات فارسل سليمان يطلب من حيرام عمالا منهم لنقش الهيكل قال : « فالان ارسل لي رجلا حاذقاً بعمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والقرمز والسمنجوني ماهراً في النقش مع الحذاق الذين عندي في يهوذا اورشليم الذين اعدهم داود أبي» (١)

وكان الفينيقيون ذوي همة بعيدة حملتهم الى مختلف الامصار وشاسع الاقطار. فاستعمروا ما شاؤا من الارض شرقاً وغرباً وابقوا في كل بلد نزلوه آثاراً عنهم حتى اليوم. وقد ذكر العلماء اخصهم مسبرو شيئاً كثيراً عن احوال الفينيقيين ومستعمراتهم يلخص في ما يأتي :

قبل المسيح بالفين وخمسمائة سنة تقريباً نزح الكنعانيون من ضفاف خليج العجم الى ضواحي فلسطين حيث تفرقوا. فمنهم من اقام في فلسطين فأطلق على البلاد التي اقاموا فيها اسم « ارض الكنعانيين »

---

(١) سفر اخبار الايام الثاني ف٢ ع ٧
سفر الملوك الثالث ف ٧ ع ١٣ الى ٤٦

وسار قسم منهم على شاطئ البحر فسكنوا فيه فاطلق عليه اسم « فينيقيا »

وقسم ثالث توطن سهول العاصي فسمي « الحثيين »

وقسم رابع سار الى مصر حيث اقام دولة ملوك « لرعاة »

والفريق الذي نال منهم شهرة لم ينلها غيره كان الفريق الذي سكن الشواطئ اللبنانية واطلق عليها اسم فينيقيا

وقد شاق البحر الفينيقيين يوم لم يكن بشر يجرأ على ركوب متن البحار . فقطعوا الاشجار من غابات لبنان وانشأوا منها القوارب ثم السفن . واقتصروا في بادىء الامر على مزاولة الصيد في الشواطئ اللبنانية في جبيل وبيروت واخلده وصيدا وصور

ثم اخذوا يتجاوزونها رويداً رويداً . وينشئون في كل مكان مناسب نقطة اتصال بينهم وبين وطنهم . حتى وصلوا الى حزر الارخبيل « اليونانية . » ومنها اجتازوا الى مضيق الدردنيل « الهلسبون » ثم الى البوسفور والبحر الاسود . وبلغوا شطوط البانيا « ابير » وايطاليا . وساروا في طاب القصدير الى شواطئ انكلترا .

وبنوا في فرنسا مدينة نيم (سنة ١٣٠٠ قبل المسيح)
كما انهم دخلوا اسبانيا فبنوا فيها مدناً وامتدوا منها الى جبال البيرنه .

ولم تعص عليهم افريقيا فنزلوا مصر واقاموا فيها مستودعات اخصبها ممفيس

وسار فريق منهم الى تونس حيث بنوا مدينة كمبه وشادوا هنالك تلك الامبراطورية الضخمة قرطاجه

وهكذا ضرب الفينيقيون في مشارق الارض ومغاربها فلم تقف بهم الهمة حتى مدوا تجارتهم في كل انحاء العالم المعروف يومئذٍ. وقد ابقوا في كل تلك الاصقاع آثاراً عنهم حتى اليوم تروي للخلف عن توقدذ كائهم ومضاء عزيمتهم وكمال رقيهم (١)

وقد اثبت علماء اليوم ان مهد الحضارة والعلوم والمعارف هو فينيقيا ، لا اليونان ، وان فينيقيا الحق بتلك الكرامة الجلى التي لليونانية في العالم ، غير متنقصين فضل اليونانيه في شيء .

فقد كتب المسيو بوجولا في « مراسلات الشرق »

---

١ مسبرو ص ٢٧٩ وما يليها والدبس عد ١٠٦ وما يليه

ما ملخصه :

« قد يمكن ان يكون الفينيقيون اخذوا عن الهنود والفرس والبابليين بعض المعارف الاولى وبعض التقليدات النافعة . لكن ما لم يخترعوه قد كملوه . فقد اخذوا شرارة فصيروا منها شمساً . والحق يقال ان هذا الشعب جاد علينا باكثر المنافع . فمصر القديمة جعلت حكمتها وعلومها اسراراً فكانت تحجب مصباحها لئلا يبعث نوره لارض سواها . واما فينيقية فلم تكن لتألوا جهداً في تسطيع انوار معارفها في كل صوب . فتتراءى لي مصر في اعصرها الخالية بهيئة كاهن لا ينطق بشيء بل يخبي نوره المقدس في اعمق خفايا هيكله . واما فينيقيا فاراها بهيئة اولئك الالهة القدماء الذين كانوا يلقون على رؤوسهم منارة في وسط البحور . واخص مايحق لفينيقيا الفخار به اختراع الملاحة واختراع الكتابة . »

وللمسيو لنرمان في مثل ذلك قوله :

« ولدت الحضارة في مصر واشور ولكن كان الفينيقيون دعاتها ورسلها . فلا تجد بلداً من جزر اليونان حتى بوغاز جبل طارق الا رأيت فيه آثار تعليمهم وما كان لاسفارهم فيه من

بث مبـادي، التمدن . فقد جعل نفوذهم ونشاطهم بلاد اليونان وايطاليا وفرنسا واسبانيا تغادر حالتها الاولى البربرية وتصبح اسيوية الى ان احرزت بنفسها الرجاح الذي رقاها الفينيقيون الى أعلى درجاته . » (١)

وللمسيو جان يانوسكي في كتابه « سوريا القديمة » ما ترجمته ملخصاً :

« ان الفينيقيين كانوا محور التجارة ومستودع خيرات العالم ومثمناته من الهند والصين وسيباريا الى شواطئ بحر قزوين واسيا الوسطى وبلاد العربية . ولم تبعد على همة بحّارتهم الاباسل مجاهل افريقيا وشواطئ اسبانيـا وبلاد الغاله (فرنسا) وايطاليا واليونان

ولم يكن على سطح البحر المتوسط مزاحم لفينيقيين . فبلغوا ما بلغوا من القوة والعظمة حتى انه لم يكن سبيل للاتصال بين اسيا واوربا وافريقيا الا بواسطة سفنهم » (٢)

وللمسيو جبريال شارم في « رحلته الى سوريا » ما حكايته :

---

(١) الدبس : تاريخ سوريا ج ١ عد ١٠٩ و١٣٥

(٢) جان يانوسكي : تاريخ سوريا القديمة ف ٩ ص ١٠٦ ومايليها

« ان الفضل في ايجاد تلك الثورة الادبية التي غيرت وجه العالم فاقامت، على اطلال ذلك التمدن الحقير الذي كان مبنياً في الشرق على قواعد الاثنية ومبادي، الاوتوقراطية والروح العسكرية، تمدناً اخر اجل واسمى فاتحاً باب الرقي على مصراعيه للتجارة العامة وللمبادي، الحرة انما مرجعه الى فينيقيا. فهي صاحبة الفضل بايجاد هذا التمدن الرحب الذي منه تكون الغرب الحالي.

« ذلك هو الفضل الاكبر الذي لفينيقيا على العالم. وقد جهل العالم فضلها ردحاً من الدهر. وهو ما يجعل لتلك الامة الكريمة المقام الاول بين الشعوب التي كان لها تأثير قاطع في تكييف الهيئة الاجتماعية

« انها لم تخترع المدهشات مثل غيرها من سابقات الامم انما هي اوحت لهن مبادي، الاختراع وقواعد الاستنباط: فما لم تعمله هي عمله غيرها بفضل انوارها وبواسطة تعاليمها. وقد لا يكون أضاء مصباح اليونانية لولا شعلة تلك الانوار والتعاليم

« ان ذلك الشعب الذي ظل فضله مجهولاً دهراً طويلاً ثم ظهر اخيراً للعلم الحديث فملأ تاريخه على قصره ما كان

من الفراغ الغريب بين الشرق القديم والغرب الحديث ، ان هو الا تلك الامة الصغيرة الفينيقية التي يرجع اليها الفضل وينتهي الشرف في انها كانت همزة الوصل بين ذينك العالمين

«وبيناهي تمتد من الجنوب الى جبل الكرمل ويحفظها من جهة الغرب البحر المتوسط ، كان لبنان من جهة الشرق ، يدفع عنها غزوات الفاتحين الاجانب ، تجلل قمه احراج من « الارز » واسعة الاطراف

«وقد ملك الفينيقيون كل السبل التي كانت بين الهند وبلاد الكلدان والعربية وبلاد القوقاس وبين الغرب

« ولما نزلوا في بلاد اليونان وجدوهم وهم اقرب الى العصابات المتوحشة منهم الى الشعوب المتمدنة . فعلموهم اللغات والصناعة والكتابة والزراعة وفن الحساب . وقد تعرف اليونان على يدهم الى كثير من الاختراعات التي نشأت في الشرق ثم هذبها وحسنها ذكاء الفينيقيين بل نبوغهم في وضع الاختراع قيد الاستعمال . وقد اخذ اليونان عن الفينيقيين كل الكلمات الدالة على تلك الاختراعات والحاجيات

«وخلاصة القول ان اليونان مدينون بحضارتهم الفينيقيين . وان ما لتلك الحضارة والعلوم من فضل على البشرية يرجع

اصله الى فينيقيا لان اليونان ما كانوا إلا تلاميذاً لهم» (١)

وقد كتب المسيو ارنست كورسيوس في تاريخه عن اليونان فصلاً شائقاً عن تفوق الفينيقيين وعن اخذ اليونان عنهم جاء فيه :

« لا ينكر على اليونان انهم توصلوا الى اخذ الحضارة عن شعب ارقى منهم (يريد الفينيقيين) وانهم تمكنوا بذكائهم ان يسرقوا منه سر تفوقه » (٢)

***

وقد كانت جبال لبنان في ذلك العهد معقل فينيقيا الساحلية وحصنها الحصين . فقد صان لبنانُ فينيقيا وحمى استقلالها فكان له فضلٌ كبير في ما بلغت اليه من الجاه والعظمة

من اجل ذلك تجسم عز فينيقيا ومجادها في لبنان . وكأن « العناية » اختارته من قديم الدهر ليكون في الشرق ملجأ امينا للحرية وموئلا حصينا للفازعين اليه فأنشدت مجدهُ الكتب وقدست ارزه الانبياء حتى باتت للبنان

(١) جيريال شرم : « رحلته الى سوريا » ص ٦٩ وما يليها

(٢) ارنست كورسيوس : « تاريخ اليونان » ج ١ ص ٤٩

كرامة القدسيات ولارزه حرمة الاسرار . يدلك على ما بلغه من المقام والاجلال ان (الكنيسة) حين شاءت ان تحصر آيَ المجد في السيدة العذراء لم نجد تعبيراً اوفى من تخصيصها بالآية « قد ارتيت مجد لبنان » (١)

ولئن انحصرت امجاد فينيقيا في لبنان فقد تجسمت امجاد لبنان في ارزه الخالد فاطلّ من شاهق تلك القمم على الاجيال تتابع والقرون تتحالف ، فقامت على اقدامه دول وأندثرت دول : فرأى الاشوريين والكلدان والفرس واليونان و لرومان يتطاحنون ويتفانون وهو يشرف على السهل من عالي بواسقه اشراف النسر من شاهق وكره لا تصل الى سمعه صاصلة السيوف ولا تنال من شماء عزته شرة الفاتحين

نظرت ملوك التورات وشعراؤها الى جلال لبنان وجماله فراعَ جلاله الملوك وجماله الشعراء فخصوا لبنان وارزه بآيات ساحرات خلّدت ذيك الجلالَ والجمال دلاً على الملوك واعجازاً للشعراء

قال الحكيم في معجزه « نشيد الاناشيد » :

---

(١) اشعيا ٣٥ عد ٢

« الملكِ سليمان صنع لنفسه تختاً من خشب لبنان »

« هلمي معي من لبنان ايتها العروس ، معي من لبنان ، انظري من راس امانة ، من راس سنير وحرمون ، من مرابض الاسود من جبال النمور »

« عين جنات وبئر مياه حية وانهار من لبنان »

« عنقك كبرج من العاج وعيناك كبركتي حشبون عند باب بنت الجماعة وانفك كبرج لبان الناظر الى دمشق »

« ان كانت سوراً بنينا عليه صرحاً من فضة وان كانت مصراعاً شددناه بالواح من ارز » (١)

وقال الملك داود « في مزاميره » :

« الصديق كالنخل يزهو ومثل ارز لبنان ينمي »

« تروى اشجار الرب ارز لبنان الذي غرسها »

---

(١) نشيد الاناشيد ف ٣ عد ٩ وف ٤ عد ٨ و١٥ وف ٧ ع ٤ وف ٨ ع ٩

مزامير داود ف ٩١ عد ١٣ وف ١٠٣ عد ١٦ و١٩ وف ١٤٨ عد ٧ و٩

نبوءة اشعيا : ف ٣٧ عد ٢٤

سفر هوشع : ف ١٤ عد ٦ و٧ و٨

«هناك تعشش العصافير والقاق بيت في السرو»

«سبحي الرب من الارض ايتها التنانين وجميع الغمار الجبال وجميع التلال . الشجر المثمر وجميع الارز»

وقال اشعيا : «قد قرعت الرب على لسان عبيدك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال واواخر لبنان قاطعاً ارفع ارزه وخيار سروه وبالغاً الى علانه الاقصى والى غابة كرمله»

وقال هوشع : «واكون لاسرائيل كالندى فيزهر كالسوسن ويمد عروقه كلبنان وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان فيرجع الساكنون في ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم ويكون ذكره كخمر لبنان»

وقد وصف حزقيال ارز لبنان بايملاء النفس بهجة قال :

«هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنان غبياء الظل شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة . المياه عظمتها والغمر رفعها . انهارها جرت من حول مغرسها ومجاريها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء . فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وكثرت اغصانها وامتدت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها

عششت جميع طيور السماء. وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء. وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة »(١) .

وقد عظم شأن فينيقيا واتسعت املاكها فكانت عظمتها واتساعها سبب في تقهقرها وسقوطها: سنة الطبيعة في الممالك والدول فهكذا تقهقرت اليونان. وهكذا سقطت روما. ولتلك الاسباب نفسها تضاءلت الدولة العثمانية بعد ان مدت فروعها في اسيا واوربا وافريقيا .

في الجيل التاسع ق.م دخل « الاشوريون » فينيقيا وافتخر تجلّات فلاصر انه اخذ من خشب الارز واعتز نمرود انه « اخذ نواحي جبل لبنان وذهب نحو بحر فينيقيا الكبير وترنم على اعالي الجبال بتسابيح الالهة العظام» (٢)

***

وفي ذلك العهد جلت جماعةٌ من الفينيقيين صحبة « اليسار » بنت الملك. فركبوا البحر الى سواحل تونس حيث نزلوا حوالي سنة ٨٨٠ ق.م. وبنوا مدينة سمتها

---

(١) حزقيال : ف ٣١ عد ٣ الى ٧

(٢) الدبس ج ١ عد ١٢٠

اليسار « قرية حديثا » وهي عند العرب « قرطاجه » تلك التي قدر لها ان تصبح فيما بعد ضرةً لرومة ومزاحمة لها على مجدها

وقد حلت قرطاجه في ذلك العهد محل صور وسادت افريقيا الشمالية .

اما نوع الحكم فيها فكان جمهورية على رأسها هيئة من القضاة منتخبة . كانوا يترأسون مجلس الشيوخ . وفي يد ذلك المجلس زمام شؤون الدولة ومصالح الامة . وكانت السلطة العليا لمجلس المائة . وهو مجلس كان ينتخب الشعب اعضاءه للحياة فكان سلطانه فوق كل سلطان

وقد ظلت قرطاجه على ود مع رومة حتى الجيل الثالث قبل المسيح . وفيه اختلفت الدولتان على تملك جزيرة سيشيليا فاضطرمت بينهما نار الحروب « البونية » اي الفينيقية . وهي حروب ثلاث دامت اكثر من مائة سنة من ٢٦٤ الى ١٤٦ قبل المسيح . وقد اشتهر فيها هميلكار برقا بانتصاراته العديدة على الرومان . حتى خلفه في القيادة ولده ذلك الفتى الباسل والقائد الخالد الذكر « هنيبال »

وهو قرطاجي لبناني الاصل . ففي سن التاسعة والعشرين من عمره استلم قيادة الجيوش المحاربة في اسبانيا فعبر نهر الايبر *Eber* وحاصر ساغونت وفتحها ثم قطع جبال « البيرنه » واجتاز نهر « الرون » وجبال « الاب » والتقى « بسيبيون » على ضفاف نهر تيسين *Téssin* فاصلاه حرباً بدد فيها شمل الجيوش الرومانية

فارسلت روما جيوشاً غيرها لرد الغازي القرطاجي فالتقى الجيشان في ترابي *Trébie* وعلى لرومان القائد سمبرونيوس سنة ١٢٨ ق م. فاحمي وطيس القتال حتى نال هنيبال من اعدائه فمزقهم تمزيقاً . وجاءه اخيرا القنصل فلامينيوس بجيش لجب الى بحيرة « ترازيمن » *Trasimène* فلم يرجع سليل الفينيقيين عنهم الا وسيفه في ظهورهم واكاليل الظفر تعصب هامته . سنة ٢١٧ ق . م

وما زال من فتح الى فتح حتى قطع اوصال الجيوش الرومانية في موقعة كان الشهيرة (٢١٦) حيث لقي القائد بول — اميل حتفه وحوله اشلاء سبعة الاف محارب روماني ولولا ان خان الجد هنيبال في اخر امره ، لاقام معالم

قرطاجة على اطلال روما كما هو مشهور في تاريخ الدولتين. (١)

***

وبعد ملوك اشور اتى الكلدان والفرس في الجيل السادس ق. م. فظل اللبنانيون يناصبونهم القتال ذوداً عن حريتهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا (٢)

***

وفي منتصف القرن الرابع سنة ٣٥٦ ق. م. ظهر في سماء مقدونيا نجم ذلك الفاتح الاكبر فبعث انواره الساطعة في افلاك الممالك شرقاً وغرباً. فخسفت لطلعته نيراتها وهوت تلك الاجرام من ابراجها. فنال ذو القرنين من بسطة السلطان وسطوة الملك ما لم ينله فاتح قبله. فاستظلت فينيقيا افياءه فيما اظلت من المدن والبلدان.

---

(١) بنيت قرطاجة بالقرب من تونس وقد بلغة خشية الرومانيين من شوكتها وعظمتها ان احدهم « كاتون القديم » جعل لكل خطبة لازمة كان يرددها دائماً : «واني افتكر من جهة اخرى انه لا بد من سحق قرطاجة»

(٢) مسبرو تاريخ شعوب الشرق القديم ص ١٤٨

الباب الثاني [1]

لبنان على عهد الرومان

لم تدفع شوكة الاسكندر وبطشهُ يدَ الموت عن مهاده الملكي فتقاص ظله الوارف وقضى تاركاً ذلك الملك الواسع لخلفاء ناءت منا كبهم تحت اعبائه. فلم يبالغ «الفاتح الروماني» وجيوشهُ فينيقا الا وشوكة اليونان قد خضدت فيها فنشر عليها «بومبياس» القائد رايةَ روما سنة ٦٤ ق. م. فقدر لها ان تظلَّ خافقة في سمائها الى غرة القرن السابع

لم ينكر الرومان على فينيقيا فضلها ولم يحكموا في لبنان حكم الظافر المكتسح بل قدّروا ذلك الشعب الاثيل قدره واحترموا مكانته وقد اثبتوا احترامهم له بمظاهره

---

[1] بوشيه: «سوريا على عهد الرومان»
جاستون ماي: «مبادي القانون الروماني»

عديدة وشواهد ناطقة ، منها ان الكثيرين من الامبراطرة الرومانيين احسنوا المجاملة لفينيقيا فسكنوا مدن لبنان واهتموا بتخليد ذكرهم فيه. فبنوا المدن الجميلة وغالوا في اتقانها : فان الامبراطور « ادريان » زار لبنان في القرن الثاني وسكن مدة في جبيل . وشاد « اغسطس قيصر » مدينة بيروت واطلق عليها تيمناً اسم ابنته فدعاها « يوليا السعيدة » وخوّل اهلها حقوق الرومانيين .

وقد انجب لبنان الفينيقي كتاباً وعلماء كانوا موضوع اعجاب العالم الروماني واجلاله .

منهم « فيلون الجبيلي » ولد في جبيل ، حوالي سنة ٧٠ للمسيح وعاصر الامبراطور ادريان في القرن الثاني ، وله مؤلفات عديدة في مواضيع مختلفة منها تاريخ الامبراطور ادريان وتاريخ فينيقيا ومجموعة عن المدن الكبرى والرجال العظام الذين خرجوا منها. وما بقي من تلك المؤلفات يشهد لصاحبها بالعلم والبلاغة .

واكبر علماء نجبوا في القانون بين الرومان كانوا من بلادنا وفيها اخصبهم « اولبيان » القانوني وهو من ضواحي صور ولد حوالي سنة ١٧٠ للمسيح وكان استاذاً للحقوق

في كلية بيروت ثم اصبح مستشاراً خاصاً للامبراطور الكسندر سافروس

وقد فاق الجميع علماً وادباً « بابينيان » القانوني الطائر الصيت وهو من واضعي القوانين الرومانية التي عنها اخذ العالم باسره وقد كان هو ايضاً استاذاً للحقوق في كلية بيروت ثم مستشاراً خاصاً وصديقاً حميماً للامبراطور سبتيموس سافروس . وقد بلغت منزلته بين علماء الرومان ان شرعة رومانية وُضعت سنة ٤٢٦ قضت بانه اذا تساوت آراء العلماء في معضلة قانونية يرجع الى رأي « بابينيان » فيكون فصل الخطاب .

وامثال اولئك الاقطاب كثيرون مثل « برفير الصوري » و« يوليوس بولس » ممن كان يشار اليهم بالبنان بين علماء الرومان

وقد بلغ من احترام الرومان لفينيقيا ان ذلك الشعب الجبار الذي دوّخ العالم وساد الشعوب لم يستنكف من ان يجلس على عرش روما امبراطرة من اصل فينيقي فكان منهم « سبتيموس سافروس » وقد ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ « وسبتيموس جيتا » واخوه « كاراكلا » : ملك

الاخوان سوية من سنة ٢١١ الى سنة ٢١٢ ثم ملك كاراكلا وحده الى سنة ٢١٧

« واليوجبل » او « اله الجبل نسبة الى جبل لبنان »(١) وقد ملك من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢٢

« والكسندر سافروس » ملك من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٣٥

ومن المعروف في تاريخ روما ان عصرها الذهبي وتفوقها الادبي كان على عهد الامبراطورين من آل سافروس : سبتيموس والكسندر ، فقد اتخذا لهما مستشارين واخصاء من مواطنيهم الفينيقيين اللبنانيين امثال بابينيان واولبيان ويوليوس بولس فكانوا كالهالة الوضاءة احاطوا بالعرش الروماني فانبعثت منه الى العالم انوار العلوم والمعارف والقوانين الاجتماعية مما لم يسبق له مثيل في التاريخ . ومن مآثر ذلك العصر الذهبي وضع الشرائع المدنية . وتخفيف الضرائب عن عاتق الاهلين . وتحسين حال الجندي . وانشاء المصارف واقامتها على قواعد تمكنها من تسليف المال بفائدة قليلة

(١) جان يانوسكي : تاريخ سوريا القديمة ف ٢ ص ٢٩

وقد كان الامبراطور الكسندر سافروس على جانب عظيم من دعة الاخلاق وسمو المبادئ. فنبذ عادات الفخفخة في البلاط الامبراطوري وله في ذلك قوله المأثور: [ان عظمة الامبراطورية تقوم على الاخلاق، لا بالفخفخة والابهة الظاهرة]

وقد أوصل اولئك الامبراطرة الى مقام يحسر دونه الطرف عزم اشم وهمة قعساء وثقة بالنفس لا تهي: فيها امثلة وعبر للمتأخرين ...

وان شعباً ينجب امثال اولئك العلماء ويدفع الاقدام ابناءه الى تبوء عرش القياصرة لحقيق بان يحفظ التاريخ حرمته ويحترم العالم كرامته على كرور الازمان

وقبيح بالاحفاد، وان قدم العهد، ان يتطرق القنوط الى قلوبهم ويستولي اليأس على همهم فيفقدوا ثقتهم بانفسهم وبامتهم: فان افظع ما يُمنى بهِ شعب فقدُ الثقة بنفسه، وهم لو شاؤا لنهض بهم الجد ومشوا الى حيث يعجز عن اللحاق بهم ابناء الامم الاخرى

...

ولم تفارق اللبنانيين، على عهد الدولة الرومانية، همةُ

اجدادهم الفينيقيين بل رادوا الاقطار كما رادها آباؤهم فحمل اهل بيروت وجبيل وصور الى العالم مصنوعاتهم ومحصولاتهم كالانسجة الحريرية والفراء والطيوب والبهار وانشأت نزالاتهم المحلات التجارية في المدن التي نزلتها. فكان للصوريين والبيرتيين محال في اعظم فرض ايطاليا لا سيما « اوستيا » « وبوزولي » من اعمال نابولي وفي « سالونا » بدلماسيا وفي « اسكولي » على الادرياتيك وفي « ملاكا » من اعمال اسبانيا وفي جرمانيا وفرنسا لا سيما في « بوردو » « وليون » « وباريس » « واورليان »

وقد كثرت الجاليات الفينيقية اللبنانية في بعض تلك المدن حتى اصبح لهم فيها شأن سام مكنهم من تشييد المقامات الدينية لاقامة شعائرهم فيها ، فقد اثبتت مجموعة الخطوط اللاتينية ان جالية بيروتية اقامت في « بوزولي » نصباً للمشتري الاعظم البيروتي

وروى القديس غريغوريوس اسقف طور (١) انه لما

---

(١) غريغوريوس اسقف طور ولد سنة ٥٣٨ وتوفي سنة ٥٩٤ وكتب تاريخ الفرنجة . وجونتران هو ابن كلوتر بن كلوفيس ولد سنة ٥٢٥ وتوفي سنة ٥٩٣

اتى الملك جونتران بن كلوتر الاول الى مدينة اورليان خرج الشعب للاقاته وكانوا يجأرون بالدعاء له بالعبرانية والسريانية واللاتينية . واثبتت مجموعة الخطوط اللاتينية من الخطوط التي عُثر عليها في مقبرة مدينة كونكورديا ، في ايطاليا الشمالية ، ان الاجانب المدفونين هناك جميعهم سوريون(١)

وقد كانت النصرانية في لبنان على عهد الرومان تنقلب بين الاعزاز والاضطهاد : فطوراً يحميها ملوكهم فيشتد ازرها، وطوراً يناصبونها العداء فيقوى ساعد الوثنية عليها . فلما جلس « قسطنطين الكبير » على عرش الاستانة أذاع في سنتي ٣١٤ و٣٢٤ أمرين أباح فيهما للنصارى مباشرة دينهم واقامة شعائرهم على ما يشتهون فرسخت اذ ذاك قدم المسيحية في لبنان ثم ما لبثت ان ذلت على عهد « يوليانس الجاحد » ثم عادت فاعتزت على عهد « تاودوسيوس الكبير »

وما زالت بين ارتفاع واتضاع حتى قُدّر لها ، على ما اثبته العلماء ، ان تظفر فيه نهائياً على جيوش الاوثان في

---

(١) الدبس ج ٤ ص ١٤٨

القرن السادس « بفضل الشعب الماروني » (١) فاصبح لبنان منذ ذلك العهد موئلاً للنصرانية في سوريا . . .

***

يمزج العلماء معظم تاريخ لبنان بتاريخ الموارنة من الجيل السادس الى الجيل السادس عشر . والذي يهمنا من تاريخ الموارنة في هذا البحث استقراء تاريخ لبنان فاذا جرى ذكر الموارنة فمن حيث انهم لبنانيون فقط :

نشأت المارونية في اوائل الجيل الخامس في شمالي سوريا في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورش حيث تصدى « القديس مارون » لمحاربة الاوثان فقام يدعو الناس الى الدين المسيحي . فذاع صيت فضائله وراسله القديس « يوحنا فم الذهب » واهتدى على يده كثيرون الى النصرانية (٢) ولم يقض القديس مارون نحبه الا وله تلاميذ عديدون

---

(١) الاب لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الاثار ج ٢ ص ٢٣٩

(٢) الدبس : تاريخ سوريا ج ٥

الدويهي : « البطريرك اسطفان » : تاريخ الطائفة المارونية ص ١٧ وما يليها

خلفوه في الدعوة والتبشير فتبعهم جمهور غفير أطلق عليهم لقب « الموارنة ». وقد اخذ الموارنة يهاجرون من وادي العاصي الى لبنان. فسكنوا اولاً جهاته الشمالية حيث انضم اليهم اللبنانيون المقيمون في تلك النواحي وامتزجوا بهم فاصبحوا جميعاً شعباً واحداً لم يقتصر نموه على جهات الشمال من لبنان بل تعداها الى اواسطه ثم الى جنوبه

وما زالوا على نمو وازدياد واستقواء حتى تقلص ظل الوثنية من لبنان على يدهم فاصبح اللبنانيون والحالة هذه شعباً مسيحياً واحداً تجمعهم وحدة الدين وتشد اواصرهم رابطة المصلحة المشتركة

ولم يلبث ان شعر ذلك الشعب في بدء امره انه قبل كل شيء « عنصر مسيحي » امتزجت وطنيته بدينه واندغمت قوميته بمذهبه، ساعده على سلوك هذا السبيل والاسترسال فيه التفاف جيرانه من اليعاقبة اولاً والمسلمين بعدهم حول العنصرية الدينية وانضواؤهم تحت لواء العصبية المذهبية فكان من ثم بين الفريقين مناوءات وعداوات اضطرت اللبنانيين الى التحصن في جبالهم والاعتصام بمعاقلهم ذائدين عن دينهم واستقلالهم منعاً للاجنبي من التدخل

في امورهم والقضاء عليهم

وقد ظلت « العنصرية المسيحية » رائد اللبنانيين في وطنيتهم دهراً طويلاً فقامت سداً منيعاً في وجه الفاتحين الذين تقلبوا في سوريا. فهي التي حمت لبنان وصانت حريته واستقلاله منذ الجيل السابع حتى الفتح التركي في الجيل السادس عشر. وفيه ظهرت تباشير « القومية اللبنانية » التي حلت محل العنصرية المسيحية

واول مرة أتيح فيها للبنانيين ان يثبتوا للملاء قوة عنصريتهم وبأس رجالهم كانت يوم ردوا تيار الغزاة من العرب عن جبالهم فظل ثابتاً عزيز الجوانب بينما اركان المملكة الرومانية تنهار حواليه ويولي هرقل الادبار امام جيوش المسلمين .

الباب الثالث

لبنان على عهد الردة والعرب

في مستهل القرن السابع للمسيح أطلق من الحجاز جواد عربي صميم فاجتاح الحجاز والجزيرة ولم يقف به خالد بن الوليد وعبيدة بن الجراح الا وقد ساقا امامهما خيل الروم حتى اليرموك وحمص وحماه وقنسرين . فدوخا الاقطار الشامية . ولم يلبث عمر بن الخطاب حتى أنفذ الى مصر وفارس غزاته فاتحين

ولم يكد يستقر الامر لمعاوية في الشام حتى طمح بابصاره الى القسطنطينية وريثة امجاد الرومان وعنوان عظمتهم بعد روما . فسير عليها في سنة ٤٨ هجرية جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف فمشى العرب من فتح الى فتح حتى بلغوا ابواب القسطنطينية وضربوا عليها حصاراً محكماً .

وكان في ذلك الجيش خيرة قواد العرب كابن عباس وعمر ابن الزبير وابي ايوب الانصاري (١)

وقد اجمع المؤرخون الذين كتبوا حوادث تلك الايام ان من اكبر العوامل في خيبة معاوية ورجوعه عن فتح عاصمة الروم، غاية مجهوداته ومنتهى آماله، كان خروج اللبنانيين عليه في سوريا. وبيان ذلك ان العرب دوّخوا الشام فخضعت لهم اقوامها واندغمت فيهم صاغرة. اما لبنان فقد ظل قائماً في وجههم يتشبث اهلوه بعنصريتهم واستقلالهم ولهم في جبالهم ما يشاؤن من القوة والمنعة

فلم يحسن العرب السياسة مع لبنان. فبدلاً من ان يحترموا نزعة قومه الى الحرية وتشبثهم بالاستقلال فيستميلوهم اليهم ويحالفوهم على الاجانب دفعهم حب السلطة والتوسع الى مناوأة اللبنانيين كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً. فلم ينم اللبنانيون الاباسل على الاذى ويستسلموا للفاتحين. بل باتوا في قمم جبالهم ممتنعين يرقبون الفرص لرد اطماع الغزاة عنهم وحملهم على احترام عنصريتهم واستقلالهم. فلما سمعوا بفتوح جيش معاوية وبانه اخذ يضرب

(١) ابو الفداء ج ١ ص ١٩٧

القسطنطينية وهي تكاد تسقط في يده، راعهم الامر ليلهم الروم، وهم نصارى موالون، وخوفهم من استفحال شوكة العرب وهم لم يحترموا حقوق اللبنانيين ولم يراعوا امتيازاتهم . فلما اشتدّت وطأة العرب على الروم، وعاهلهم يومذاك قسطنطين اللحياني، دعا الملك قسطنطين اللبنانيين لنجدته فلبوا سراعاً وهبطوا من معاقلهم واخذوا يصلون معاوية حرباً دراكاً وقتالاً مضنكاً حتى أفسدوا عليه خططه فلم يعد بامكانه التفرغ لمحاصرة القسطنطينية بل اضطر الى الاهتمام بامر اللبنانيين وردهم عن المدن والاقطار الشامية وهي مهد قوته وقاعدة ملكه . فأكره على مفاوضة الملك بامر الصلح ووقعه له على ما يوافق مصلحة الروم . فنجت بذلك « بيزنطية » من فتح قدّر لها وقوعه بعد مضي ثمانية اجيال على يد محمد الثاني سنة ١٤٥٣

واليك الشواهد التاريخية على ما تقدم :

جا- في تاوفانوس المؤرخ اليوناني عن سنة ٦٦٩ : « ولما سمع معاوية ومستشاروه (بغزوات المردة) خافوا خوفاً شديداً حتى انهم ارسلوا رسلاً الى قسطنطين الملك في طلب الصلح وفوضوا ان يعرضوا ايضاً الجزية السنوية ... ومن

بعد الاخذ والرد في امر الصلح تم الاتفاق كما يلي : ان يدفع العرب لخزينة الروم كل سنة ثلاثة الآف وزنة من الذهب وثمانية الآف مملوك وخمسين فرساً كريماً . »

وجاء فيه عن سنة ٦٧٦ : « وبسبب غزوات المردة في الارجاء التي حول لبنان ... طلب هو نفسه (اي عبد الملك) تجديد عهود الصلح التي كانت عقدت على عهد معاوية فارسل رسلاً الى الملك في ذلك وتعهد بان يقدم ٣٦٥ وزنة من الدنانير الذهبية ومثل هذا العدد من المماليك وقدراً لا يقل عنه من الخيول الكريمة . » (١)

وقد دون ايضاً تلك الحوادث المؤرخ اليوناني شدرانوس حيث جاء ما ترجمته ملخصاً : « وفي السنة الثامنة لقسطنطين اللحياني بلغ المردة من القوة في لبنان انهم اوقفوا تقدم العرب وارغموا الخليفة معاوية على طلب الهدنة من الروم لثلاثين سنة على ان يدفع العرب جزية قدرها ٥٠ فرساً كريماً ومئة مملوك وعشرة الآف ذهباً » (٢)

وفي ذلك يقول انشدياق : « لما حاصر معاوية قسطنطين

---

(١) مجموعة الاباء اليونان ج ١٠٨ ص ٧٢٢ وما يليها

(٢) فولني : رحلة الى سوريا وفلسطين ج ٢ ص ١٠

الملك اللحياني في القسطنطينية ارسل الملك قسطنطين يستنجد بالمردة فانجدوه و كفوا عنه العرب فاضطر معاوية ان يعقد الهدنة للملك قسطنطين . »

وقد ذكر الشدياق في تاريخ سنة ٦٩٩ : « ان الملك طيباريوس ارسل عساكره لغزو الشام ومحاربة العرب الذين دخلوها فكتب الى الامير سمعان امير جبل لبنان ان ينجده بالعسكر فاجابه وارسل الجيوش نحوهم الى ان شارفوهم فالتقى حينئذٍ العسكران وما زالوا بهم الى ان استظهروا على العرب فلما بلغ طيباريوس ذلك داخله السرور وخلع على الامير سمعان وعظمه » (١)

وقد تبسط في سرد تلك الحوادث المسيو جول دافيد في تاريخه «سوريا الحديثة» حيث جاء عن مساعدة اللبنانيين للروم واضطرارهم معاويه الى تحويل قواته عن القسطنطينية ما ترجمته ملخصاً : « اما ما اضطر العرب الى تحويل قواهم عن الروم فقد تم على يد امة جديدة كانوا يسمونها « الموارنة » . فان ما أبداه رجال تلك الامة من الجرأة والعناد في القتال وما اظهروه من الدرابة والهمة في خططهم

(١) الشدياق ص ٢٠٨

ومن الحكمة في توزيع قواهم كل ذلك استرعى بال معاوية وما لبث ان راعه الامر حتى اضطر الى تحويل قواه عن حصار القسطنطينية فلم يتمكن من ارسال كل جيشه عليها

« فامام هذه الحوادث يتساءل المرء كيف نظم ذلك الشعب نفسه ؟ بل كيف بلغت منه الهمة والنشاط حداً مكنه من الوقوف في وجه ذلك الغازي المكتسح يوم كان القنوط عم سائر مسيحيي سوريا ؟ ..

« تلك امور لا يمكننا تبيانها الا اذا رجعنا شيئاً الى الزمن الغابر .. وعلى كل فمن الثابت انه كان في نفس ذلك الشعب منذ القدم روح كبيرة ونزوع قوي الى الحياة حتى تمكن على ممر الاجيال من رد اطماع المسلمين عنه . فذاق في جهاده المتواصل حلو الحوادث ومرها . لكنه لم يفقد في كل حال حتى يومنا هذا قوميته ودينه وعاداته .. اما اصل عصبة اولئك الابطال التي صارت شعباً فيما بعد فقد اختلف فيه المؤرخون : فمن قائل انهم هم « المردة » الذين كان لهم كل مميزات سكان الجبال كالشجاعة وحب الاستقلال .. وعلى كل فسواء كان هذا الشعب من المردة او كان منذ الاعصر الاولى من سكان جبال لبنان او كان

مجموعاً من المسيحيين الذين فزعوا الى لبنان على عهد الفتح الفارسي او الفتح الاسلامي فالحقيقة التي لا جدال فيها هي ان ذلك الشعب كان قد اصبح في اواخر الجيل السابع في سوريا على جانب عظيم من القوة وان معاوية اضطر ان يحسب له حساباً وانه كان يومئذٍ على ما اكده المؤرخ تاوفانوس قد مدّ رواق ملكه من جبل طوروس في اقصى شمالي سوريا حتى الجليل حوالي اورشليم المدينة المقدسة .»

وبعد ان يذكر المؤلف ما قيل في اصل الموارنة مما لا دخل له في هذا البحث يأتي على ما فعلوه من الاعمال الباهرة في سبيل حريتهم واستقلال بلادهم قال :

«كان الموارنة شديدي التعلق باستقلالهم حتى التعشق ، كثيري التشبث بدينهم عن اعتقاد حي ... من اجل ذلك لم تهن لهم عزيمة في رد حملات العرب عن بلادهم حتى انهم في مزاولة الحروب ومداومتها ، قد ألفوا فن القتال فلم يلبثوا ان اصبحوا جنوداً محنكين ورماةً مدربين وفرساناً أباسل لم يكتفوا برد الاجنبي عن بلادهم بل طمحوا الى توسيع سلطانهم فتبسطوا فيه من جبل طوروس شمالاً الى الكرمل جنوباً .»

« ومن الحصون التي انشأوها (بسكنتا) في سفح لبنان الشرقي و(الحدث) في وادي النهر الكبير و(بشراي) على منبسط الجبل وقد اصبحت في ما بعد عاصمة الموارنة »

« ولما غزا العرب سوريا راعت فتوحهم الجبل في بادىء الامر فلجأ الموارنة الى حصونهم يرقبون مرور تلك الزوبعة حتى اذا تفرقت قوات المسلمين في العالم عاد الموارنة الى القتال بعناد شديد »

« وبينما المدن السورية نائمة عن قتال العرب كنت ترى الموارنة يواصلونه بلا انقطاع وقد بلغ منهم اليأس مبلغاً جعلهم يهزأون بامر امبراطور القسطنطينية حين اشار عليهم بملازمة السكينة ، فانهم رغم اشارته لم يلقوا السلاح قط »

ثم يتطرق المؤرخ الى ذكر ماعاناه العرب من اللبنانيين ويأتي على بيان ماحاوله معاوية من الاعمال توصلاً الى خضد شوكتهم وكسر شرتهم فلم ينل منهم منالاً قال :

« عنّى معاوية جيشاً لجباً وسيره على لبنان حتى بسط سلطته على سوريا كلها وقد قسم جيشه الى ثلاثة فيالق واصدر امره ان تطبق في وقت واحد على جبيل وبسكنتا وبشراي . فردت تلك المدن حملات الهاجمين ودافعت دفاعاً

باسلاً فتمكنت بفرط ما بذلت من جرأة وثبات من ارغام العرب على رفع الحصار ... وبعد ما نال الموارنة ما نالوا من التوفيق والنجاح جمعوا شملهم من كل صوب حتى الفوا جيشاً ينيف على الثلاثين الفاً واحتلوا بامرة خيرة قوادهم مواقع حصينة اخذوا يشنون منها الاغارات على وادي العاصي وسهول دمشق واكرهوا ما يناهز الستين الفاً من العرب على الوقوف امامهم في سوريا ، ولولا قتال هؤلاء الحلفاء المتواصل وما اظهروه من الشجاعة والحنكة لتفرغت تلك الجيوش لحرب الروم وتمكنت من الزحف على القسطنطينية ، وربما كانت تلك القوة كافية كافلة لسقوط العاصمة البيزنطية : ذلك هو العامل الكبير الذي ذكرناه في بدء كلامنا والذي كان له الفضل الاكبر في درء الخطر عن عاصمة الامبراطورية الرومانية » (١)

فمساعدة لبنان للروم على العرب تثبت استقلال لبنان منذ هاتيك الايام واستبسال ذلك العنصر اللبناني في الذود عن حريته وامتيازات بلاده . ولو لم يكن لبنان يومئذٍ ذا مركز خاص لاكره اللبنانيون على القتال مع العرب

(١) جول دافيد : سوريا الحديثة ص ١١٣ وما يليها

اسوةً بسائر الاقطار السورية .

وقد ظل اللبنانيون على استقلالهم حتى قدم الصليبيون الى سوريا فحالف لبنانُ الصليبية على الدولة الفاطمية لذات الاسباب التي جعلته في الجيل السابع يحالف الروم على دولة بني امية .

وقد نالت الصليبيةُ من تلك المحالفة ما ناله الروم قبلهم من الفوائد . فكان للبنانيين في نجاح الصليبيين وفوزهم فضلٌ كبير ذكره لهم المؤرخون

الباب الرابع

لبنانه على عهد الصليبيين (١)

لم يهتز العالم منذ بدئه لعاطفة او لفكرة اهتزازه لنعرة الدين سواء اتاه على يد بوذا او موسى او عيسى او محمد

في نهاية القرن الحادي عشر دوى في اوربا صوت داعٍ الى الجهاد رددت صداه ممالكها من الشمال الى الجنوب، فجرفت النعرة الدينية سيلاً عرمرماً من الرجال والنساء والاولاد تدفق من الغرب على الشرق، ولم يحل دون تياره ما اعترضه من الاهوال والكوارث برداً وجوعاً وعطشاً

---

(١) راجع الكردينال هرجنرتر : تاريخ الكنيسة ج ٤
والدبس : تاريخ سوريا ج ٦
وابا الفدا : ج ٢

ومرضاً واقتتالاً : تلك هي الحروب الصليبية (١)

ولم تصل جيوش الصليبية الاولى الى سوريا الا وهي منهكة القوى ، حتى انها حين شارفت لبنان كان بلغ منها الاعياء مبلغه فلو تصدى لها فيه عندئذ جيش معادٍ لظفر

(١) حملات الصليبية ثمان : الاولى : ١٠٩٦ — ١٠٩٩ بشر بها بطرس الناسك (بيار لارميت)

الثانية : ١١٤٧ — ١١٤٩ بشر بها القديس برنردوس وسارت بامرة كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا وحاصرت الشام وعجزت عنها واضطر الملكان الى الرجوع الى اوربا

الثالثة : ١١٨٩ — ١١٩٢ بشر بها غليوم صوران وزحفت بقيادة فردريك بربروس امبراطور المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشارد قلب الاسد ملك انكلترا

الرابعة : ١٢٠٢ — ١٢٠٤ بشر بها فولك دي نولي وقادها بودوين التاسع كونت دي فلاندر

الخامسة : ١٢١٩ — ١٢٢١ بامرة جان دي بريين ملك اورشليم واندراوس ملك المجر

السادسة : ١٢٢٨ — ١٢٢٩ قادها فردريك الثاني خليفة جان دي بريين على مملكة اورشليم

السابعة : ١٢٤٨ — ١٢٥٢ قادها لويس التاسع ملك فرنسا وانكسر في مصر في واقعة المنصورة

الثامنة : ١٢٧٠ — قادها لويس التاسع نفسه وتوفي امام تونس

بها ، وقد لا يكون قام للصليبية بعدها في الشام ذلك الملك الواسع الذي تم لها حوالي المائتي سنة

الاّ ان الدولة الفاطمية التي كان لهـا الحكم عندئذ في سوريا وقعت في ذات الخطأ الذي سبق للامويين ارتكابه فهي لم تضرب صفحاً عن الفوارق الدينية فتحالف لبنان حتى يكون معهـا يداً واحدة في الملمات الطارئة ، فظل اللبنانيون والحالة هذه ينظرون الى كل غاز مسيحي نظرهم الى حليف طبيعي تجمعهم واياه رابطة الدين وهي اذ ذاك اقوى الروابط وأمتنها

وكما استفاد الروم من اللبنانيين على عهد معاوية هكذا استفـاد الصليبيون من لبنان يوم بلغوا سوريا ، فانهم استنجدوا اللبنانيين فلباهم لبنان بخيله ورجله وفيه يومئذ من الرجال الاشداء المدربين على حمل السلاح من يعد بالالوف ، فانضموا الى الصليبيين وغشوا معاً الاقـطار الشامية فقامت الصليبية على اطلال الدولة الفاطمية وكان في ذلك للبنانيين يد جلى ذكرها لهم المؤرخون .

واليك بعض مادونوه في هذا الشأن : (١)

قام الصليبيون في ربيع سنة ١٠٩٩ من انطاكية ، متجهين جنوباً الى اورشليم ، حتى بلغوا جبال لبنان حيث كان يقيم معظم الموارنة وهم متحصنون في الجهة الشمالية منه . (٢)

فلما وصل الصليبيون الى طرابلس هبط اليهم الموارنة من مشارف لبنان لنجدتهم والترحيب بهم .

وكان الصليبيون يجهلون تلك الطرقات الوعرة فانبأهم الموارنة ان هنالك طرقا ثلثا توصل الى اورشليم : طريق دمشق وطريقاً تشق لبنان وطريق الساحل ، فاختار

---

(١) عن رستلهوبر : تقاليد فرنسا في لبنان . ولامرتين رحلة الى الشرق ج ١ ص ٤٥٨ وفولني رحلة الى سوريا ج ٢ ص ١٧ .

(٢) يخص الفرنجة الموارنة بالذكر لان سكان لبنان الذين بدأت علاقات الفرنجة معهم كانوا ينتمون الى هذه الطائفة ، والذي يهم الباحث اللبناني هو ان يجمع ما للبنان من المآثر سواء اتته على يد هؤلاء او اولئك : فيذكر فخر الدين ومدبريه من مشايخ بيت الخازن كما يذكر الامير بشير الكبير وشاعره كرامة ، بصرف النظر عن انتمائهم الى هذه الطائفة او تلك ما دام الجميع لبنانيين وما زال الوطن هو المقصود لا الطائفة .

الصليبيون طريق الساحل حتى يظلوا على اتصال مع بواخرهم ، فسار فيها الصليبيون والموارنة معهم فمروا جميعاً بالبترون وجبيل واقاموا ثلاثة ايام على ضفاف نهر ابرهيم ، ثم واصلوا السير حتى نهر الكلب ومنه الى بيروت وصيدا وعكا ومنها نكبوا عن الساحل متجهين نحو المدينة المقدسة فحاصروها وسقطت في يدهم في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩

ولم يكتف الموارنة بان يكونوا هداةً للصليبيين بل تطوع منهم في الجيش عدد وفير فلم يلبثوا ان اشتهروا ببسالتهم وحسن رمايتهم وصبرهم على المكاره حتى شهد مؤرخو الصليبية أنه كان لاولئك المتطوعين يد تذكر في كثير من انتصاراتهم كفتح طرابلس واورشليم وغيرهما

ولما وصل الملك لويس التاسع الى قبرس وجد فيها جالية مارونية كبيرة فبادر رجالها الى فعل ما فعله اخوانهم في لبنان في الحملة الصليبية الاولى ، فانضموا الى جيش الملك ثم اتاهم نجدة من موارنة لبنان فبلغوا جميعاً عدداً لا يقل عن ٣٠٠٠ مقاتل

وقد تقدم مطران الموارنة في قبرس الى الملك لويس فنصحه بالسير الى سوريا ، ففضل الملك ان يزحف على مصر

فكانت حملته عليها وبالاً عليه

ولما رجع الى سوريا لاقاه الى عكا الامير سمعان بالرجال والهدايا والخيول الكريمة مما حمل الملك القديس على ارسال كتاب شكر الى امير لبنان. وقد يكون تطرق الزلل الى ذلك الكتاب بتوالي النسخ والترجمة غير ان انجاد اللبنانيين للملك امرٌ لا شك فيه

وبعد ان تضعضعت قوات الصليبيين في سوريا لجأت البقيةُ الباقية منهم الى لبنان حيث أنزلهم اهلوه على الرحب والسعة ووهبوا لهم الاراضي والمنازل فتوطن كثيرون منهم لبنان حيث كانوا في مأمنٍ من طوارئ الدهر

وقد نوه البابا وات في رسائلهم الى بطاركة الموارنة بالمساعدات الجلى التي بذلها اللبنانيون للصليبيين خلال ثلاثة قرون، كما ذكرها « الدويهي » في كتابٍ أرسله الى المسيو « بونكورس » قنصل فرنسا في صيدا، بتاريخ ٢٦ ت١ سنة ١٦٧١، والكتاب محفوظ باصله العربي في المكتبة الاهلية في باريس رقم ٤٦٢٢ (١)

---

(١) Ristelhueber : *Traditions françaises au Liban* p. 289

وجاء في «سوريا الحديثة» لصاحبها جول دافيد عن وصول الصليبيين الى لبنان في طريقهم الى القدس ما ترجمته:

«بعد ان مشى الجيش (جيش الصليبيين) بضعة ايام على سفح لبنان وصل الى حيث لم يكن بد من الولوج في الجبل فتغيرت حينئذ الامور على غير ما يريد الصليبيون. فان الجبال كانت عالية نواتى. تطل على هاويات عميقة اذا زل اليها المرء تهشم في انحداره على نواشزها، فساروا على دروب منهكة ضيقة، تملأها حصى زالقة، وتملوها صخور هاوية، ومن الجانبين اودية بعيدة القرار، فلو تصدى للجيش بضعة انفار من الاعداء في بعض هاتيك المآزق لصدوه ونالوا منه. الا ان الجيش لحسن حظه، لم يلق في مسيره شيئاً من ذلك، بل كان الامر بالعكس فان ضلع اهالي الجبل كان مع الصليبيين. اولئك هم «الموارنة» الذين ساعدوا الصليبيين فكانوا هداة لهم في الطريق وسباقاً للجيوش. وهكذا مر الصليبيون امام بيروت وصيدا وصور مواصلين زحفهم بلا قتال ...» (١)

وقد نوه بذكر اعمال اللبنانيين وما بذلوه من المعونة

(١) جول دافيد: سوريا الحديثة ص ٢٨٤

الفعالة مؤرخو الصليبيين الذين دونوا حوادث تلك الايام وكانوا عليها شهود عيان كغليوم مطران صور وجاك دي فيتري مطران عكا وغيرهما

من ذلك ماجاء في تاريخ غليوم مطران صور عن الموارنة اللبنانيين :

« ولم يكن ذلك الشعب قليل العدد فهم على ما يقال يربون على الاربعين الفاً وهم يسكنون ارض فينيقية ولبنان . وكان هؤلاء القوم على جانب عظيم من البسالة والتدرب على السلاح ولقد ساعدوا قومنا المسيحيين مساعدات جلى في محاربة اعدائنا . » .(١)

وفي ذلك يقول الشدياق :

« انه سنة ١٠٩٩ قدمت الافرنج من انطاكية الى القدس فلما وصلوا الى عرقا وفد اليهم اناس من المردة من جبل سير وصقع الضنية وجبيل وتلك التخوم وترحبوا بهم وسار معهم بعض وهدوهم الطرقات والمسالك حتى بلغوا القدس وكانوا ينجدونهم في الوقائع ويمدونهم بالميرة .(٢)

---

(١) غليوم مطران صور : تاريخ الصليبية ف ٢٢ ص ٨

(٢) الشدياق ص ٢٠٣

وذكر المسيو راي في تاريخه عن « جاليات الفرنجة في سوريا في الجيل الثاني عشر والجيل الثالث عشر » من كلام له عن اللبنانيين انهم في حصار طرابلس قد بذلوا معونة جلى للكونت سان جيل وساعدوه على فتحها (١)

وما زال اللبنانيون ينجدون الصليبيين بالمال والرجال حتى اتى سوريا الملك لويس التاسع فلم يكتفِ الموارنة بتعضيد الصليبيين في سوريا بل تطوع منهم عدد وافر من لبنان وقبرس حيث كان لهم جالية كبيرة واشتركوا في حملة الصليبية السابعة التي زحفت على مصر سنة ١٢٤٥ بامرة الملك القديس وقد نوه المؤرخون ببسالة اولئك الشجعان ابناء الجبال ووصفوهم « بحاملي سلاح الايمان في الداخل وسلاح الحديد في الخارج » (٢)

وفي ذلك يقول الكردينال « هرجنرتر » في كتابه « تاريخ الكنيسة » :

« كان عدد الموارنة وفيراً في جزيرة قبرس وقد خدموا

---

(١) ا . راي : جاليات الفرنجة في سوريا في الجيلين الثاني عشر والثالث عشر ص ٧٨

(٢) لامرتين : رحلته الى الشرق ج ٢ ص ٥٣٥

القديس لويس ملك فرنسا خدمات تُذكر ..» (١)

وقد اشتهرت خدمات الموارنة للصليبيين وعلاقاتهم الطيبة معهم ، خصوصاً مع القديس لويس ، حتى ان كل من ذكر ذلك العهد لا يرى بدًّا من الاشارة الى تلك الروابط فيثني عليها

من ذلك ما جاء في خطاب القاه البابا لاون الثالث عشر في ٢٣ حزيران سنة ١٨٩٠ اثباتاً لانتخاب البطريرك يوحنا الحاج ، قال ما ترجمتهُ :

« وأعمال هذه الامة (المارونية) جليلة طائرة الشهرة ولقد أبدت منتهى الشجاعة يوم حملت السلاح مساعدةً للقديس لويس ملك فرنسا في حروبهِ في الشرق » (٢)

وبعد ان خانَ الجدُّ الملكَ لويس في مصر وأكره على الرجوع الى سوريا لم يتخلَّ اللبنانيون عنه في شدته بل بادروا الى ملاقاتهِ ونجدتهِ حتى عكا ، وكان قد بلغها في ١٤ ايار سنة ١٢٥٠ فكان لعملهم هذا وقعٌ كبير في قلب القديس . وفي ذلك يقول المسيو دي لامرتين في كتابه

---

(١) الكردينال هرجنرتر ج ٤ ص ١٨٢ عدد ٢٦٣

(٢) مجموعة البرلات البابوية ص ٥٣٣ للاب طوبيا العنيدي

« رحلة الى الشرق » :

« لما نجا الملكُ القديس من الاسر وعاد الى عكا لاقاه اليها ٢٥ الفاً من الموارنة الموالين وقد ارسلهم اميرهم بأمرة احد ابنائهِ يحملون الميرةَ والهدايا على انواعها » (١)

وقد ذكر الشدياق ذلك في تاريخه حيث قال :

« انه لما وصل لويس التاسع ملك فرنسا الى عكا ارسل اليه اميرُ المردة ولدَهُ الامير سمعان ومعه خيل بخمسة وعشرين الف مقاتل نجدة للملك ، فلما اقبل الاميرُ رفع شأنه وتلقاه بالترحاب وكتب الى امير الموارنة كتاب شكر ومحبة » (٢)

وقد نشر رسالة الملك هذه البارون دي تستا في مجموعته ولامرتين في كتاب رحلته وذكرها المسيو رينه بينون في كتابه « اوربا والدولة العثمانية » وكثيرون غيرهم من الكتبة والمؤرخين

اما تاريخ تلك الرسالة فهو ٢١ ايار سنة ١٢٥٠ قرب عكا ، ومما جاء فيها قوله :

---

(١) لامرتين : رحلة الى الشرق ج ٢ ص ٥٣١

(٢) الشدياق : ٢٠٨

« ان قلبنا أفعم حبوراً لما رأينا ولدكم سمعان في مقدمة ٢٥ الف رجل موفداً الينا من قبلكم يبلغنا عواطفكم ويقدم لنا الهدايا والخيول الكريمة .. » (١)

وتمكنت العلاقات بين الملك لويس وبين اللبنانيين لما اظهروه من سعة الحفاوة وشدة الاخلاص حتى انه لما اضطر الملك الى العودة الى بلاده على اثر وفاة والدته الملكة « بلانش دي كستيل » أبقى خواص بيتهِ وعسكرهِ في جبل لبنان واستمروا فيه (٢)

...

وقد لقي اللبنانيون كثيراً من الشدائد في مساعدتهم للصليبيين فلم يكن ذلك ليقف بهم عن مواصلة انجادهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً غير هيابين ولا حاسبين لانتقام الاعداء حساباً . من ذلك ما جاء في « الدويهي » عن

---

(١) الدبس ج٦ ع٨٧١ وما يليها وابو الفدا ج٣ ص ١٨٧ وما يليها
لامرتين : رحلته الى الشرق جزء ٢ ص ٥٣٥ وما يليها
مجموعة البارون دي تستا ج ٣ ص ١٤٠
رينه بينون « اوربا والمملكة العثمانية » ص ٥٤٧
الدويهي « البطريرك اسطفان » : تاريخ الطائفة المارونية ص ١١٠

(٢) الدبس : ج ٦ ع ٨٣١

مناهضة الملك الظاهر للصليبيين قال :

« في سنة ١٢٦٤ خرج الملك الظاهر بعسكره من الديار المصرية ففتح القليعات وعرقة وهم بحصار طرابلس فانقضت عليه رجال الموارنة من الجبال وهزموا عسكره » (١)

وقال في تاريخ سنة ١٢٦٦

« ثم اغار الملك الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغور انهارها وخرب اربعاً وعشرين من قراها فانسكبت عليه رجال المردة من الجبال ففر هاربا » (٢)

ولم ينم ملوك مصر على الاذى بل باتوا يرقبون الفرص لاخذ طرابلس من يد الفرنجة وللانتقام من اللبنانيين

ففي سنة ١٢٨٧ سير الملك المنصور قلاوون الالفي حملة على طرابلس ففتحها وارسل جيشه يعيث في لبنان فنال منه اللبنانيون وهزموه شر هزيمة ، على ما جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى حيث قال :

---

(١) الدويهي ص ٣٧٣

والملك الظاهر هذا هو السادس من دولة المماليك الاولى (سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٧٧ . عن تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ج ٢ ص ١٤)

(٢) الدويهي ص ١١١ و ١١٢

« في شهر شعبان سنة ٦٩١ (١٢٩٢) توجه الامير بيدرا قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه بصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قرا سنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين بكتوت العلائي وغيرهم . واتاهم من جهات الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما . والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في امرهم حتى تمكن الكسروانيون من بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم . وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم اهل تلك الجبال حتى اضطر الامير بيدرا ان يطيب قلوبهم ويحسن اليهم وخلع على جماعة من اكابرهم . وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم » (١)

---

(١) المشرق : تاريخ بيروت مجموعة السنة الاولى ص ٢٢٨ = بيدرا كان من مماليك الملك المنصور قلاوون ، استنابه الملك الاشرف في دمشق ثم جعله نائب السلطنة ولم يلبث ان دس لولي نعمته الدسائس فقتله بمشاركة الامراء المماليك وعهدت اليه السلطنة بعد الاشرف

وقد عرف الصليبيون للبنانيين صدقَ ولائهم فكانوا اثناء اقامتهم في سوريا يولونهم ، في وضع القوانين والانظمة ، عناية خاصة اقراراً بجميلهم . وفي ذلك يقول المسيو ريه في تاريخه عن الصليبية : « ان الشارع يعيرهم التفاتاً لا يعيره سواهم من الوطنيين ، فهم دائماً نصب عينه وموضوع اهتمامه فيوليهم مركزاً خاصاً لا يوليه غيرهم من اهل البلاد »

وكان انتصار اللبنانيين للصليبيين من اكبر العوامل في توسيع شقة الخلاف بينهم وبين حكام سوريا حتى اصبحوا معهم في قتال مستمر زمناً طويلاً ، نال منها لبنان اهوالاً ومشقات لا محل للتبسط فيها

ولما تقلص ظل الصليبية من سوريا في اواخر الجيل الثالث عشر كان حكم الاقطاع قد تأصل في لبنان لاختلاط اهليه بالصليبيين وامتزاجهم بهم فحكم فيه ، على هذا الشكل الامراء والمقدمون والمشايخ

وما زال لبنان على هذه الحال من الحكم الاقطاعي والاستقلال حتى فتح الاتراك سوريا على يد السلطان سليم سنة ١٥١٦

وتلقب بالملك القاهر الا ان [illegible] يدم الا يوما واحدا فقتل سنة ٦٩٣ (١٢٩٤)

الباب الخامس

لبنان على عهد المتنبين

تمهيد (١)

الدولة العثمانية والبلقان ولبنان

الدولة العثمانية

شاد بنو عثمان ملكاً رائعاً نشرت الويته المظفرة في اسيا واوربا وافريقيا فاخضعوا فيها جنسيات شتى وشعوباً مختلفة، غلبوها على امرها بحد السيف وبحد السيف عادت

(1) De la Jonquière : *Histoiae de l'Empire Ottoman*
René Bérard : *l'Europe et l'Empire Ottoman*
V. Bérard : *La Révolution turque*
P. Albin : *Les Grands Traités politipues*

تلك الجنسيات والشعوب فزحزحت عن منا كبها كاكل ذياك الجبار الغازي فرجع الى حيث كان او كاد

ولم تنل الانسانية من ذلك الصراع الهائل الا المصائب والويلات واراقة دماء الالوف والملايين من العباد

ان في تاريخ بني عثمان لعبراً ناطقة على استظهار الحق على القوة ؛ وان طال الزمان واختلفت صروف الحدثان :

وضع « ارطغرل » أسس سلطانه في ظل علاء الدين السلجوقي (١٢٣١) ولم يلبث ان وسع « عثمان » الكبير رحاب ذلك البنيان ووطد قواعده على انقاض الدولة السلجوقية ، ولقب نفسه «بادشاه آل عثمان» (١٢٨١–١٣٢٦) ومات بعد ان اشتد به ساعد الملك وتركه لابناء اباسل ظلوا يتنافسون في الفتح والتوسع حتى ريعت لصولتهم البلقان واهتز عرش الروم باربابه ووقفت اوربا امام ذلك التيار الجارف واجمة لا تعي

فاشرف « اورخان » على القسطنطينية (١٣٥٧) وسحق « مراد الاول » جيوش البلغار في تيرنوفا وشوملا وقوض اركان الدولة الصربية في سهول قوصوه (١٣٨٧ و ١٣٨٩)

واكتسح « بايزيد » البلغار فعظمت شوكته حتى اضطربت اوروبا فشهرت عليه حرباً صليبية جمعت كبار امرائها وبسل قوادها فالتقى بايزيد باعدائه في سهول « نيكروبوليس » ولم يرجع عنهم الا وجيوشهم فلول هائمة تتلقفها سيوف الظافرين (١٣٩٦)

وكانت تلك الفترة من الدهر، وهي ماينا هز المئتي سنة نصراً متواصلاً لاولئك السلاطين، وكأنهم اتعبوا الدهر فيها فتحاً وغزواً فقطب في وجههم. ولم يكد بايزيد يتمتع بنصرة نيكروبوليس حتى بلي بواقعة « انقره » فظفر به « تيمورلنك » واسره، فاداله من حالق عزه فهوى بسقوط بايزيد، الى حين، نجم الدولة العثمانية (١٤٠٢)

غير انها ماعتمت ان رزقت ذلك الفاتح الكبير « محمد الثاني » (١٤٥١ — ١٤٨١) فاستعاد للسلطنة عزها بفتح القسطنطينية عاصمة الروم (١٤٥٣) وسلمه دافيد كومين امبراطور طربيزند الرومي مفاتيح المدينة وخضعت له القرم ودانت له البلقان

ونهج « سليم الاول » (١٥١٢ — ١٥٢٠) على منوال اسلافه ففتح كردستان وديار بكر والموصل وخضعت له مكة

وصنعاء وغزا مصر وسوريا ومد سيادته على لبنان

وقد قدر للسلطان العظيم «سليمان الاول» (١٥٢٠ – ١٥٦٦) ان يرقى بالدولة الى اوج المجد فاخضع لشوكته ما استعصى على آبائه فاخذ بلغراد وفتح رودس وتسابقت الى بابه ملوك اوروبا فاغضى عن «شارلكان» ملك اسبانيا غير انه لم يرد سؤل «فرنسوا الاول» ملك فرنسا وقد قهر الفرس وفتح قسما من بلاد الكرج. وتوفي عن ملك واسع الاطراف مرهوب الجوانب لم تره الدولة لا قبله ولا بعده، رغم فتوحات تالية ابلغت «قره مصطفى» وزير محمد الرابع الى ابواب فينا سنة ١٦٨٣

ومازالت الدولة تتقلب بين انكسار وانتصار لا تعرف رأيا الا للسيف ولا تحترم الا عهد القوة، حتى جمعت تحت لوائها امماً وشعوباً مختلفة الاجناس لا حق لها عليهم الا حق الفتح والغلبة. فبدلا من ان تقوى بهم كانوا سبباً في ضعفها وآلة لتقطيع اوصالها

أخضع السلاطين ممالك البلقان من صرب وبلغار ورومان ويونان، ودوخوا البلاد العربية ومدوا سيادتهم على لبنان، فما برحت تلك الشعوب تطالّ الى استقلالها

وتفكك حلقات القيد واحدةً بعد اخرى حتى تمكنت بعد مغالبة اجيال دامية من استعادة حريتها ، فنزعت عن عنقها كلابة الغاصبين وأفلتت من اسرها تتنفس الصعداء ، ظمأى الى النور ، عطشى الى الاستقلال ..

. . . .

البلقان

ملخص تاريخ البلقان السياسي هو ان الدولة العثمانية نشرت رايتها على تلك البلدان منذ القرن الرابع عشر وصيرتها ولايات عثمانية اقامت على كل منها حاكماً تركيا كسائر ولايات الدولة. وقد ظلت البلقان تجر سلاسل العبودية زهاء اربعة قرون حتى قام فيها دعاة الوطنية وسعوا الى تكسير تلك القيود بعد ان نفخت فرنسا في العالم روح الحرية وعلمته الانتقاض على الاستبداد

فعند مغيب القرن الثامن عشر لمعت في فضاء فرنسا صاعقة الثورة الكبرى فترامى دويها الى سماء البلقان فقدحت ثمّ ، في فجر القرن التاسع عشر ، شرارة في صربيا فعلقت في هشيم اليونان وامتدت الى رومانيا ومنها الى بلغاريا فالجبل الاسود فاشتعلت شبه الجزيرة البلقانية بنار الثورة ومازالت

تضطرم فيها حتى التهمت رايات الهلال فتساقطت اعوادها مزجاةً في ذلك الاتون المسجور ولم تنطفىء نيرانه الا وعلم الاستقلال يخفق على اسوار بلغراد واثينا وبوخارست وصوفيا وستنجه

ولو تركت امارات البلقان وشأنها ازاء الدولة العثمانية لما استطاعت واحدة منهن ، على ما يثبت التاريخ ، ان تخلع عن عنقها نير الفاتحين . غير ان اوربا اخذت بيد تلك الامارات وانجدتها بالمال والرجال والسياسة ، ومازالت تبذل لها المعونة حتى تمشت بها من ولايات عثمانية الى الاستقلال الداخلي ثم الى الاستقلال المطلق . فكانت اوربا للبلقان كالام الحنون تهدهد المهد لرضيعها وتواصله بعنايتها حتى يترعرع ويشب ويبلغ اشده

وبين تاريخ البلقان السياسي وتاريخ لبنان السياسي اوجهٌ شبه عديدة . ولعل لبنان جاهد في سبيل حريته اكثر مما جاهدت البلقان ، في حين ان اوربا ساعدت البلقان اكثر مما عضدت لبنان

مدّ السلاطين سيادتهم على لبنان منذ بدء القرن السادس عشر ، الا انهم لم يخضعوه قط كما اخضعوا البلقان

ولم يتوصلوا الى تولية حاكم تركي عليه كما فعلوا في صربيا ورومانيا والبلغار والجبل الاسود ، بل ظل لبنان محتفظاً باستقلاله الداخلي وبعائلته المالكة الوطنية من المعنيين الى الشهابيين الى عهد القائم مقاميتين حتى معاهدة سنة ١٨٦١

ثارت البلقان سعياً لنزع السيادة العثمانية بعد اربعة قرون قضتها في العبودية . اما لبنان فلم ينم يوماً على الاذى بل بدأت فيه الحركة الوطنية على الدولة منذ بدأت سيادتها عليه تقريباً ، وتوالت فيه من فخر الدين الكبير الى الامير بشير الكبير ، تارة تستعر وطوراً تخبو ، وفي اغلب الاوقات تعقد الوية النصر للبنانيين ، حتى تدخلت اوربا في الامر لاول مرة من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٤٥ : وبينما ترتب على تدخلها في البلقان استقلال ممالكه ، كانت نتيجة تدخلها في لبنان تجزئة الامارة اللبنانية القديمة وشطر البلاد الى شطرين . ثم تدخلت فيه ثانية سنة ١٨٦١ فاسفر تدخلها عن نزع الحكم من الوطنيين ، وعن سلخ اراض حيوية للبنان ، وعن جعل الطائفة اساس الحكومة اللبنانية . وهي امور أضعفت لبنان سياسياً واقتصادياً وكانت اصل كل البلايا التي نزلت به بعدئذٍ ، فلم يتم له ما تم للبلقان

وقد كان سبق لاوربا ان تدخلت بين اليونان والدولة سنة ١٨٢٩ فألزمت الدول تركيا بالاعتراف لليونان بالاستقلال رغم انتصار الاتراك عليهم في اغلب المواقع

وقد واصلت اوربا تدخلها في شؤون البلقان وعنايتها بهم حتى انه لم تأت سنة ١٨٧٨ الا ومعاهدة برلين قد جعلت البلقان امارات وممالك مستقلة ، بينما كان المتصرفون في لبنان يفتأتون كل يوم على الامتيازات بما خولهم اياه النظام من السلطة الواسعة حتى انقصوا تلك الامتيازات ما استطاعوا بدلا من ان تزاد

ومما يستوقف النظر ان هنالك شبهاً مدهشاً في تطور الثورة في البلدان البلقانية : ففي كل بلاد منها كان يقوم بطل وطني فيلتف حوله افراد معدودون ثم يتبعه فريق من الشعب فيحاربون تركيا فيتداول الفريقان النصر والغلبة حتى اذا اوشكت تركيا ان تسحق العصاة ، برزت اوربا الكريمة كالملك المنقذ ، فمدت يدها اليهم فانتزعتهم من مخالب المنون ومنحتهم فوق ما كانوا يحلمون به

وهنالك ايضاً أمر يستوقف النظر وهو ان كل ممالك البلقان قامت في اول عهدها اهوالا ومحناً داخلية يشيب

لفظاعتها الاطفال فلم تكن تلك المصائب لتثني عزمها عن مواصلة السعي والجهاد في سبيل غايتها ، وما زالت تتقلب بين القلاقل والثورات حتى استقر لها الملك موطد الاركان

اما لبنان فلم يكن يسعده الحظ اثناء حروبه المتواصلة مع الدولة بان يجد من يعينه على تحقيق « غايته الوطنية » فذهب والحالة هذه هدراً كل ما اراقه من دم ذكي على ممر الاجيال في سبيل الاستقلال

. . .

واليك البيان بايجاز عن صربيا واليونان ورومانيا والبلغار والجبل الاسود ، ثم لبنان :

فترى خلاصة تاريخ كل من هذه الولايات الداخلي وموجزاً عن تاريخها الخارجي في المساعدات الدولية التي ادت بتلك الولايات الى ممالك مستقلة

حتى اذا قابلت بينها وبين لبنان راعك انه بعد جهاد قرون متواصل في سبيل الاستقلال لم ينل الا الوعود والاماني ، حتى اصبح وهو لا يصلح مستعمرة لاقل دولة

من تلك الدول البلقانية التي كانت ولايات محكومة حكماً تركياً مباشراً يوم كان لبنان مستقلا استقلالا داخلياً واسعاً

ولعل سبب الفرق والتمييز هوان لبنان في الشرق وان البلقان في الغرب: فكم ثم من عبر وعظات

...

صربيا

نشر راية الثورة في صربيا سنة ١٨٠٤ بطلها المشهور «قره جورج». وقد كانت عاصفة الاستقلال والوطنية قد فاقت في صدره كل عاطفة سواها، فمشى لا يحسب للموت حساباً ولا يرى دون غايته حائلاً؛ ومما يؤثر عنه انه لما ثار على الدولة اضطر الى مغادرة البلاد ليهيىء معدات الثورة خارجا عنها. فامتنع والده عن اللحاق به وحاول ان يثنيه عن عزمه خوفاً عليه وحذراً من الفشل، فاخذ قره جورج يضرع الى ابيه ان لا يثبط عزيمته وعزائم من حوله وان يضحي بكل شيء في سبيل الوطن، وارتمى على اقدامه يقبلها مستعطفاً. فلم يرجع الوالد عن رأيه بل توعد ابنه بافشاء امره وامر اصحابه اذا هم لم يخلدوا الى

السكينة ويعودوا الى منازلهم هادئين . ولما طال الامر بين الوالد والولد ورأى قره جورج تصميم ابيه ، وانه سيقتل الثورة في بدئها ويودي به وباصحابه فيشتد نير الاتراك على البلاد ، صعد الدم الى رأسه وتملكته ثائرة الغضب لوطنه فاخذ والده بين يديه وهزّه صائحاً به: « خيرٌ لك ان تموت ايها الشيخ التاعس من ان تموت البلاد » . ورماه برصاصة فقتله

ولم تكن البلاد لتقعد عن دعوة رجل بلغ منه التدلّه في الوطنية مثل هذا المبلغ . فقام الشعب لصوته والتفّ الصرب برايته . فشهر الحرب على الدولة وظفر وعسكره بجيوشها في مواقع عديدة على قلة عددهم وكثرة جيوش الدولة . واخص انتصاراته كانت في موقعتي شبتس ووارنا ، حيث هزم بثلاثة الآف مقاتل جيشاً من الاتراك لا يقل عن الثلاثين الفاً ، كما فعل يوسف بك كرم في لبنان بعدها بستين سنة حين هزم برجاله الثلاثمئة ، اربعة الاف من جنود الدولة

ولم يسعد الجدُّ قره جورج حتى النهاية ، فتغلب العدد على البسالة وانتصرت القوة على الحق ، وقد لقي قره جورج

معارضات من بعض اعضاء الحكومة التي كان هو نفسها اقامها في صربيا فاضطر الى الالتجاء الى بلاد المجر ووقع اخيراً بيد الدولة فأودت به كما كانت غدرت بفخر الدين من قبله

...

وفي تلك الاثناء بدأ تدخل اوربا في البلقان على اثر حرب الروسيا مع تركيا سنة ١٨١٢ فعقدت بينهما «معاهدة بخارست» في ٢٨ ايار سنة ١٨١٢ ، وذكر فيها ان ولايات الافلاق والبغدان «فلاخيا وملدافيا» والصرب تنال بعض الامتيازات مع بقائها في تابعية الدولة وحوزتها (البندان ٥و٨) .. فكان هـذا التدخل من الروسيا في شؤون الولايات العثمانية فاتحة التدخلات التالية التي أدت الى استقلال البلقان شيئاً فشيئاً ..

وقد جاء بعد معاهدة بخارست اتفاق «آق كرمان» في ٢٥ ايلول سنة ١٨٢٦ ؛ وهو يؤيد ويوسع الامتيازات المعترف بها للافلاق والبغدان والصرب في معاهدة بخارست وقـد ارفق بعقدين منفصلين الاول منهما يتعلق بولايتي

فلاخيا وملدافيا وثانيهما يختص بالصرب ، وخلاصة العقد الاول : اعطاء فلاخيا وملدافيا الحق بانتخاب الوالي من الاشراف الوطنيين ؛ وتحديد مدة ولايته بسبع سنوات والاعتراف للروسيا بالتدخل في امر الوالي في ثلاثة ظروف ، اولا : « فيما اذا وجد المنتخب لاسباب قوية غير موافق لرغبة الباب العالي. ففي هذه الحال يجري تحقيق عن هذه الاسباب بمعرفة الدولة العلية والروسية حتى اذا وجدت هذه الاسباب صحيحة يسمح للاشراف بان يشرعوا في انتخاب شخص آخر موافق» . ثانيا : « اذا ارتكب الوالي جناية اثناء ولايته يخبر الباب العالي عنها وزير الروسيا. وبعد اجراء التحقيق بواسطة الطرفين وثبوت ذنب الوالي يسمح باقالته

ثالثاً : « اذا استعفى الوالي قبل انتهاء ميعاد السبع سنوات لاي سبب كان ، فالباب العالي يخبر بذلك حكومة الروسيا ويحصل الاستعفاء بموجب اتفاق الدولتين عليه من قبل »

وأهم ما جاء في العقد الثاني الخاص بالصرب الوعد بمنحهم : « حرية الاديان وانتخاب رؤسائها ، واستقلال

ادارة الضرب الداخلية ، وانضمام الاقسام المنفصلة عنها ، وتوحيد الاموال الاميرية المتنوعة الى نوع واحد ، وحرية التجارة ، وتشييد المستشفيات والمدارس والمطابع الخ ...»

ولم تلبث ان عادت الروسيا الى الحرب مع تركيا . وتمّ الصلح بينهما بمقتضى معاهدة ادرنه في ١٤ ايلول سنة ١٨٢٩ ، فجددت هذه المعاهدة عهود تركيا فيما خص ولايتي فلاخيا وملدافيا وصربيا ، وأبقت للروسيا حق التدخل في شؤون فلاخيا وملدافيا بحجة ان الدولة الروسية « ضمنت نجاحهما » (البندان ٥ و٦)

ومن مميزات هذه المعاهدة انها قررت ان والي فلاخيا وملدافيا يكون لمدى الحياة لا لسبع سنوات كما جاء في اتفاق آق كرمان ... وهي خطوة واسعة في سبيل الاستقلال المطلق كما لا يخفى

الا ان النار التي كان اوقدها قره جورج لم تنطفي بل ظلت كامنة خلل الرماد حتى عاد فاضرمها « ميلوش اوبرينوفتش ». وعلى اثر مواقع دامية بينه وبين عساكر الدولة نادى به مجلس نواب الصرب « السكوبتشينا » اميراً على البلاد

واضطر الباب العالي الى الاعتراف به سنة ١٨٣٠

وقد حدثت في صربيا قلاقل داخلية الجأت الامير ميلوش سنة ١٨٣٩ الى التنازل لابنه « ميلان » فلم يتولَّ الحكم الا بضعة اسابيع ثم تنازل للامير « ميشيل » فلم يجلس طويلاً على سرير الامارة واضطر الى مغادرة البلاد سنة ١٨٤٢ فانتخبت « السكوبتشينا » مكانه الامير « الكسندر قره جورجفتش » وهو ابن بطلهم « قره جورج »

ولم ينس اهل فلاخيا وملدافيا فضل الدول الروسية عليهم في ارغام تركيا على منحهم تلك الامتيازات، الا ان ذلك الفضل كانت تشوبه شائبة كبرى وهي ان روسيا اثناء اهتمامها بشؤونهم لم تعط براهين كافية على تجردها التام عن كل منفعة شخصية تسعى لها من وراء ذلك الاهتمام ، بل هي اثارت في صدورهم الريب والظنون بدخولها ارضهم بدعوى ترتيب الادارة والحكومة عندهم وانها تبقى موقتاً في الولايتين ريثما تفيها تركيا الغرامة الحربية ثم تجلو عن البلاد وتتركها لاهلها ...

فلم ترق تلك الدعوى كثيراً في اعين الاهالي . واخذ مجري الحركة الوطنية يتحول من تركيا على روسيا حتى

وقعت في الولايتين حوادث سنة ١٨٤٨ وقد ادت الى اخذ بعض الساسة في اوربا بناصر الفلاخيين والملدافيين فحققت لهم معاهدة باريس بعض امانيهم :

معاهدة باريس في ٣٠ اذار سنة ١٨٥٦

جاءت معاهدة باريس على اثر الحرب التي شهرتها انكلترا وفرنسا سنة ١٨٥٤ على روسيا انتصاراً لتركيا وانتهت بقهر جيوش القيصر تحت اسوار سبستبول.. وكان قطب السياسة الدولية يومئذ في باريس فعقد المؤتمر الدولي فيها..

وقد اعتنى نابوليون الثالث بامر البلقان عناية خاصة مجردة عن كل غاية ومصلحة، فحولت معاهدة باريس فلاخيا وملدافيا الى امارتين تحت سيادة الباب العالي الاسمية. وقطعاً لتدخل روسيا او غيرها في امور الامارتين قررت المعاهدة انهما تكونان تحت حماية الدول المشتركة. وانه لا يجوز لواحدة منهن ان تستأثر فيهما بحماية خاصة، او تتدخل في شؤونها الداخلية (مادة ٢٢). وقضت المعاهدة انه لا يكون في الامارتين من الجند الا الجندية الوطنية وانه

اذا دعت الحال الى ادخال الجيش العثماني اليهما فلا بد من موافقة الدول على ذلك . (مادة ٢٧)

وكما جعلت المعاهدة فلاخيا وملدافيا «تحت حماية الدول» وقررت ان الجندية فيهما تكون وطنية لاغير ، هكذا هي وضعت امارة صربيا «تحت حماية الدول المشتركة» وحظرت ادخال جيش تركي او سواه الى ارضها ، مالم تتفق الدول على الامر (مادة ٢٨ و ٢٩).

وكان هذا النص الخاص بالعسكرية ضروريا ، لعدم اتفاق الاستقلال مع بقاء جيش احتلال في البلاد . وعملا بالمبدأ ذاته قررت معاهدة سنة ١٨٦١ ان الجند اللبناني يكون وطنياً ، بل هي أيدت مبدأ الاستقلال للبنان من هذا القبيل اكثر مما ايدته معاهدة باريس لفلاخيا وملدافيا والحرب ، فنصت المادة ١٤ من معاهدة سنة ١٨٦١ انه اذا قضت الضرورة باستدعاء عسكر الدولة فيرجع في الامر لا الى الدول ، كما في فلاخيا وملدافيا وصربيا ، بل الى مجلس ادارة لبنان نفسه ... وهو نص اضمن للاستقلال وابقى للحرية الوطنية كما لايخفى

ويقطع علاقة الباب العالي الفعلية مع فلاخيا وملدافيا

وصربيا ، وبمنع تدخل اية دولة كانت في شؤونهن ، حققت معاهدة باريس لتلك الامارة الشروط الاساسية التي من دونها لا يمكن ان ينال استقلال .. واعدتهن بتحقيقها الى نيله حتما كما حصل لهن فعلا بعد ذلك ببضع سنوات . اذ وضعت معاهدة سان ستيفانو (١٩ شباط ٣ اذار سنة ١٨٧٩) وفيها اعترف الباب العالي نهائياً باستقلال صربيا التام

وهكذا ابقت المعاهدة للولايتين امتيازاتها لكنها رفعت عنهما التدخل الروسي وفعلت مثل ذلك فيما خص صربيا .. وقد وضعت المعاهدة امتيازات البلادين في كفالة اوربا وضمانها حتى لاتكون امتيازات البلاد في الواقع عبارة عن واسطة لاحلال دولة محل دولة وبدل سيادة بسيادة ، وهي اساليب لا يرغب بها عادة اهل البلاد...

وبعد ان فتحت الروسيا باب التدخل في شؤون تركيا لم تلبث ان ولجت فيه دول اوربا الواحدة بعد الاخرى منعاً للاستئثار وقطعا لاسباب التزاحم والمنازعات...

وهكذا تمكنت الدول من مساعدة كل الشعوب البلقانية على نيل الاستقلال المطلق وعلى توسيع حدودها. ولم تسلم البلاد رغم ذلك من الفتن الداخلية فخلعت

« السكوبتشينا » الامير الكسندر واسترجعت الامير « ميلوش » في كانون الاول سنة ١٨٥٨ فتوفي بعدها بسنتين (٢٦ ايلول ١٨٦٠) فخلفهُ الامير « ميشيل » وما عتموا ان قتلوه في ١٠ حزيران سنة ١٨٦٠ فخلفهُ ابن عمه الامير « ميلان » وله من العمر اربع عشرة سنة

وقد وقعت على عهده حربٌ ثالثة بين الصرب وتركيا سعياً للاستقلال المطلق ، سنة ١٨٧٦ . ففشلت فيها صربيا . الاَّ انه رغم ذلك اعترفت معاهدة سان ستافنو لصربيا باستقلالها التام وأقرتها عليه معاهدة برلين ونودي بها مملكة سنة ١٨٨٨

وفي سنة ١٨٨٩ تنازل الملك ميلان لابنه « الكسندر » وعمره ١٢ سنة وهو الذي قُتل مع امرأته الملكة دراجا في ليل ١٠ — ١١ حزيران سنة ١٩٠٩ فجلس بعده على سرير الملك الاميرُ « بطرس قره جورجفتش » ابن الامير الكسندر حفيد قره جورج الكبير .

فترى مما تقدم انه على اثر حركة قره جورج وميلوش اوبرونوفيتش ، أخذت اوربا بيد الصرب ورغم ما حدث فيها من القلاقل الداخلية تمشت بها من الاستقلال الذاتي

الى الاستقلال المطلق حتى اصبحت مملكة عزيزة الجانب لها من الحرمة لدى الدول ما حملهن على عمل المعجزات في سبيل انقاذها في هذه الحرب الكبرى وجعلها دولة تكاد تكون في مصاف الدول الكبرى

اليونان

كان « اسكندر ايبسلنتي » لليونان ما كان قره جورج لصربيا فقد نادى بالثورة سنة ١٨٢١ داعياً قومه الى الجهاد في سبيل الاستقلال

وقد كان خيم ظل الهلال على « الاكروبول » دهراً طويلاً فاسدل ستاراً كثيفاً على امجادها ، وتوطن الظلم بلاد « سقراط » و« اخيل » اجيالاً عديدة فقتل فيها النخوة والمهزة ، فلما دوى صوت ايبسلنتي في ليل رقادها العميق أفاق الناس وهم كانهم يفيقون من سبات اهل الكهف فلم ينهض منهم الا نفر قليل لم يستطع معهم الى النجاح

سبيلاً ، فدارت الدائرة عليه كما دارت من قبله على قره جورج ووقع في ايدي الاتراك وتوفي في سجنه قبل ان يرى علم الحرية يخفق على بلاده

الا ان صوته لم يمت فملأت الثورة بلاد « المورة » وامتدت منها الى « جزر الارخبيل » واخذ الثائرون « اثينا » من يد الاتراك في ٧ نيسان سنة ١٨٢١ ونادت الجمعية الوطنية في ١٣ كانون الثاني سنة ١٨٢٢ باستقلال البلاد وشكلت حكومة جعلت على رأسها « مفرو كرداتو »

واغرق كاناريس في ليل ١٨ — ١٩ تموز سنة ١٨٢٢ عمارة تركيا في مضيق شيو

ولما رأت الدولة استفحال الثورة في اليونان استنجدت بمحمد علي فأرسل ابنه ابراهيم على جيش كثيف ، فتمكن القائد المصري من استرجاع البلاد وعاد الاتراك فدخلوا اثينا بامرة رشيد باشا

فاهتز الرأي العام في اوربا وتألفت فيها الجمعيات الادبية « صديقة اليونانية » وفيها امثال « دلافين » « وفيكتور هوغو » « واللورد بيرون » فاستنفر الشعراء والكتاب دولهم على تركيا فلم تلبث ان تعدّت تلك

الحركة الفكرية الى المجالس النيابية والحكومات. فهبت فرنسا وانكلترا وروسيا انتصاراً لاثينا ودمرت عماراتهن في « نافارين » العمارة العثمانية المصرية في ٢٠ ت ١ سنة ١٨٢٧، ونزلت حملة افرنسية الى البر وحاربت مع العسكر اليوناني فأكرهت الجيوش التركية المصرية على الانسحاب واخلاء البلاد. وفي كانون الثاني سنة ١٨٢٨ ألقيت مقاليد السلطة الى الكونت « كابوديستريا » وفي ٢٢ اذار سنة ١٨٢٩ أعلن بروتوكول لوندرا اليونان امارةً بالارث مع ضرب جزية عليها للدولة

وفي معاهدة ادرنه في ١٤ ايلول من سنة ١٨٢٩، تعهدت تركيا بقبول بروتوكول لوندرا المذكور، فلم تكتف الدول بذلك بل امضت بروتوكول ثانياً في لوندرا في ٣ شباط سنة ١٨٣٠ وفيه جعلت اليونان مملكةً مستقلة تمام الاستقلال تحكم فيها عائلة مالكة تتوالى على عرشها بحق الارث

ومنعاً لما قد تناله احدى الدول من منفعة او مصلحة في اليونان قررت المعاهدة : «انه لايجوز انتخاب ملك اليونان من بين اعضاء العائلات المالكة في انكلترا وفرنسا

وروسيا..

وانه لايجوز لواحدة منهن ابقاء قوة في اليونان بغير اتفاق سابق بينهن..»

وواصلت الدول الثلاث عنايتها بالمملكة الجديدة فاهتمت بتنصيب ملك عليها، فاتفق الرأي على الامير اوتون نجل ملك بافاريا لويس الاول، فعين ملكا على اليونان باسم «اوتون الاول» (معاهدة ٣ ايار سنة ١٨٣٢)

وفي سنة ١٨٦٢ قامت حركة في اليونان لمحاربة تركيا، فعارض فيها الملك «اوتون» فاختلف مع المجلس والشعب فأدى ذلك الى خلعه، وانتخبت الجمعية الوطنية بدلاً منه الامير غليوم بن خريستيان التاسع ملك الدنمرك، ونودي به ملكا على اليونان باسم الملك «جورج الاول»

ووضعت الدول اليونان تحت حمايتها المشتركة على ما ورد في البندين الثاني والثالث من معاهدة لوندره المؤرخة في ١٧ تموز سنة ١٨٦٣ حيث جاء ماترجمته «تكون اليونان حكومة ملكية مستقلة دستورية تحت سيادة الامير غليوم الدنمركي وتحت حماية الدول الثلاث» وقد اوجبت المعاهدة المذهب الارثوذكسي على خليفة الملك جورج ليكون

الملك على مذهب الاغلبية في البلاد.

وهكذا قررت معاهدة لبنان (١٨٦٠ — ١٨٦٤) اذ قضت المادة الاولى بوجوب مسيحية الحاكم

ولم تكتف الدول بان عتقت اليونان من نير تركيا وجعلتها مملكة مستقلة كالممالك الكبرى بل بلغ بها العطف عليها ان تنازلت لها انكلترا عن جزر بحر اليونان وهي كورفو وسيفالوني و كسانتي وسنت مور وايطاك وسريجو وباكسو (معاهدة لوندرا ١٤ ت ٢ سنة ١٨٦٣ و ٢٩ اذار سنة ١٨٦٤) وهي الجزر التي كانت معاهدة باريس وضعتها تحت حماية انكلترا (٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٥) ثم ارغمت الدول تركيا على التنازل لليونان عن مقاطعة تساليا ايضاً

وعلى اثر حرب سنة ١٨٩٧ لم تسمح الدول لتركيا ، رغم انتصارها الحربي التام ، بان تذل اليونان . بل الزمتها على قبول صلح حفظ كيان المملكة اليونانية و كرامتها

ولا تزال الدول حتى الساعة ساهرة على تلك المملكة الصغيرة تواصلها بعنايتها ، تدرأ عنها الاخطار وتبذل لها ما تشاء من المساعدات ذكراً لاجداد «سبرتا» وحرمة لعلوم «اثينا»

رومانيا

على اثر الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٢٩ ، احتلت روسيا ولايتي ملدافيا والفلاخ «البغدان والافلاق» تامينا لها على اخذ الغرامة الحربية من تركيا

وكان اهل تينك الولايتين من الرومان يتطلعون الى استقلالهم كسائر الشعوب البلقانية ، فاستبشروا بالروس خيراً وباتوا يأملون ان تحقق روسيا غايتهم الوطنية وتنيلهم الاستقلال

اما روسيا فكانت تسعى لمصلحتها الخاصة وتغتنم فرصة وجودها في رومانيا حتى تتوصل الى امتلاك البلاد. وتنفيذاً لهذه الخطة باشرت تنظيم الحكومة في الولايتين على قاعدة دستور سمته «القانون الاساسي»، وهو فيما نص عليه من الامور الاساسية يقطع امالي الرومان بالاستقلال قطعاً باتاً، والروس يعتقدون انه يكفي الرومان انعتاقهم من نير الترك ، وان بقائهم تحت الحكم الروسي سعادة لهم

اما الرومان فلم يكونوا في ذلك على رأي روسيا، فلم يرضوا عن استقلالهم بديلاً. فلم يلبثوا ان ثاروا على روسيا

في الولايتين بوقت واحد، (٧حزيران ١٨٤٨) فقمعت الثورة في ملدافيا بسهولة. اما في الفلاخ فكانت اشد مراساً. فان الشعب احاط بسراي الحاكم الروسي جورج بيبسكو ونادوا به رئيساً على الحكومة الثورية وارغموه على توقيع مشروع دستور يلغي القانون الاساسي الذي وضعته روسيا. وكان من اخص رجال الثورة الياد وبلسيسكو ودولياك وتل ماغرون وجولسكي وروزتي واخوان براتيانو.

فاتفق اذ ذاك القيصر والسلطان على الرومان وزحفت جيوشها على الفلاخ فأخضعوها وأعادوا عليها الحكم الروسي (١٨٤٩). فاضطر ابطال الثورة ان يلجأوا الى البلاد الاجنبية حيث واصلوا مساعيهم لدى الحكومات ومع رجال السياسة ففازوا باعطف الكثيرين على قضيتهم اخصهم نابوليون الثالث وهو قد كان يرتاح الى الاخذ بناصر الشعوب الصغيرة، فانه اهتم بملدافيا والفلاخ في معاهدة باريس ونال من المؤتمر ان يقرر رفع الحماية الروسية عن الولايتين وان يُعترف لهما بامتيازات واسعة

وقد جعلت المعاهدة تلك الامتيازات في حماية الدول المشتركة حتى لا تستأثر واحدة منهن بشيء فتعيد تمثيل

الدور الذي مثلته روسيا يوم اسأثرت بالحماية سنة ١٨٢٩

ولم تلبث الدول ان منعت تركيا من كل تدخل في امر انتخاب حكام الولايتين (اتفاق باريس ١٩ آب ١٨٥٨) فبادر اذذاك الاهالي الى انتخاب الامير «الكسندر جان كوزا» حاكماً عليهما فكان انتخابه تمهيداً لاتحاد الامارتين (١٨٥٩)

وفعلاً ما عتم الامير كوزا ان أعلن اتحاد الامارتين بمنشور تاريخه ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٦١ ، وهو بعد معاهدة لبنان بستة شهور تقريباً ، وقد جعل لهما الامير مجلساً نيابياً واحداً مركزه «بوخارست» فاضطرت تركيا الى الاعتراف بذلك

وعلى اثر حوادث داخلية لا محل لذكرها تنازل الامير كوزا سنة ١٨٦٧ . فألقى المجلس مقاليد السلطة الى «حكومة موقتة» قوامها جولسكو وهار المبيك ولاسكار كاتارجي . فاهتم هؤلاء بايجاد امير خلفاً للامير كوزا ، ففاتحوا امير فلندر اخا ملك بلجيكا فلم يقبل ، وكان نابوليون الثالث لايزال يوالي اهتمامه برومانيا فاشار على حكومتها بان تعرض الامارة على الامير «شارل هوهنزولرن سيجمارنجن» فعملوا باشارته وقبل الامير ان يتولى العرش وقد

قررت اوربا استقلال الامارة الرومانية في معاهدتي سان ستيفانو وبرلين واعترفت بها مملكة بالارث سنة ١٨٨١

فترى من ملخص تاريخ رومانيا السياسي ان الامة كانت تطمع ، لا بخلع نير تركيا فقط ، بل بنيل استقلالها الوطني المطلق. وانه رغم التفاوت العظيم بين قوات روسيا الهائلة وبين عجز رومانيا الضعيفة كانت الغلبة في آخر الامر للحق على القوة ، وقد كان للسياسة في الحصول على هذه النتيجة شأن يذكر لاسيما المساعدة التي بذلها نابوليون الثالث للرومان.

بلغاريا

لم تكن بلغاريا اقل حظاً لدى الدول من صربيا واليونان ورومانيا: فقد اضطرمت فيها نار الثورة سنة ١٨٧٥ فلم تفز من الحرب بطائل حتى سير القيصر جحافله الجرارة على تركيا وأرغمها على قبول معاهدة سان ستيفانو ، وفيها تقرر استقلال بلغاريا الداخلي . ولم تضمن معاهدة برلين وحدة الامارة البلغارية بل شطرتها شطرين ، كما فعلت اتفاقية سنة ١٨٤٥

في لبنان اذ قسمته الى قائمتين ؛ وقد جعلت معاهدة برلين شمال البلقان امارة ذات استقلال داخلي تحت سيادة الدولة، وعليها امير يصير انتخابه بموافقة الدول . وفعلاً انتخبت الجمعية الوطنية في «تيرنوفو» امير أعلى البلاد فوقع الانتخاب على الامير «الكسندر دي باتنبرج» سنة ١٨٧٩ (١)

وقضت المعاهدة بان تكون الجهة الجنوبية ولاية الروملي وبان يبقى عليها باشا تركي ، مع استقلال نوعي

ومما يجب الفات النظر اليه لاستخلاص العبرة منه هو ان معاهدة برلين اهتمت بطريقة الحكم في بلغاريا خلال المدة التي تنقضي قبل تولية الامير وتمتع البلاد باستقلالها فعلاً . فقررت اقامت حكومة موقتة واسناد ادارتها الى مفوض روسي موقت يعمل بالاتفاق مع مفوضين يسمون خصيصاً لهذه الغاية من قبل الباب العالي.

وقررت المعاهدة ايضاً انه في تلك الفترة ذاتها تهتم جمعية من اعيان البلغاريين باعداد القانون الاساسي مع

---

(١) ولد في فيرون سنة ١٨٥٧ وهو النجل الثالث للبرنس الكسندر دي هس ابن اخت القيصر اسكندر الثاني

حفظ حقوق الاقليات في الجهات التي يختلط فيها البلغاريون مع الترك والرومان واليونان وغيرهم حتى اذا تم وضعه يشرع بانتخاب الامير وتنتهي مهمة المفوضين.

وقد تحدد لانهاء هذه الاعمال مدة لاتزيد عن التسعة اشهر (بنود ١ الى ٧)

ونظرت المعاهدة الى وجوب توحيد الحكومة وتعزيز الرابطة القومية اعداداً للامة الى الاستقلال المطلق فقررت في بندها الخامس ان يكون اساس الحكومة والادارة على قاعدة الاهلية والكفاءة لا على قاعدة العناصر والطوائف كما فعلت معاهدة سنة ١٨٦١ في لبنان(١)

---

(١) نصت المادة الاولى من معاهدة برلين: «تجعل بلغاريا امارة ذات استقلال داخلي وتدفع جزية وتكون تحت سيادة جلالة السلطان ويكون لها حكومة مسيحية وجندية وطنية.»

المادة (٢) «تعطى امارة بلغاريا الاراضي الاتية....» وهنا تذكر المادة حدود بلغاريا....

المادة (٣) «يعين انتخاب امير بلغاريا بمعرفة الاهالي بالحرية التامة ويقره الباب العالي بموافقة الدول. لا يجوز انتخاب امير على بلغاريا من افراد العائلات المالكة بين الدول الكبرى الاوروبية...»

اما تقسيم بلغاريا الى ولايتين فلم يكن طبيعياً كجعل بيروت وطرابلس حكومتين مستقلتين في قلب لبنان إلاّ ان نزعة البلغاريين الى الاستقلال المطلق حملتهم على

المادة (٤) « تدعى جمعية من اعيان بلغاريا الى «تيرنوفو» وهي تعين قبل انتخاب الامير نظام الامارة الاساسي . في الاماكن التي يختلط فيها البلغاريون باهالٍ من الاتراك والرومان واليونان وسواهم ، ينظر في حفظ حقوق ومصلحة هؤلاء الاهالي فيما خص الانتخابات وتحضير النظام الاساسي . »

المادة (٥) « تكون المبادي الاتية قاعدة للقانون الاساسي في بلغاريا : لا يكون اختلاف المذاهب الدينية والطائفية سبباً في حرمان احد من التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ومن تولي الوظائف العامة والمناصب والرتب ومعاطاة الحرف والصنائع على انواعها في اي بلدة كانت .

ان حرية الاديان واقامة الطقوس الخارجية مضمونة لكل اهالي بلغاريا والاجانب على السواء . . . »

المادة (٦) «يتولى مفوض روسي الادارة الموقتة لبلغاريا حتى يكون انتهى سن قانونها الاساسي . ويساعده في الاشراف على سير هذا النظام الموقت مفوض عثماني وقناصل تنتدبهم لهذه الغاية سائر الدول الموقعة هذه المعاهدة . اذا حصل اختلاف بين القناصل المندوبين فالرأي للاكثرية ، واذا اختلفت هذه الاكثرية مع المفوض الروسي او المفوض العثماني فتعتمد الدول الموقعة الموجودون في الاستانة يجتمعون

السعي الآن لتوحيد الامارتين كما حصل قبلهما لفلاخيا وملدفيا وكما جرى في لبنان لدى الغاء القائمقاميتين والرجوع الى وحدة الحكومة ، وما زالت الحركة تختمر في الرومللي حتى انفجرت الثورة في عاصمتها فيلبوبولي ونادت لجنة ثورية ، على رأسها سكرانسكي الباسل ، باتحاد المقاطعتين ، في ايلول سنة ١٨٨٥ ودعت الامير اسكندر اليها فلبى دعوتها وبادر الى فيلبولي حيث اعلن الضم فكانت من ثمّ الامارة البلغارية وعليها الامير اسكندر

ولم يلبث الامير ان اضطر الى التنازل عن العرش لتغيّر القيصر اسكندر الثالث عليه فاستعفى في ٧ ايلول سنة ١٨٨٦ واستلم مقاليد الحكومة الموقتة ستمبولوف وكارافلدف وفوستكوروف ، واجتمعت الجمعية الوطنية في تيرنوفو فانتخبت الامير « ولدمار الدنمركي »

في « مباحثة » ويفصلون في الامر . »

المادة (٧) « لايجوز ابقاء هذا النظام الموقت اكثر من تسعة شهور تبتدي من يوم تبادل التصديق لهذه المعاهدة »

« ومتى تم وضع القانون الاساسي يعمد حالا الى انتخاب امير بلغاريا . ولدى تنصيبه يشرع حالا في تنفيذ التشكيلات الجديدة وتتمتع الامارة بكافة حقوق استقلالها الداخلي . »

P. Albin p. 209

فلم يقبل (١١ت ٢ سنة ١٨٨٦)

فاضطر البلغار الى التفتيش على امير غيره . وبعد ان طافوا عواصم اوربا وقع الاختيار على الامير «فردينند دي سكس كوبورغوطا» فرضي الامير ان يتولى عرش بلغاريا فاجتمعت الجمعية الوطنية ثانيةً وانتخبته في ٧ تموز ١٨٨٧ فاستلم الامير زمام الحكم ووزيره الاكبر ستمبولوف . ولم تسلم بلغاريا من الاضطرابات التي تحدث عادةً على اثر انقلابات كهذه، فحصل فيها قلاقل وفتن داخلية ادت الى ارتكاب كثير من الجنايات السياسية اخصها قتل ستمبولوف سنة ١٨٩٥

ولم تمنع هذه الاضطرابات بلغاريا من السير في طريقها الى الرقي والاستقلال المطلق ، فاعترفت الدول بالامير الجديد سنة ١٨٩٧ . وظل الامير فردينند يرقب الفرص وبلغاريا تتحفز للوثوب الى تاج « المملكة » حتى آتته وآتتها الظروف في خريف سنة ١٩٠٨ ، بعد نشر الدستور في تركيا وضم النمسا للبشناق والهرسك ، فباغت الامير العالم بالمناداة في تيرنوفو « بالمملكة البلغارية » وباخذه لقب « قيصر البلغاريين » (٥ت١ ١٩٠٨)

فما عتمت ان اعترفت اوربا بالمملكة الصغيرة وبالقيصر الجديد واضطرت تركيا الى الموافقة عليها بمقتضى اتفاق عقد بينها وبين بلغاريا وقعته في ١٩ نيسان ١٩٠٩

وقد دفعت روسيا مهر استقلال بلغاريا فتنازلت لتركيا عن مبلغ طائل من الغرامة الحربية التي قررتها لها معاهدة سان ستيفانو، كما سبق لانكلترا ان دفعت مثل هذا المهر لليونان يوم تنازلت لها عن جزر بحر اليونان.

الجبل الاسود

ان الدول يوم قررت مصير البلقان في معاهدة برلين، لم تنس ان تضمن لتلك البقعة الصغيرة الجبلية حقوقها فاعترفت باستقلال «الجبل الاسود» الذاتي. ثم اعترفت به مملكة ذات استقلال تام في آب ١٩١٠. وجعلت فيه الاهلية والكفاءة قاعدة للحكم لا الدين والطائفة. (مادة ٢٦ و ٢٧)

فترى مما تقدم ان اوربا كانت تتسابق الى عون تلك الممالك البلقانية وتكوينها وتوسيعها كانها الام الرؤوم تتعهد ابنائها بالمحبة والحنان، فهل هي فاعلة مثل ذلك في لبنان؟

لبنان

ملخص تاريخ لبنان السياسي هو ان الحركة الوطنية ، سعياً لخلع السيادة العثمانية ، بدأت فيه منذ اواخر الجيل السادس عشر فتأصلت وظهرت في اوائل الجيل السابع عشر وما زالت تملأ حياة قومه وتريق دمائهم زهاء قرنين ونصف قرن ، ولبنان لايزال محروماً من نيل غايته الوطنية

فقد ثار فخر الدين الكبير على الدولة في بدء القرن السابع عشر وحاربها اكثر من ٣٥ سنة ، واخيراً خانه الحظ كما خان قورقماس بعده بنحو مئة وخمسين سنة ، ولم ينفك لبنان بعده عن قتال الدولة حتى حروبه الرائعة معها على عهد الامير بشير الكبير زهاء نصف قرن

ولم يكن حظ هذا الامير الشهابي اسعد من حظ سلفه الامير المعني .

وقد لاح في منتصف القرن التاسع عشر ان اوربا تريد ان تعمل للبنان ما عملته للممالك البلقانية فبدأت بالاعتراف له بالاستقلال الداخلي . الا انها رغم ثورة يوسف بك كرم

اولاً وثانياً ورغم جهاد اللبنانيين المتواصل، لم تقدم الدول خطاها ولم تنتقل بلبنان كما انتقلت بالصرب واليونان والرومان والبلغار والجبل الاسود من الاستقلال الداخلي الى الاستقلال المطلق. ولعل السياسة الدولية لم تساعدها يومئذٍ على اجراء العدل للبنان كما أجرته للبلقان، فلا شك انها تنصفه اليوم وتعيضه مما فات. فتحقق له معاهدة الصلح ما قصرت عنه معاهدة سنة ١٨٦١ فيمنح استقلالاً يريحه الى الابد اسوةً له بتلك الممالك الصغيرة التي انشأتها اوربا، انصافاً للشعوب الضعيفة وختاماً لعهد الاستعباد

وفي الفصول الآتية بيان لتاريخ لبنان السياسي منذ الفتح التركي لسوريا حتى سنة ١٨٦٠

الفصل الاول

الامير فخر الدين المعني الاول والامير قرقماس

فخر الدين الاول

يوم فتح السلطان سليم الاول سوريا (١٥١٦) كان كبير امراء لبنان الامير فخر الدين المعني الاول، وهو الرابع عشر من امراء بني معن واولهم الامير معن الايوبي أتى الى لبنان سنة ١١٢٠ وضرب خيامه في بلاد الشوف وهي يومئذ تكادلا تكون مأهولة بالسكان «ثم ترك الخيام وبنى المنازل وصار يحث اصحابه وقومه على العمار حتى كثر السكان.» (١)

وتعاقب المعنيون على حكم الشوف، بينما الامراء والمقدمون والمشايخ يحكمون في الغرب او الشمال، حتى

(١) الشدياق: ص ٢٤٨

الفتح التركي

وكان فخر الدين رجلاً شجاعاً فصيح اللسان سهل الخاطر. ولما عقد النصر للسلطان سليم، نزل الامير للسلام عليه في دمشق والقى بين يديه دعاء شائقاً فأحبه السلطان لاجل فصاحته وجسارته فقربه اليه وأقره على امارته «وجعله مقدماً على الجميع» (١). ولم يأل فخر الدين جهداً في تعمير البلاد وتحصينها «فبنى بنايات عظيمة وقلاعاً حصينة ومدّ سلطانه من حدود يافا الى طرابلس» (٢) ولم ينل بؤس حتى وافته منيته سنة ١٥٤٤ فخلفه ابنه الامير قرقماس

---

١ الشدياق : ص ٢٥١

٢ الامير حيدر احمد الشهابي : الغرر الحسان ص ٦١٢

الامير قرقماس

وكان ان عظم بطش السلاطين العثمانيين واشتدت وطأتهم فباتوا ينظرون بعين الكره الى لبنان وما له من الامتيازات فوطنوا النفس على اغتنام اول فرصة لدخول الجبل .

وما لبثت ان سنحت تلك الفرصة سنة ١٥٨٤ على اثر سرقة اموال الدولة الاميرية (الخزينة) في جون عكار فألقيت التهمة فيها على اللبنانيين فصدر امر الباب العالي بجمع العساكر والزحف على لبنان بقرد ابراهيم باشا جيشاً لجباً دهم به الجبل على حين غرة ، فلم يوفق الامير قرقماس الى رد الاعداء عن البلاد فاضطر الى الالتجاء الى مغارة في بلاد الشوف تحت جزين فاختفى هناك مدة ثم حدث له مرض فمات تاركاً ولدين صغيرين : فخر الدين ويونس ، وامهما الست نسب .

الفصل الثاني

الامير فخر الدين الثاني الكبير (١)

(١٥٧٢ — ١٦٣٥)

شعر اللبنانيون على اثر تلك الحادثة ان الدولة اخذت تضيق عليهم الخناق وان لا قبل لهم بصد اطماعها بهم ما داموا متفرقين غير متضامنين فسعى عقلاؤهم لتوحيد الكلمة في البلاد امام ذلك الخطر الداهم فساعدهم على ادراك غايتهم مقام المعنيين في لبنان وتربية احدهم واعظمهم فخر الدين الكبير في كسروان قلب البلاد المارونية:

---

١ الدويهي ص ١٨٣ وما يليها
الشدياق ص ٣٠٢ وما وما يليها
الامير حيدر الشهابي ص ٦١٨ وما يليها
شرشل : جبل لبنان ج ٢ ص ٣٣٨ وما يليها .. الخ

كان للمعنيين كرامة جلى في لبنان لاسباب عديدة منها ترفعهم عن التعصب الديني واحلالهم المصلحة اللبنانية فوق كل اعتبارات اخرى حتى ان مدبر الامير قرقماس كان الحاج كيوان الديراني الماروني . ومنها اقامة المعنيين في لبنان وتأصلهم فيه من سنة ١١٢٠ حتى اصبحوا وطنيين صميمين بعد ان مضى عليهم في لبنان ما ينيف على الاربعماية سنة

اما تربية فخر الدين في كسروان فحكايتها : انه لما هلك الامير قرقماس ، سعى ابراهيم باشا للايقاع بولديه الاميرين الصغيرين فخر الدين ويونس ، فلجأت بهما والدتهما الست نسب الى مدبر زوجها الحاج كيوان وطلبت منه ان يخبئها عند احد الامناء في كسروان . فنهض بهما ليلاً ومعهما والدتهما الى كسروان قاصداً فيه رجلاً من وجهاء الموارنة المخلصين هو الشيخ ابو صقر ابرهيم الخازن . فبلغوا الى بلونه مقر الشيخ ابي صقر وقص عليه الحاج كيوان الامر ، فأكرم ابو صقر وفادتهم وحضن الاميرين ورباهما احسن تربية ولم يدر بهما احد .

وقد ترعرع الاميران في حضن ابي صقر على المبادي

القويمة والاخلاق الكبيرة والوطنية الصحيحة فشبا وفي صدرهما كره الدولة قاتلة ابيهما والعاملة على اذلال البلاد، فكانت كل حياتهما سلسلة حروب مع الدولة اخذاً بثأر والدهما من جهة، ودفاعاً عن حقوق الوطن من جهة اخرى. وقد كانت اقامتهما عند الشيخ ابي صقر، بين الموارنة وفي صميم البلاد المارونية، اكبر عامل على نزع كل عواطف التعصب الديني من نفسيهما الكريمة فلم يدركا سن الرشد الا وهما على جانب عظيم من سمو الاخلاق والوطنية الصحيحة مما ظهرت نتائجه الطيبة في كل ادوار حياتهما. واول عمل اتياه، بعد ان بلغا اشدهما وتولى فخر الدين امارة الشوف، انهما دعوا الشيخ اباصقر ابرهيم اليهما وبالغا باكرامه والحفاوة به ذكراً لمعروفه معهما وصدق تربيته لهما. وقد جعله فخر الدين مدبراً له واقام اخاه رباحاً الخازن دهقاناً(١)

---

(١) واصلت البحث بعد الطبعة الاولى في تاريخ فخر الدين الكبير فتوفقت بمساعدة الاب طوبيا العنيسي للوصول الى نسخة من تاريخ فخر الدين وضعه باللغة التليانية مؤلفه جيوفاني مارييتي وكان قد زار لبنان ثم نشر كتابه سنة ١٧٨٧ في ليفورنو من اعمال ايطاليا.

وفي هذا التاريخ (ص ٤٧ ومايليها) ان الذي حضن الامير بن

ولم يلبث ان توفي ابو صقر ابرهيم ، فاقام فخر الدين مقامه ولده الشيخ ابانادر مدبراً له وجعل فيما بعد الشيخ نوفل ابن الشيخ ابي نادر مدبراً لاولاده . ولم يكتف الامير باظهار ميله الى بيت ابي صقر بل تعداه الى غيره من وجهاء الموارنة فاخذ في خدمته الخاصة الشيخ ابا ضاهر حبيش ، توثيقاً لعرى الاتحاد بينه وبين النصارى

وكان الامير رجب الصدر سامي المدارك فلم يستبد بالامر في لبنان بل جعل الحكم فيه شورى على نوع ما ، بمن اقامهم حواليه من اعيان البلاد واقطابها فكانوا مجلس شوراه ، لم يتخل عنهم ولم يتخلوا عنه حتى آخر ايامه

وقد كانت كل تلك الظروف عاملاً كبيراً في تمكين الروح الوطنية في صدور اللبنانيين فتوثقت عرى المودة

الصغيرين ورباهما في حجره كان الحاج كيوان الماروني — وغاية ما تمكنت من الوصول اليه بشأن الحاج كيوان انه كان من بحر صاف بكفيا

ويقول ماريتي ان الحاج كيوان هو الذي كان مدبرا لفخر الدين الكبير وهو الذي سافر بمعيته الى ايطاليا وكان له الراي الاعلى عند الامير وانه بعد وفاة الحاج كيوان اتخذ الامير مستشاريه من مشايخ بيت الخازن

بين اهل الشمال واهل الجنوب وجمعت بين وجوه البلاد على اختلاف طوائفهم فكان من اختلاط اللبنانيين بعضهم ببعض ومن اتفاق مصالحهم امام الخطر التركي ، انهم باتوا يشعرون انهم «شعب واحد» تجمعهم «لغة واحدة» و«بلاد واحدة» و«مصلحة واحدة» ؛ فاتحدوا وتضافروا ، فتكونت من ثم «القومية اللبنانية» وحلت محل «العنصرية الطائفية» .

وحدث في البلاد ميل عام الى توحيد الحكم ، فتم ذلك على يد فخر الدين الثاني . فهو الذي وحد «الامارة اللبنانية» فشكل الحكومة على قاعدة القومية والكفاءة لا على اساس الدين والمحسوبية ، وجعل غايته كل مدة حكمه توسيع حدود البلاد ونزع سيادة الدولة عن لبنان . فحاربها في سبيل ادراك تلك الغاية حروبا طويلة وعقد محالفات قوية في اوربا ؛ واورث تلك الغاية لخلفائه حتى اصبحت «الغاية الوطنية» الكبرى للبنان واللبنانيين

ونظراً لمقام فخر الدين في البلاد ومحبة الجميع له واحترامهم اياه فضلاً عن اتفاق المصلحة العامة ؛ لم يلق الامير صعوبة في توحيد الامارة ، فلم يلبث ان اعترف الامراء والمقدمون والمشايخ بحكمه ؛ وهم انما يعترفون لامير وطني لبناني ؛

لا لاجنبي عنهم .

ثم عمد الى العمل على توسيع الامارة وعلى قطع كل علاقة كانت تربطه بحكومة الاستانة فاخذ يعد عدته للامر ؛ وهو لا يترك في اعماله شيئاً للتقادير ولا يعتمد في اموره على الحظ وحسن الصدف ؛ فوضع لكل عمل خطته مما لا يقل في شيء عن ادق ما وضعهُ اكبر الفاتحين وامهر السياسيين :

علم ان القوة محور كل عمل فنظم جيشاً لبنانياً يضارع ارقى جيوش ذلك العهد عدة وعدداً ونظاماً ؛ وادرك ان حياة الجيش والملك انما هي المال فعهد الى الاكفاء من رجاله بتنظيم مالية البلاد فوضعوها على احسن القواعد ورتبوها على ادق حساب حتى كثرت موارد الخزينة واينعت ثروة الامة ؛ ولم يفته ان اساس الملك هو العدل فاجراه في البلاد على يد رجال احسن اختيارهم فكانوا عند ثقته بهم .

ولما استوثق من مناعة جيشه وثبات ماليته ابرز نياته الى حيز العمل فزحف بجيشه اللبناني على الولايات المجاورة فاكتسحها واستولى على بلاد حوران وعجلون ومازال

ينتقل من بلد الى بلد غازيا فاتحاً حتى دق اوتاد خيامهِ على ابواب دمشق

وما لبث ان تطلعت نفسه الى ابعد من ذلك فطمح الى الاستانة قاعدة السلطنة كما طمح اليها معـاوية من قبله ؛ فاخذ يتأهب لتحقيق ذلك الحلم الرائع الذي تقاصر عنه معاوية وحققهُ محمد الثاني

ومن المأثور عنه في ذلك قوله : « انما السلطنة نقل تخم ؛ فكلما تملكنـا بـلاداً نتقوى برجالهـا واموالهـا وننتقل الى غيرها » (١)

...

وكانت الدولة في تلك الاثناء قد اوجست شراً من امير لبنان ورأت ان الامر قد التوى عليها فيه : فبدلا من ان تلحق الجبل بالولايات اخذ الجبل يمـد سلطانه عـلى السهل ويزداد نفوذ فخر الدين في سوريا ازدياداً هائلا

فلم تصبر الدولة على ذلك ؛ وعلى عرش السلطنة يومئذ السلطان احمد الاول ؛ بل عبأت الجيوش وجهزتها بما تحتاج

(١) الشدياق : ص ٣٢٨

اليه من الميرة والذخيرة » وارسلت على امير لبنان الفي رجل من انكشارية اسطنبول وخمسين سنجقاً و ١٤ بكاير بكياً من ديار بكر وانا طولية وقرمان والرها وطرابزون وحلب وطرابلس والشام وغيرها من الاماكن ومعهم خمسون الف مقاتل وعليهم الحافظ احمد باشا قائد عام .. »(١)

فلما وقف الامير على حقيقة الحال لم يشأ ان يقامر بقواته ويخاطر بامارته فيحارب الدولة وحده ؛ ولما ما لها من العدة والعدد . بل ارتأى ان يترك الزوبعة تمر فلا يتصدى لها بل يسافر الى اوربا حيث كان بدأ في مخابرات مع دولها لايجاد محالفة على الدولة ؛ حتى اذا تم له ما اراد عاد الى البلاد وحارب الدولة مستنداً الى جيشه اللبناني والى حلفائه الاوربيين (٢)

---

١ الدويهي : ص ١٩٠

(٢) كان في ذلك العهد لدوقية «تسكانه» مقام رفيع بين حكومات ايطاليا واوربا ، بعد حكومة البندقية . وكان على تلك الدوقية اسرة « مدسيس » الشهورة ودوقها الاكبر سنة ١٦٠٦ « فرديننذ الاول ». وهو قد بدأ المخابرات مع فخر الدين بواسطة الكافلير « ليونتشيني » وعقد معه محالفة سنة ١٦٠٨ ثم توفي فرديننذ الاول فخلفه عليها الدوق « كوسموس الثاني ».

سفر فخر الدين الى ايطاليا ؛ سنة ١٦١٣

لما عزم فخر الدين على السفر ، اسر نواياه الى اخيه الامير يونس وفوض اليه امر الحكم واوصاه ان يكون مستعداً للحوادث واشار عليه بالانتقال من بعقلين الى دير القمر والاقامة فيها. فاتفق الاميران على مايلزم وودع الامير يونس اخاه في صيدا وانتقل بمن معه الى دير القمر عملا باوامر اخيه . وكان ذلك بدء انتقالهم اليها .

وجريا على عادته من عدم الاستشار بالرأي طلب فخر الدين من مدبره الخاج كيوان ان يصحبه في سفرته؛ وفيها ما فيها من نخبآت الاقدار ؛ فامتثل الحاج كيوان امره واهتم بتجهيز ما يلزم للسفر من خدم ومال ومراكب. وفي ١٥ ايلول سنة ١٦١٣ أقلع الامير من صيدا على مركب افرنسي ؛ تحدو به الامال الكبيرة وهو اذ ذاك في عنفوان شبابه غير بالغ الثلاثين ربيعاً . . وقد سافر في مركبه خمسون رجلاً من حاشيته ونزل الحاج كيوان مع الجواري في مركب آخر

وفي الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٦١٣ وصل

الامير الى ثغر « ليفورنو » في ايطاليا (١) فلما رسا مركبه سأل اهل البلدة عن القادم عليهم فأرسل الامير يقول « انا فخر الدين المعني امير جبل لبنان »(٢) . فاحسنت الحكومة وفادته ، وما بلغ خبر مقدمه دوق توسكانه الكبير « كوسموس الثاني » حتى ارسل وفداً لاستقباله ودعاه اليه في مدينة «بيزا» (٣) . ولما وصل الامير اليها بالغ الدوق في الحفاوة به فاخلى له قصراً من قصوره الفخمة وجعله بما فيه من الرياش والخدم تحت تصرف الامير فنزل فيه فخر الدين واخذ نبلاء البلاد يتقاطرون للسلام عليه

وسرى حديث الامير في ايطاليا فارسل ملك« نابولي» يدعوه الى زيارته . فقبل الامير الدعوة وسار الى نابولي ، وكان قد سبقه اليها دوق توسكانه لاكرامه والاحتفاء به.

وقد بات فخر الدين في نابولي موضوع اعجاب اشراف ايطاليا واجلالهم فكانوا يتسابقون الى دعوته واقامة الحفلات

---

(١) ماريتي ص ٩٣ وما يليها

(٢) شرشل : ج ٢ ص ٣٥٢

(٣) ليفورنو ثغر في شمالي ايطاليا على البحر المتوسط في مقاطعة توسكانه. وبيزا ثغر ايطالي ايضاً يبعد عن الاول ٤٠ كيلو متراً تقريباً

الشائقة له . ولم يغرب عن الخاصة هنالك ان لذلك الامير اللبناني غاية سياسية يسعى لتحقيقها . وكان اول من فاوض الامير في امر المحالفة على تركيا الدوق كوسموس الثاني . وكانت الدولة العثمانية في ذلك العهد قوية الشوكة مرهوبة الجانب فلم يسع الدوق القبول فوراً وهو لا يعرف ما لفخر الدين من القوة في لبنان ، فرأى ان يحتاط للامر فيرسل اولا بعثة الى الجبل تدرس الحال ثم تعود اليه بتقرير واف يبني عليه الدوق حكمه

فوافق فخر الدين على رأي الدوق ، فاعدت البعثة وجهز لها مركب ، وكتب الامير الى اخيه وذويه والى اعيان البلاد ينبئهم بما تم له في ايطاليا ويطلعهم على غاية البعثة ويحضهم على حفظ القلاع التي هم فيها ويستحث همتهم ويوصيهم بالتيقظ والاستعداد . وكلف الامير من تابعيه ابن العيسوق ومحمد بن علي كاور بالسفر مع البعثة لايصال تلك الرسائل الى اصحابها في البلاد

فسافرت البعثة وفيها كثيرون من المهندسين الفلورنتيين . ولما بلغوا سواحل لبنان نزلوا الى البر قرب صيدا ، وصعد القبطان ورجال البعثة وابن العيسوق ومحمد

كاور الى دير القمر حيث مقر الامير يونس. ولما رآهم الامير يونس فرح فرحا عظيما ، واعطوه الرسائل التي له ولاعيان البلاد. وقد اكرم الامير يونس ووالدته الست نسب ضيوفهم غاية الاكرام وسهلوا لرجال البعثة اتمام مهمتهم ، فطافوا انحاء لبنان يبحثون وينقبون ليتحققوا بانفسهم ما كان فيه من قوات وحصون واموال ووسائل دفاع من كل نوع

وفي الوقت ذاته ارسل الامير يونس الى اعيان البلاد كتبهم فجاءت الاجوبة من الجميع وفيها بيان واف عن احوال البلاد واخلاص اهلها للامير فخر الدين ، الاّ واحداً منهم لم يجب بل ارسل الى الامير يونس يقول « ان اخاه مغضوب الدولة فلا نقدر ان نجيبه» . (١)

وبعد ان اتمت البعثة عملها واستلم رسولا فخر الدين تلك الاجوبة ، عاد الجميع الى ايطاليا وسافر معهم اليها للحاق بالامير ، الشيخ خاطر الخازن (٢) مع جماعة من قومه ، ويزبك بن العفيف من اعيان الشوف. فعلم الامير منهم

---

(١) الغرر ص ٦٣٦

(٢) هو اخو الشيخ ابي نادر (الشدياق ص ٨٢)

ومن الاجوبة التي ارسلت له كل ما يهمه عن احوال البلاد . وقدمت البعثة الى الدوق تقريراً ضافياً بما رأوا وسمعوا وخبروا فجاء تقريرهم اكبر مؤيد لفخر الدين

فلما وثق كوسموس الثاني ان في لبنان قوة لايستهان بها وان البلاد كلها يد واحدة مع الامير رضي بمحالفته ووعده بالمساعدة على انشاء محالفة اوروبية على تركيا تكون على شكل الصليبية ، يدخل فيها البابا وملك اسبانيا فيليب الثالث

فارتاح فخر الدين الى ذلك كل الارتياح ، ولم تغفله بوادر النجاح في ايطاليا عن وجوب مداومة اتصاله بلبنان فارسل اليه وفداً ثانياً برئاسة الشيخ يزبك بن العفيف ومعه كثير من المال والهدايا توقعاً للطوارىء والحوادث ..

وكان في تلك الاثناء قد تعدى صيت فخر الدين ايطاليا فطبقت شهرته آفاق اوربا فخطب ملوكها وده ، فاسل اليه ملك فرنسا «لويس الثالث عشر»(١) وفداً يدعوه الى زيارة البلاط الملكي في باريس فاعتذر الامير عن تلبية

---

(١) لويس الثالث عشر ابن الملك هنري الرابع والملكة ماري دي مدسيس ولد سنة ١٦٠١ وملك من سنة ١٦١٠ الى ١٦٤٣

الدعوة مراعاة لظروف واعتبارات سياسية، ولعل السبب في امتناعه ما كان بين ملوك فرنسا وبين سلاطين تركيا من علاقات المودة القديمة مما لم يكن ليتفق مع مقاصد فخر الدين

ثم جاءه وفد آخر من ملك اسبانيا « فيليب الثالث »(١) يحمل اليه كتابا ملكيا يلح فيه على الامير بزيارته في مدريد . وقد روي صاحب الغرر الحسان ان الامير قبل دعوة الملك وسافر الى اسبانيا وبصحبته حاكم مسينا ، فلما وصل الامير خرج الوزراء لملاقاته ودخل على الملك هو وحاكم مسينا فترحب بهما واكرم الامير اكراما زائداً وانخلى له داراً عظيمة وظل الامير في ضيافة الملك مدة غير وجيزة اطلعه فيها على احواله واخبره بما كان بينه وبين الدولة من العداء فلقي من الملك كل رعاية وانعطاف (٢)

وقد جاء في الغرر الحسان انه لما رأى فخر الدين اموره جارية على ما يشتهي ، احب ان يرجع موقتاً الى لبنان ليقف بنفسه على حقيقة الحال قبل ان يغادر اوربا نهائياً .

---

(١) ملك فيليب الثالث من سنة ١٥٩٨ الى ١٦٢١

(٢) الغرر الحسان ص ٦٤١

فاستأذن من ملك اسبانيا وركب البحر الى ليفورنو فقص على صديقه الغراندوق كل ما حصل له واخبره انه عزم على السفر لتفقد احوال لبنان بنفسه ثم يعود. فوافق الغراندوق على رايه . وركب الامير البحر ومعه الشيخ خاطر الخازن . وقد جاء في الغرر الحسان ما روايته ملخصاً « فلما وصلت المراكب الى ما بين صور وناقورة عكا نزل الشيخ خاطر وتوجه الى دير القمر ليعلم الامير يونس فيلاقوا الامير الى الدامور . فلما بلغ الامير يونس خبر وصول اخيه فرح فرحاً عظيما وصار في جميع الشوف فرح عظيم . ثم ان جميع اهالي البلاد توجهوا برفقة الامير يونس الى الدامور ، وكان الامير فخر الدين اعطى الشيخ خاطر ثلاثة اسهم وقال له متى حضر اخي الى الدامور ورايت المراكب اقبلت فارم سهما في الجو بعد ما تشعلها . ولما وصلوا الى الدامور واقبلت المراكب رمى الاسهم فتحقق الامير انهم حضروا لملتقاه ، فقربت المراكب الى البر ورمت المراسي وابتدأت القوارب تأتي الى البر وتأخذ الرجال ليسلموا على الامير ويرجعوا ، وبقي الامير يونس عند اخيه حتى انتهوا واعلمه بكل ما توقع في غيابه.

ثم طلب منه ان ينزل الى البر لكي تراه الناس لان اكثر الاهالي حضروا الى ملتقاه من كسروان الى الشوف فنزل الى البر وبقي فيه ثلاث ساعات ونظره الجميع وسلموا عليه ثم رجع الى المركب ورفعت المراكب مراسيها من الدامور واقلعت . . »(١)

ان في تهافت الناس على ملق الامير فخر الدين رغم عدائه للدولة ، لبرهانا ساطعاً على ما كان له من الكرامة والاحترام والمحبة في قلوب اللبنانيين ، بل يدل على تمكن الروح الوطنية من نفوسهم وتقديرهم مسعى اميرهم قدره في سبيل البلاد

وبعد ان وقف فخر الدين بنفسه على احوال لبنان واخذ عنه الخبر اليقين وطمأن ذويه واعوانه وشدد عزائمهم واعدهم لاستقبال الحوادث القريبة لدى رجوعه في اقرب فرصة ، ودعهم ورجع الى ايطاليا . وقد مرت المراكب في طريقها على مالطة ، وكانت اخبار فخر الدين قد شاعت وذاعت في سائر الاقطار ، فلما علم اهل الجزيرة بقدوم الامير

---

(١) الغرر الحسان ص ٦٤٢ (يذكر صاحب الغرر الشيخ خطار والحقيقة خاطر عن الشدياق ص ٨١ و٨٣)

خرجوا الى لقائه وفي مقدمتهم حاكم الجزيرة الاستاذ الاكبر (جران مايسترو) فاستقبلوه بموكب عظيم واطلقت له المدافع

وبعد ثلاثة ايام ودع الامير الاستاذ الاكبر واهل مالطة ونزل الى البحر فواصل سيره الى ليفورنو ورجع الى الغراندوق فقص عليه ماراه في رحلته وهي قد دامت سبعة اشهر .

في تلك الاثناء حدثت في الاستانة حوادث كانت على ما يوافق مصلحة فخر الدين.. فمات السلطان احمد الاول مسير الحملة على الامير سنة ١٦١٢ ، وحدث بعد وفاته اختلاف على ولاية العهد فخلف السلطان احمد اخوه السلطان مصطفى ، وما لبث ان ثار عليه العسكر فاسقطه واقام مكانه ابن اخيه عثمان المعروف باسم السلطان عثمان الثاني ، وهو فتى في الثامنة عشرة من عمره. وكانت الدولة يومئذ في مشاكل وحروب مع ممالك بولونيا وروسيا وامارات البلقان

واكبر ظرف موافق لفخر الدين كان عزل الحافظ احمد باشا عدوه الشخصي ، فلما تغير الحافظ ارسلت الست نسب تخبر ولدها الامير فخر الدين بما جرى وتطلب رجوعه

عودة فخر الدين ؛ سنة ١٦١٧

وكان فخر الدين قد اتم مهمته في اوربا فاستأذن الغراندوق بالرجوع فودعه وركب البحر من نابولي على ما ذكر الدويهي وغيره (١) « فاقلع منها في ٢٧ رمضان سنة ١٦١٧ ، فبلغ مينا عكا في ٩ شوال من السنة ذاتها وارسل مملوكه سروراً بكتب الى ولده الامير علي يعلمه بقدومه . وكان في ذلك الوقت عند الامير علي ، الامير ناصر الدين التنوخي ومقدمو بيت ابي اللمع واكابر الشوف

« فلما قرأ الامير علي كتاب ابيه ماعادت تسعه الدنيا من الفرح وجمع الجميع واعطاهم كتاب والده بخطه وختمه وامر بالافراح فكان يوماً عظيما . . وبادر الى ملاقاة ابيه . وبعد ذلك حضر اخوه الامير يونس وهم لا يتمالكون من الفرح والسرور

« وما ذاعت في البلاد اخبار عودة الامير فخر الدين حتى تقاطرت الناس الى ملاقاته افواجا وهرع اليه الامراء

---

(١) ملخصا من الدويهي ص ١٩٥ والغرر ٦٥٩ والشدياق ٢٧٨ وشرشل ج ٢ ص ٣٦٢

والمقدمون والمشايخ من كل انحاء لبنان اخصهم مشايخ الشوف ومشايخ بلاد صفد وبلاد بشاره وبلاد الشقيف وبلاد صيدا والامير علي الشهابي وولداه الامير محمد والامير قاسم . وقدم الامير احمد يونس الحرفوش وقدم له خيلاً . وارسل الامير احمد الشهابي ولده الامير سليمان وقدم له خيلاً . وارسل الامير احمد طربيه مدبره وقدم له خيلاً . وارسل الامير احمد قانصو مدبره وقدم له خيلاً . فقبل الامير الخيل وخلع على مقدميها ثم سار في البلاد سير الفاتح الظافر بين الهزيج والاناشيد واطلاق البنادق . .

ولما استقر المقام بفخر الدين اخذ ينظم الجيش والمالية وامور البلاد على النمط الذي خبره في اوربا واضعاً نصب عينه تحقيق الغاية التي من اجلها غادر البلاد وانشأ المحالفات . . ولم يظهر الامير عدائه للدولة بل فضل ان يرقب الفرص فيحارب الولاة الواحد بعد الاخر حتى يامن شر اتفاقهم وتضافرهم عليه :

وقد بدأ اعماله بحرب آل سيفا لانهم كانوا يومئذ ذوي حول وطول في لبنان واكبر عثرة في سبيل توحيد الامارة اللبنانية . فعزم على قهر كبيرهم يوسف باشا سيفا . وقد

احتاط للامر بان استوثق اولا من رضى عمر باشا الكنتجي والي طرابلس ومساعدته ، فكتب اليه يشكو من اعمال يوسف باشا سيفا . فاجابه الوالي اذا شئت ان تحاربه فانا اكون مساعداً لك

فاخذ فخر الدين يعد المعدات ويهيء الرجال مستنفراً على ابن سيفا امراء البلاد ومشايخها حتى يطبقوا عليه من كل جهة ويسدوا في وجهه سبل النجاة : فقام من صيدا الى بيروت وكتب الى الامير علي الشهابي يستنهضه ، وكتب الى مدبره الشيخ ابي نادر الخازن ان يرسل رجالا يمسكون جسر نهر ابرهيم على الذاهبين الى الجهة الشمالية لئلا يدري به يوسف باشا ، واستدعى اليه رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان ، وكتب الى ولده الامير علي ان يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشاره والشقيف وصيدا ويذهب بهم الى غزير ، وكتب الى الامير علي الشهابي ان يوافي ولده الامير علي الى غزير ، وكتب الى الامير يونس الحرفوش ان يضبط ما لآل سيفا من المواشي والغلال في القيرانية والهرمل . ثم نهض من بيروت بمن اجتمع عنده الى نهر ابرهيم ثم الى جبيل ومنها الى اميون

ثم الى قلعة بخمون في الضنيه وحينئذ توجه نفر من عسكره من اهل دير القمر للكبس ، فصادفوا الامير محمد بن حسين بن يوسف باشا مع جماعته وهو فتى في الخامسة من عمره. فلما رأت جماعة الامير الصغير ذلك العسكر تخلوا عن اميرهم هاربين فقبض عليه اهل دير القمر واخذوه الى الامير فخر الدين

وكان فخر الدين كبير النفس يشهد تاريخه بنبالة اخلاقه وسمو عواطفه ، فلما رأى الاسير الفتى رأف به وبوالدته فارسل يخبرها بسلامة ابنها وانه في رعايته لتطمئن اليه

وفي غضون ذلك كان نفذ الامراء اوامر فخر الدين فقدم الى غزير ابنه الامير علي بعسكره ومعه الامير علي الشهابي بعسكره ايضاً

« اما فخر الدين فنهض بعسكره من قلعة بخمون الى قرية تولا ، ولما بلغ يوسف باشا قدومه ارسل حريمه ومثمناته الخفيفة قدامه الى قلعة الحصن «حصن الاكراد» في طريق ، ونهض برجاله منهزماً الى القلعة ذاتها في طريق اخرى . فطارده فخر الدين بثلثماية فارس من عسكره وبينما هو مجد في لحاقه ادركه الليل فظهرت من بعيد

عشرة مشاعل خارجة من عكار على طريق الحصن ، فاسرع في اثرهم حاسباً انهم ابن سيفا ورجاله ، فاذاهم فريق النساء والاحمال ، فابت عليه مروءته الا ان يحميهم من كل اذى فاستحلف فرسانه الا يمدوا ايديهم الى النساء ويكتفوا باخذ الاحمال .

« اما يوسف باشا فلما سمع الضوضاء ، اطفأ مشاعيله واسرع بعسكره الى قلعة الحصن وهو لم يدافع عن حريمه وماله

«وكان في تلك الاثناء قد دخل عسكر الامير عكار وغنم ما فيها . اما الامير فبلغ قلعة الحصن قبل وصول عسكره من عكار . فلما اقبل عليها وجد جميع امراء آل سيفا متهيئين برجالهم للقتال وعندهم بنو الصواف مقدمو المتن برجالهم . فلم يحجم فخر الدين بل اقدم صائحاً بقومه : القتال ، وزأر كالاسد وشن الغارة وانقض هو وفرسانه على القوم فانهزم يوسف باشا بقومه متسابقين الى تلك القلعة للتحصن فيها .»(١)

وكان فخر الدين عارفاً بفنون القتال يباشره بنفسه ويعمد فيه الى اساليب فنية محكمة ، طالما استعملت في

(١) الشدياق ص ٢٨٢ وما يليها .

هذه الحرب ، كحفر الخنادق واقامة المتاريس من اكياس الرمل والتراب .

ولما ايقن ابن سيفا انه مقهور لا محالة ارسل كنته ومعها نساء ليشفعن به لدى فخر الدين : « وبينما كان الامير في خيمته واذا ابنة داخلة اليه ومعها نساء فالتمست منه العفو عن آل سيفا » (١)

وقد علمت من اخلاق فخر الدين انه كان كبير النفس لايلين لقوي ولا يصلب لضعيف فاحسن استقبال ذلك الوفد من السيدات وطيب قلب كنة يوسف باشا ووعدها باجابة سؤلها

وبعد ان استظهر فخر الدين على يوسف باشا سيفا وكسر شوكته ، مال على غيره من الولاة وزعماء العشائر : فاعلن الحرب على الامير احمد طربيه وظفر به ، ثم حارب مصطفى باشا وغلبه في واقعة المجدل . وكان اثناء سيره في البلاد يشيد القلاع في طريقه جاعلا له فيها قواعد حصينة

(١) هي زوجة حسن بن يوسف باشا سيفا وبنت فخر الدين (الشدياق ص ١٦٤ و ٣٠٣ وما يليها)

يستند اليها في المواقع . فبعد ان اطاعه في وادي التيم الامير احمد الشهابي ، وفي حاصبيا الامير علي الشهابي ، سار الى بانياس فرمم قلعتها ، والى صرخد فبنى فيها قلعة ، ثم نهض الى بعلبك ورمم قلعتها ، ثم الى قب الياس وبنى فيها قلعة .

وحدث في ذلك العهد غلاء في دمشق فارسل اهل المدينة يشكون حالهم الى الامير ، فارسل اليهم حالا الفي حمل جمل قمحاً ، وفي اليوم الثاني الفي حمل ايضاً . ثم جمع جمال حوران ودوابها وامر اصحابها ان ينقلوا القمح الى دمشق وامر ان يكون رطل الخبز بقطعتين ، ثم اتى الى مرجة دمشق فخرج اهل المدينة كباراً وصغاراً الى ملاقاته يدعون له بالنصر وطول البقاء .

وقد سار الى غربي حماه فقدم اليه اهلها طائعين ، وشرع ببناء قلعتين احداهما شمالي قلعة الشماميس تجاه حلب والاخرى فوق انطاكيه . ونهض الى بلاد الثغر وبيلان فقدم اليه والي حلب وقدم له ثلاثين ذهبا والف حمل مؤونة لعسكر وطلب منه الاحسان للرعايا . .

وقد كان الفضل الاكبر في انتصارات فخر الدين

لالتفاف اللبنانيين حوله من كل فج وصوب محاربين جميعهم تحت لوائه على اختلاف مذاهبهم باتحاد تام في سبيل غاية وطنية واحدة هي الدفاع عن حريتهم واستقلالهم

وقد نتج عن تضافرهم في ميدان القتال وهرق دمائهم جنباً الى جنب انهم تآخوا واتحدوا فباتوا في تلك الصفوف وهم يشعرون انهم شعب واحد تجمعهم حكومة واحدة بصرف النظر عن الطوائف والمذاهب، فاقام فخر الدين عمالا على البلاد من كل الطوائف على السواء، لم ينظر في تعيينهم الاّ الى كفاءتهم واقتدارهم : فولى الشيخ ابا نادر الخازن على بلاد جبيل، والشيخ ابا صافي اخاه على بلاد بشري، والمقدم يوسف الشاعر على بلاد البترون، فكانت من ثمّ « الامة اللبنانية » و« الامارة اللبنانية » وهما منفصلتان عما يحيط بهما من العناصر والولايات

وقد بلغ لبنان يومئذٍ أوج عزه ومجده وبات اميره فخر الدين الكبير عزيز الشوكة واسع السطوة، وقد اقرته الدولة على فتوحاته واطلق عليه السلطان لقب « سلطان البر ». ولقد اصبح لبنان في ذلك العهد مملكة ضخمة قوية واسعة الاطراف مرهوبة الجوانب يمتد سلطانها من حدود حلب

الى حدود القدس الشريف (١). وكان فخر الدين يواصل في تلك الاثناء مخابراته مع ملوك اوروبا وامرائها ويفاوض في الوقت ذاته فرسان جزيرة مالطه حتى كاد يوجد دعوة صليبية جديدة على تركيا

واول من شرع بتنفيذ المحالفة وبذل المساعدة الفعلية للامير كان دوق توسكانه « كوسموس الثاني » فارسل اليه سنة ١٦٣٠ الكافلير « فراتزانو » ومعه مراكب عديدة تقل المهندسين والعمال الاختصاصيين وكثيراً من الميرة والذخيرة (٢). وفي الوقت ذاته كان العلامة ابرهيم الحاقلاني (٣) يفاوض « البابا اوربانوس الثامن » للانضمام الى المحالفة

وكانت الامور من هذه الجهة جارية على ما يشتهيه

---

(١) الشدياق ص ٣١٦

(٢) وقد حفظ امراء توسكانه ذكرا طيباً للبنانيين فلم تنقطع العلاقات بينهم حتى ان الدوق كوسموس الثالث اا علم بوجود احدهم الخوري بطرس مبارك في روما حوالي سنة ١٧٠٠ ، استدعاه اليه في فلورنسا فجعله رئيساً للمطبعة الشرقية التي كان انشأها الدوق فرديننند دي مدسيس ، ثم عينه فيما بعد استاذاً للعبرانية في كلية بيزا . « عن اموس اللاهوت الكاثوليكي طبعة باريس سنة ١٩٠٩ ج ١ ص ٩٩٤ »

(٣) ابرهيم الحاقلاني او الحاقلي ولد في حاقل « من بلاد جبيل »

فخر الدين : فالنصر باسم له واوربا مهتمة بمساعدته وتركيا تسعى الى مرضاته حتى سكر الامير بخمرة الفوز ولم يعد يحسب لاعدائه حساباً فطمح بابصاره الى السلطنة غير مخف نواياه ولا متستر في مظاهره وقد بنى في بيروت خانا للوحوش تقليداً « للسلطنة » مثيراً هواجس الباب العالي وحذره

ومن نكد الطالع ان حدث في اوروبا حوادث في ذلك العهد ، غيرت مجرى الامور على فخر الدين وكان لها في لبنان صدى شؤم ووبال على الحركة الوطنية : وحكاية ذلك انه تفشى في ايطاليا وباء الطاعون الفظيع فانهمك « كوسموس الثاني » في درء الوباء عن بلاده وكان له من امورها الداخلية شغل عن فخر الدين فكف عن ارسال

في اوائل الجيل السابع عشر ومن المعروف ان للموارنة من قديم الزمان دالة خاصة على الباباوات حتى ان البابا غريغوريوس الثالث عشر انشا لهم في روما المدرسة المارونية المشهورة سنة ١٥٨٤ حيث تلقى الحاقلاني علومه . وبالنسبة لتمكن الروح الوطنية من اللبنانيين في ذلك العهد على اختلاف مذاهبهم ونظرا لمقام الحاقلاني في الفاتيكان كان ذلك العلامة اشد نصير واوفى معتمد لفخر الدين لدى البابا اوربانوس الثامن في سبيل خدمة البلاد . (عن الدويهي ص ١٧٠ والدر المنظوم ص ١٩٥ . والمدبس عدد ١٠٢٩ . وجوبلان ص ١١٤)

الميرة والذخيرة اليه واستدعى من لبنان الكافليير « فراتزانوا » مع مهندسيه وعماله

وكان من جهة اخرى ان اشتدت في اوربا وطأة «حرب الثلاثين سنة» وعصفت فيها ريح التباغض بين الكاثوليك والبروتستانت فريعت لها البابوية ولم يعد باستطاعة البابا ان يمد فخر الدين بمساعدة ولا ان يدعو اوربا الى حرب صليبية جديدة واوربا يومئذٍ غارقة في بحار فتنها وحروبها الهائلة (١)

وقعت تلك الحوادث في اوربا فاغتنمت الدولة الفرصة السانحة لها على فخر الدين فجهزت حملة اشد هولاً من الاولى التي سيرتها عليه في بدء حكمه :

ففي سنة ١٦٣٣ أصدر السلطان مراد امره الى الصدر الاعظم خليل باشا فعبئت الجيوش وزحفت على لبنان بامرة احمد باشا الحافظ كجك فوصلت الى الجبل يوم كانت انقطعت عن فخر الدين مساعدة حلفائه الاوربيين ، مما حسن في مركز الحافظ الحربي. فانتشب القتال بين الفريقين وظل مدة سجالاً بينهما ، تارة يبسم النصر للبنانيين

(١) « حرب الثلاثين سنة » هي سلسلة منازعات وحروب دينية سياسية شغلت اوربا من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨

وطوراً يعبس في وجوههم حتى أصيبوا بفقد قائدهم العام لامير علي بن الامير فخر الدين وهو من أمهر قواد زمانه ، فكان فقده فاتحة شؤم ووبال على قومه ، ففارق السعد الوية اللبنانيين وما لبث ان استظهر الحافظ كجك عليهم والتوى الامر على فخر الدين (١) .

---

(١) بعد ان استظهرت جيوش الدولة على اللبنانيين ارسل فخر الدين اصغر انجاله الامير حسين مع مدبره الشيخ نوفل الى قلعة المرقب حيث اضطروا الى التسليم . ولجأ فخر الدين مع سائر انجاله منصور وحيدر وبلك يصحبه مدبره الشيخ ابو نادر الى قلعة شقيف نيرون قرب نيحا ثم انتقلوا منها الى مغارة جزين واضطروا هم ايضاً الى التسليم

وقد اطلق سراح الشيخ ابي نادر وابنه الشيخ نوفل . اما فخر الدين وانجاله فسافروا الى الاستانة حيث غدر بهم ، الا بالامير حسين ، في ٢ نيسان سنة ١٦٣٥ وعمر فخر الدين ٥٢ سنة .

اما الامير حسين فابقى السلطان عليه وظل في الاستانة حتى بلغ اشده فادخل في مناصب الدولة وتقدم فيها كثيراً . وفي سنة ١٦٥١ كان مرسلاً من قبل الدولة الى الهند فمر على لبنان وزار ابن عمه الامير ملحم في دير القمر فترحب به الامير ملحم وعرض عليه ان يقيم في لبنان فيتنازل له عن الامارة . فاعتذر الامير حسين شاكراً لابن عمه فضله ومروءته . وبعد ان اقام عشرين يوماً في ضيافته واصل طريقه . ثم

وكان للامير في انقلاب الدهر عليه اسوة بمن سبقه ومن لحقه من قواد عظام وملوك كبار خانهم القدر في بلوغ مارموا اليه من الغايات الوطنية

رجع الى الاستانة . ولم يعد بعدها الى لبنان (الشدياق ص ٣٣٦ . الغرر ص ٧٢٨)

الفصل الثالث

الامير ملحم (١٦٣٥ — ١٦٥٨)
والامير احمد (١٦٥٨ — ١٦٩٧)

خلف فخر الدين الثاني على الامارة ابنُ اخيه الامير ملحم المعني ابن الامير يونس

ولم يصفُ الجو بين الامير ملحم وبين ولاة سوريا فكان له معهم مواقع مشهودة أشهرها « موقعة وادي القرن » سنة ١٦٥٣ حيث وقف اللبنانيون من جهة واصطفّ رجال الامير علي علم الدين اليمني وعساكر والي دمشق بشير باشا من جهة اخرى . وقد دام القتال ثلاث ساعات استبسل فيها الفريقان ايما استبسال ، ولم يلبث اللبنانيون ان استظهروا على الاعداء ، فمزّقوا صفوفهم وشتتوا شملهم فولى اليمنيُ ورجاله الادبار واللبنانيون يعملون في اقفيتهم

السيوف حتى اوصلوهم الى دمشق فلولاً مقطعة الاوصال(١)

وكان بين المعنيين والشهابيين صلات ود وصداقة فأزوج الامير ملحم ابنته من الامير حسين الشهابي فرزق منها « الامير بشير »وهو الذي قدر له ان يكون اول امير شهابي على لبنان

وبعد وفاة الامير ملحم (١٦٥٨) خلفه ابنه الامير احمد فكانت على ايامه « وقعة الغلغول » عند برج بيروت سنة ١٦٦٦ بين القيسيين واليمنيين فظفر الامير باليمنيين واستقل بامارة بلادهم جميعها

وسنة ١٦٨١ ازوج ابنته من الامير موسى الشهابي فرزق منها ولداً دعاه «حيدراً »وهو الذي انتخبه اللبنانيون على الامارة بعد الامير بشير .

وقد توفي الامير احمد المعني بلا عقب سنة ١٦٩٧ فانقرضت به السلالة المعنية في لبنان وحلت محلها فيه الاسرة الشهابية .

---

(١) الشدياق : ص ٣٣٧

الباب السادس

لبنان على عهد الشهابيين (١)

الفصل الاول

الامير بشير الاول . الامير حيدر . الخلعة
الامير ان احمد ومنصور . الامير يوسف

الامير بشير الاول (١٦٩٧ — ١٧٠٧)

ان تاريخ لبنان السياسي ، لاسيما منذ فخر الدين الكبير ينحصر في هذه الجملة : ذود اللبنانيين عن استقلالهم الداخلي وسعيهم للاستقلال التام بقطع كل علاقة كانت تربطهم بتركيا

(١) راجع الدويهي والدبس والشدياق والغرر الحسان وجودت باشا ورحلة لامرتين الى سوريا وتاريخ الدولة العثمانية للفيكونت دي لاجونكيار والكولونل تشرشل الخ .

فذوداً عن استقلالهم الداخلي حالفوا الروم على العرب، والصليبيين على الدولة الفاطمية، وحاربوا الدولة العثمانية حروباً متواصلة

وسعياً للاستقلال التام التفّ اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم حول فخر الدين الكبير واراقوا دماءهم الغزيرة في قتال تركيا، كما اراقوها على عهد الامير بشير كبير، وفي الفترة المنقضية بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠

وقد فهموا وتأكدوا ان تحريرهم لا يتم الا باتفاقهم واتحادهم شعباً واحداً وحكومة واحدة، فاتفقوا واتحدوا. فبات لبنان من الوجهة السياسية ذا مقام ثابت وطيد الاركان يعترف الجميع بمركزه الخاص وبامتيازاته الواسعة

ولم تكن تنكر الدولة العثمانية على لبنان استقلاله الداخلي وحقه بحكم نفسه بنفسه: فلم تدع يوم خلت الامارة من المعنيين بان لها الحق بان تعين من تشاء من رجالها والياً على لبنان، كما كانت تفعل بسائر الولايات السورية. بل اعترفت للبنانيين بحق اختيار من يريدون خلفاً للامير احمد. فاجتمع وجوه واعيان البلاد وتشاوروا في من يقيمون عليهم اميراً

وقد كان كثيرون منهم يليقون للحكم سواء بالنسبة لحسبهم وغناهم او بالنسبة لجاههم وكفائتهم . غير ان الحكمة قضت عليهم بان يجدوا حلا يرضي الجميع وينفي من نفوس المتقدمين فيهم عواطف الحسد واسباب الخلاف ، فاتفقوا على ان لايغيروا نظام الحكم في البلاد بل تبقى الامارة المعنية قاعدة الحكم فيه . لا سيما وقد كان للمعنيين كرامة جلى في لبنان لما تم له من الخير والعز والجاه على يدهم .

ففر رأيهم ان يكون الحكم لورثاء المعنيين الاقربين : فانتخبوا الامير بشير الشهابي ابن الامير حسين ، وهو ابن اخت الامير احمد المتوفي وابن بنت الامير ملحم . وفي ذلك يقول الشدياق : «سنة ١٦٩٧ لما توفي الامير احمد المعني وانقطعت به السلالة المعنية اجتمع اكابر لبنان لينتخبوا واليا عليهم فاتفقت آراء الاكابر جميعاً على الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي امير ريشيا ، لانه كان ابن اخت الامير احمد المتوفي . فتوجهوا الى ريشيا ودعوه للولاية فاجاب . . واتى معهم الى دير القمر فاستقبله الناس

بعز عظيم وبايعوه الولاية على جبل لبنان .»(١)
وهكذا انتقلت امارة لبنان الى الشهابيين

. . . .

قيل : ان امراء لبنان من معنيين وشهابيين استأثروا بالحكم فيه فاتحين غزاة وهم اجانب عنه

والحقيقة هي ان اللبنانيين من شعب وامراء ومقدمين ومشايخ ، ما اعترفوا بالامر لفخر الدين الثاني الا وهو امير وطني ولبناني صميم كان مضى على اسرته المعنية في لبنان يوم بويع بالامارة ، ما ينيف على اربعمائة وسبعين سنة. فاصبح اللبنانيون يعدونه ، على حق ، واحداً منهم

وفوق ذلك فان الروابط الشخصية التي كانت بين فخر الدين الثاني وبين اهالي كسروان والشمال كما تقدم ساعدت الامير على توحيد الحكم في لبنان برضى اللبنانيين واختيارهم .

وهكذا قل عن دخول الشهابيين الى لبنان ؛ فانهم ما وطئوا ارض الجبل وجلسوا على سرير امارته الا بناء

---

(١) الشدياق ص ٣٥٨ وشرشل ج ٣ ص ١٦ والغرر ص ٧٤٨

على قرار اللبنانيين ودعوتهم لهم

وقد حصل مثل ذلك في اليونان وفي رومانيا وبلغاريا :

فالاسرة المالكة في اليونان دانمركية الاصل اول من تولى عرش اليونان فيها الملك جورج الدانمركي سنة ١٨٦٣

والاسرة المالكة في رومانيا المانية الجنس ، واول ملك منها الامير كارلوس دعي الى تولي الامارة الرومانية سنة ١٨٦٧ والاسرة المالكة في بلغاريا المانية الاصل ، وقد دخلها فرديناند الاول برضى الامة واختيارها سنة ١٨٨٧

فان صح ان ملوك اليونان والرومان والبلغار دخلوا تلك البلاد غزاة فاتحين صح ان الشهابيين دخلوا لبنان بحق الفتح . . .

وقد توالى الشهابيون على لبنان ١٤٥ سنة من الامير بشير الاول سنة ١٦٩٧ الى الامير بشير الثالث سنة ١٨٤٢

. . .

الامير حيدر (١٧٠٧ — ١٧٣٢)

لم يقتصر اللبنانيون على انتخاب اول امير شهابي ، بل بقيت عادة الانتخاب متبعة عندهم اثباتاً لكون الاستقلال هو حق للبلاد ولاهلها لا لاسرة حاكمة فيها

كما هي الحال في مصر والاّ لزال استقلال لبنان بانقراض المعنيين قديماً ، وبابعاد الشهابيين حديثاً

توفي الامير بشير الاول سنة ١٧٠٧ فاجتمع اكابر البلاد واعيانها وقر رأيهم على تولية « الامير حيدر » ابن الامير موسى شهاب خلفاً له ، وهو ابن بنت الامير احمد المعني آخر الامراء المعنيين . وقد توجهوا الى حاصبيا فاتوا بالامير حيدر الى دير القمر وعمره ٢١ سنة وقد اعترفت الدولة به وارسلت له خلعة الولاية

الخلعة

عملاً بحق السيادة التي كانت للدولة على لبنان كان الامير يدفع جزية عن البلاد ويطلب من الدولة ان تعترف به فكانت تفعل ذلك بواسطة احد ولاتها في سوريا اخصهم والي عكا او والي صيدا فكان الوالي يخلع على الامير فتكون الخلعة بمثابة فرمان يثبت ان الدولة اعترفت به واقرته على الامارة اللبنانية

وقد زعموا ان الخلعة تثبت عدم استقلال لبنان وتجعله في مصاف الولايات العثمانية كولاية دمشق وولاية حلب وسواهما

ولعل المرء اذا نظر الى هذه المسئلة بعين مجردة تبين له ان ما قيل في الخلعة من هذا القبيل هو في غير محله

ليس من يدعي ان لبنان كان حائزاً على الاستقلال المطلق مثل فرنسا وانكلترا مثلاً ، لا تربطه بالدولة العثمانية علاقة ما . بل يقر اللبنانيون قبل غيرهم ، ان لبنان على عهد امرائه ما كان حائزاً الا على الاستقلال الذاتي ، بمعنى ان الامير كان وطنياً من اسرة خاصة ، وكان مدبره ومستشاروه وطنيين ، وكل المناصب والوظائف في ايدي الوطنيين ، فكان لبنان والحالة هذه يدير بنفسه شؤونه الداخلية من مالية وضرائب ومحاكم واحكام وأمن عام وانظمة وقوانين وكل ما له علاقة بادارة البلاد الداخلية لا شأن للدولة في شيء من ذلك . وهذا ما يعبر عنه « بالاستقلال الذاتي »

وقد تسلسلت الامارة في المعنيين منذ اوائل الجيل السادس عشر ، ثم انتقلت منهم الى الشهابيين سنة ١٦٩٧ فتسلسلت فيهم الى سنة ١٨٤٢ ، وبقيت للوطنيين ايضاً في عهد القائمقاميتين حتى معاهدة سنة ١٨٦١

فاذا رجعت بالامارة الى فخر الدين الاول وجدت للبنان امارة وطنية تثبت استقلاله الذاتي مدةً تناهز ٣٥٠ سنة كان فيها كل ما في الحكومة اللبنانية وكل من فيها وطنياً صرفاً : فاللبنانيون يديرون امورهم بانفسهم لا تسري عليهم الخدمة العسكرية التي كان معمولاً بها في ولايات الدولة ، ولا دخل للاجنبي في بلادهم في وجه من الوجوه ، بخلاف ما كان جارياً على ابواب لبنان في الولايات السورية كدمشق وعكا وحلب ، او في الولايات البلقانية كبلغاريا ورومانيا وصربيا واليونان والجبل الاسود ، حيث كانت الدولة تولي من تشاء من رجالها وتعزل من تشاء لا رأي الا رايها ولا حكم لا حكمها ، فكانت تجند منهم الجيوش وتجبي الضرائب والاعشار وتتصرف في البلاد تصرف المالك في ملكه ، في حين انه لم يكن لها شيء من تلك الحقوق في لبنان

ومع هذا فلم يكن لبنان حائزاً على الاستقلال التام بل كان للدولة سيادة عليه ورابطة تربطه بها خصوصاً في المسائل الخارجية اذ لم يكن للبنان معتمدون في الخارج ، كذلك في مسئلة تولية الامير اذ كان لابدَّ من اعتراف

الدولة به . وكان يُعبر عن تلك السيادة والرابطة بالجزية والخلعة ، ومعناها إقرار الامير بسيادة الدولة واعتراف الدولة بالامارة اللبنانية : هذا ما تعنيه معاملة «الخلعة» وهي لا تعني غير ذلك

وقد نهج الامير حيدر على منوال جدوده المعنيين فذاد عن امتيازات لبنان جهده وسعى الى توسيعها ما استطاع مهتما بتمكين الروح الوطنية في النفوس على قاعدة «القومية اللبنانية» التي لا دخل فيها للدين والمذهب . وقد تجسمت تلك العصبية القومية في موقعة عين دارا الشهيرة التي حصلت في ايامه سنة ١٧١١

ففي تلك الموقعة التف اللبنانيون القيسيون على اختلاف طوائفهم بلواء الامير حيدر فتألف منهم جيش لبناني لا يستهان به جمع بين وجهاء الدروز مثل « المقدم مراد والمقدم عبدالله اللمعيين ورجالهما ، والشيخ سيداحمد ابو عذرا ، والشيخ سرحال العماد ومعهما رجال الباروك وما يليهما » وبين اعلام الموارنة « كالشيخ خازن الخازن

الماروني شيخ كسروان ورجاله» (١)

وقد قاتل اولئك اللبنانيون جنباً الى جنب اعداءهم من حزب «اليمنية» وعليه محمود باشا ابوهرموش يساعده نصوح باشا والي دمشق وبشير باشا والي صيدا بعساكرهما الجرارة . فلم يقف اولئك الباشوات وعساكرهم امام الامير حيدر ورجاله الاباسل وكان يوم « عين داره » يوماً مشهوداً ونصراً مبيناً للامير واعوانه فقبضوا على محمود باشا وفر نصوح باشا وبشير باشا منهزمين . فرجع الامير حيدر الى دير القمر تخفق فوق رأسه اعلام النصر ورايات الفخار

وقد نال لبنان على عهده من العز والاستقلال شأواً بعيداً متمشياً في الطريق التي خطها فخر الدين الكبير . وفي ذلك يقول جودت باشا الوزير التركي في تاريخه ، وشهادته لا ترد لصدورها من رجل اقل ما يقال فيه انه غير متعصب للبنان واستقلاله ، قال : « ان الامير حيدر الشهابي حصل في حكومة الجبل على الاستقلال التام ومن ضمنها البقاع ، وكان امراء الجبل في ادارتهم الداخلية واحكامهم مستقلين فلا يقدر احد من حكام الدولة ان يتداخل في امورهم

(١) الشدياق ص ٣١٣

الداخلية . حتى ان اهل الجناية الذين كانوا يلجئون اليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على انفسهم ، وذلك لانه كان من الاصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب اليهم ويحتمي بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرون على استرداده » (١)

وسنة ١٧٣٢ توفي الامير حيدر « فحزن عليه اهل البلاد حزناً شديداً ، وظلت النساء لابسات عليه الحداد اربعين يوماً يندبنه في المساء والصباح . وفي ايامه انقطعت السلالة اليمنية وبطل ذكرها وارتفع شأن القيسية واستظهر امرهم » (٢)

الامير ملحم (١٧٣٢ — ١٧٥٤)

لم تخلُ منصة الامارة بوفاة الامير حيدر حتى جلس عليها سديد الرأي ثبت الجنان ولده الامير ملحم الشهابي فكان خير خلف لخير سلف

ان تاريخ الامير ملحم مفعم بالمآثر الناطقة بكبر النفس وعلو الهمة وشدة البطش والصولة حتى اصبح لبنان على عهده حمى يحتمي به وبات اميره مرجعاً يرجع اليه

---

(١) جودت باشا ص ٣٤٩ وما يليها

(٢) الشدياق ص ٣٦٨

ولاة سوريا بتمام امورهم وفي الاختلافات التي كانت تقع بينهم.

ومن حوادثه انه نمي اليه ان بني علي الصغير اصحاب بلاد بشاره اظهروا الشماتة بموت والده الامير حيدر فخضبوا ذيول خيولهم بالحناء سروراً، فنهض اليهم برجاله والتقى بهم في قرية يارون من تلك الديار فظفر بهم وكسرهم واهلك منهم خلقاً كثيراً ثم رجع الى لبنان ومعه نصار مقدم بني الصغير معتقلاً

وسنة ١٧٤١ حصل نفور بينه وبين والي دمشق فجهز الوالي عسكراً وحضر به الى البقاع قاصداً قتال الامير، فلما بلغ الامير ذلك جمع قومه ونهض بهم الى البقاع ايضاً فلما رأى الباشا ان لا قبل له بقتاله انهزم بعسكره فتأثره الامير حتى ابواب دمشق

وسنة ١٧٤٣ بدا من المتاولة الشيعية اصحاب جبل عامل ماغير خاطر والي صيدا عليهم فكتب الباشا الى الامير ماحم يستنهضه عليهم طالباً اليه تأديبهم، فاجابه الامير الى سؤله ونهض من دير القمر بجحفل جرار حتى بلغ جسر الاولي فلما علم المتاولة بذلك، وكان للامير في البلاد من الصولة ما كان

داخلهم الخوف والرعب ووجهوا رسلاً الى والي صيدا يلتمسون الصفح ، فقبل الوالي ذلك وكتب الى الامير يخبره حتى يعود الى بلاده

وكان الامير على جانب عظيم من عزة النفس ، اذا اسدى يداً فانما يسديها منة منه وكرماً لا خوفاً واضطراراً . فلما بلغه كتاب الوالي اخذ عليه في نفسه لقبوله الصلح مع المتاولة بغير علمه ورضاه . فلم يعمل الامير برأي الباشا بل نهض في الحال بجيشه لقتال المتاولة فالتقى بهم في قرية نصار « فخرجوا اليه بجيش عرمرم فحمل الامير بالرجال وهجم عليهم كالاسد الرئبال فانكسروا وولوا الادبار فاخذ اللبنانيون اعقابهم وغنموا اسلابهم . ثم رجع الامير بعسكره الى دير القمر بعز تام »

وحصل له مثل هذا النصر سنة ١٧٤٨ على اسعد باشا والي دمشق ، على اثر نفور جرى بينهما وقد وقعت المعركة في صحراء برالياس حيث « اصطف الفريقان للحرب والطعان وعند الظهيرة هجم الامير عليهم كالاسد فانكسر الوالي وعسكره . فتبعهم الامير فاتكأ بهم الى ان وصلوا الى سهل الجديدة فاهلك منهم خلقاً كثيراً وغنم عسكره بهم

ثم عاد الامير الى بلاده منتصراً فعلت همته وعظمت هيبته وسطوته »

ومن مآثره انه عاد فضم بيروت الى لبنان وظلت هكذا الى عهد الجزار

وسار الامير ملحم في السياسة الوطنية على أثر ابيه تكملة لعمل الامراء المعنيين من توحيد الحكومة على اساس « القومية اللبنانية » التي لا علاقة لها بالطوائف

فكنت تراه يعهد بمهام اموره الى هذا او ذاك من اللبنانيين بصرف النظر عن الدين والمذهب . ففي سنة ١٧٥٠ تطاول بنو منكر الشيعيون على بعض اقليم جزين ، فعظم ذلك على الامير فدهمهم في جباع الحلاوة فظفر بهم واهلك منهم ثلثمائة رجل وفر الباقون فارسل في اعقابهم كتيبة من جيشه بامرة الامير مراد اللمعي الدرزي والشيخ ميلان الخازن الماروني

وابلغ من ذلك انه لما مرض الامير ملحم سنة ١٧٦١ عهد بالوصاية على اولاده الى الشيخ سعد الخوري صالح الماروني غير ناظر في تقليده تلك المهمة الاّ الى كفاءته

واخلاصه (١)

وفي ايامه حل محل القيسية واليمنية «الحزب الجنبلاطي» «والحزب اليزبكي» واساسهما السياسة والعصبية القومية، لا الدين والمذهب

الامير احمد والامير منصور (١٧٥٤ — ١٧٧٠)

خلف الامير ملحم اخواه الامير احمد والامير منصور. ثم استقل الامير منصور بالامر الى سنة ١٧٧٠ وشعر من نفسه ضعفاً فأراد ان يعتزل الحكم ويتنازل عنه لابن اخيه الامير يوسف، فلم يغفل عما لاهل البلاد من ابداء الرأي في مثل هذه الظروف احتفاظاً بامتيازاتهم ومراعاة لتقاليدهم. فجمعهم واخذ رأيهم وموافقتهم. وفي ذلك يقول الشدياق:

«ان الامير منصور جمع امراء البلاد واكابرها واعيانها في نبع الباروك وخاطبهم قائلاً: «يا معشر آل لبنان من امراء واعيان... انني لما مضى عليّ من الزمان قد ضعف

(١) الشدياق ص ٣٧٠ وما يليها

جسمي وضجرت نفسي ولم يبق لي اقتدار على حمل اعباء الولاية فها انا قد خلعت نفسي عنها وسلمت مقاليدها طوعاً الى ابن اخي الامير يوسف فكونوا له مطيعين واعلموا انه هو الوالي عليكم اجمعين . . » (١) فرضي اهل البلاد بالامير يوسف وبايعوه الولاية سنة ١٧٧٠ وابلغوا الدولة ذلك ، اعترفت به .

الامير يوسف (١٧٧٠ = ١٧٨٨)

جلس الامير يوسف ابن الامير ملحم على منصة لامارة اللبنانية واستقل له الامر فيها « من ظاهر طرابلس الى ظاهر صيدا » (٢) وكان مدبره الشيخ سعد الخوري الذي كان وصياً عليه وعلى اخوته . وقد حدث في عهده قلاقل واضطرابات في ولايات سوريا على يد الشيخ ظاهر العمر كان لها تأثير سيء في لبنان

والمحس ما مني به لبنان في تلك الايام كان احمد الجزار

(١) الشدياق : ص ٣٨٦

(٢) الشدياق ص ٣٨٧

الذي احسن الامير يوسف اليه فجحد الفضل و كفر بالنعمة

فقد هرب الجزار من علي بك والي مصر وأتى الى امير لبنان يحتمي به ، فقبله الامير واكرمه وابقاه عنده في دير القمر اياماً ثم بعثه الى بيروت ورتب له نفقة من جمركها . وكان الجزار يظهر للامير الامتنان العميم ويعترف له بالفضل الجزيل حتى وثق به الامير واختار ان يجعله متسلما من قبله في بيروت فلم يستحسن مدبره الشيخ سعد الخوري ذلك الرأي لقلة ثقته بالجزار وخوفه من مكايده ؛ وكان قد آنس منه المكر والخديعة ؛ فحذر الامير من عاقبة ترقية الجزار ، فلم يشاطر الامير مدبره تلك المخاوف ؛ وعين الجزار متسلما على بيروت . فلم تطل المدة حتى تم ما تنبأ به الشيخ سعد وظهر من الجزار الخروج على الامير ؛ فوضع يده على بيروت ومازال يدس الدسائس ويدبر المكايد حتى توصل الى مقام الولاية ورتبة الباشوية وانقلب على رب نعمته الامير يوسف ايما انقلاب

ولم يخدم الحظ الامير يوسف على الجزار فرأى ان يتنحى عن الامارة بعد ان حصل عليها منازعات بينه وبين أخويه الامير سيد احمد والامير افندي ؛ وعملا بتقاليد

البلاد فعل ما فعله عمهُ الامير منصور من اخذ رأي الامة في من يخلفهُ على الامارة؛ فجمع هو ايضاً اكابر البلاد سنة ١٧٨٨ وذكر لهم متاعبه وقال لهم ان يختاروا لهم حاكماً غيره من الامراء الشهابيين اللبنانيين فاختاروا الامير بشير ابن الامير قاسم عمر وهو الملقب بالكبير (١)

(١) الشدياق ص ٤١٩

الفصل الثاني

الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ — ١٨٤٠) «١»

حملة بونابرت على سوريا . جلاء الافرنسيين

محمد علي والامير . الحملة المصرية على سوريا

ان تاريخ الامير بشير الثاني يعيد الى الذهن ذكر تاريخ الامير فخر الدين الثاني لما ثم من وجوه الشبه بين الحوادث التي جرت للاميرين الكبيرين . فخر الدين عزز مقام الامارة اللبنانية في سوريا حتى هابت سطوته حكامها وولاتها . والامير بشير نال من الجاه والسطوة ما كاد يعيد الى لبنان مقامه على عهد فخر الدين

وطد الامير المعني الكبير دعائم الاستقلال الداخلي في لبنان حتى كاد يستقل به تماماً ووسع حدوده توسيعاً

(١) هو الامير بشير بن قاسم بن عمر بن حيدر الشهابي ولد في غرير سنه ١٧٦٧

جعل له مسلكاً يتدرواقه من القدس جنوباً الى حلب شمالا

ولم يقصر الامير بشير عن سلفه فيما نص الاستقلال الداخلي ، كما انه لم يقعد عن الاهتمام بحدود لبنان فاعاد اليه بيروت والبقاع وضم بعلبك ووادي التيم (١)

سعى فخر الدين لقطع كل صلة كانت تربطه بتركيا فسافر الى ايطاليا لعقد محالفات فيها على الدولة . وطمح الامير بشير الى الغاية نفسها فركب البحر الى القطر المصري حيث وجد في العزيز (محمد علي) مساعداً قوياً وحليفاً جسوراً . وقد سهل اتفاقهما سعي كل منهما للانعتاق التام من ربقة الدولة العثمانية

وكان لبنان على عهد الاميرين يتمتع بالراحة التامة والامن الوافر حتى اصبح لبنان مضرب الامثال من هذا القبيل

وتوحيد الحكومة الذي تم على يد فخر الدين قد وطد الامير بشير دعائمه وعزز اركانه حتى لم يبق في البلاد امر لحاكم سواه

هذا والروح الوطنية المجردة قائمة في البلاد على اساس

---

(١) الشدياق ص ٤٥١

«القومية اللبنانية» بصرف النظر عن الاديان والمذاهب حتى ان اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم حاربوا جميعهم جنباً الى جنب على عهد الاميرين غير ناظرين الاّ الى المصلحة القومية

ولم يعرف لبنان اهوال الحروب الداخلية والفتن الاهلية حتى لعبت به ايدي الدسائس فبثت في صدور اهليه روح التعصب للدين والمذهب ، ومن ثم فقد لبنان عزه وقوته. ولولا ان تدارکته العناية لضاع القليل مما ابقت عليه تلك المحن الطائفية من الاستقلال الداخلي :

ان في تلك العبر التاريخية لامثولة حية لعقلاء اللبنانيين تهيب بهم الى الرجوع بالبلاد الى عهد الاجداد نابذين الفوارق الدينية ، لتعود الى لبنان وحدة حكومته قائمة على دعامة « القومية اللبنانية » لا على اساس العصبية الطائفية ، وهي بدعة ضعضعت قواعد الاستقلال في لبنان

حكم الامير بشير الثاني في لبنان زهاء نصف قرن نال فيه من العز شأواً بعيداً . الا انه تخلل تلك المدة ، حتى سنة ١٨٢٣ ، كثير من المنازعات المشؤومة بينه وبين ذويه من الامراء الشهابيين : الامير يوسف ، ثم الاميرين حيدر

وقعدان ، ثم اولاد الامير يوسف وهم حسين وسعد الدين وسليم ، ثم الامير عباس اسعد ، ثم الامير سليمان سيداحمد ثم الامير بن حسن علي وسليمان سيداحمد (١) . فتداولوا الحكم في البلاد مدة حتى استقر اخيراً للامير بشير . وقد كان للسياسة التركية المعهودة ولدسائس عمالها يد كبيرة في ذلك «٢»

وقد بلغ من سطوة الامير في سوريا انه اصبح صاحب

---

(١) حيدر بن ملحم بن حيدر . قعدان بن محمد بن ملحم بن حيدر . عباس بن اسعد بن يونس بن حيدر . سليمان بن سيداحمد بن ملحم بن حيدر . حسن بن علي بن حيدر

(٢) أن منازعات الامراء في ذلك العهد اشبه شيء بالحروب التي وقعت في كثير من البلدان بين الملك والمطالبين بالعرش من ذوي قرباه . فقد حصل مثل ذلك في انكلترا في الجيل السابع عشر وفي اسبانيا سنة ١٨٧٥ وكانت اشد القلاقل من هذا القبيل في فرنسا بين المطالبين بالامبراطورية والمطالبين بالملكية مما حمل حكومة الجمهورية على سن شرعة النفي في ١١ حزيران سنة ١٨٨٦ وهي تتناول جميع الامراء المطالبين بالعرش سواء كانوا من الامبراطوريين او من الملكيين ، حتى ان الحكومة الافرنسية اضطرت في اوائل هذه الحرب الى منع الدوق دورليان المطالب بالملكية من التطوع في الجيش الافرنسي

الكلمة النافذة بين ولاتها والمرجع الذي يرجعون اليه في ملماتهم . وكان اذا حدثت مشاكل وثورات في البلاد وطلب منه تفريجها وقمعها ، اغنت هيبته وسطوة جيشه اللبناني عن الحرب والقتال :

من ذلك ان الامير عبدالله بن مسعود الوهابي التميمي قدم سنة ١٨١٠ من الحجاز الى حوران غازياً فتصدى له يوسف باشا والي دمشق و كتب في الامر الى سليمان باشا والي عكا وقد استكبر الواليان قوة الوهابي فاستنجد والي عكا بالامير . فابى الامير طلبه وقام من دير القمر بخمسة عشر الفاً من رجال البلاد ونزل الى جزين ومنها الى مرج عيون ؛ فلاقته عساكر الوالي الى خان المنى ضاربين قدامه بالطبول والزمور ومطلقين البارود حتى وصل الى جانب طبريا ونزل في الخيام التي ضربت له وكانت نحو اربعمائة خيمة . واذ علم الوهابيون بذلك رجعوا عن تلك الديار خاسرين (١)

وعلى أثر ذلك اسرّ سليمان باشا المذكور الى الامير ان

(١) الشدياق ص ٤٨٢ والغرر ص ٩١٢

اتاه فرمان الولاية على دمشق ويخاف ان واليها يوسف باشا لايسلمها طوعاً، وهو كثير المال والرجال، فان رضي الامير ان ينجده على والي دمشق سار اليها، والاّ رد الفرمان الى الدولة. فوعده الامير بالمساعدة. وفعلاً ساروا الى دمشق حتى اذا بلغوها حضر اليهما وفدٌ من اعيانها، فقال لهم الامير: «خيرٌ لكم ان تسلموا لسليمان باشا والا فسأجلب عليكم عساكر مثل قطع الغمام ولا احول حتى اسلمه المدينة ولو خراباً، فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا من عندكم ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة». ولما رأى الدماشقة توارد عساكر لبنان اضطربوا وطلبوا المهلة ثلاثة ايام. وعلى أثرها ابى والي دمشق التسليم فحاربهُ الامير وسليمان باشا فكسراه ودخل الامير وسليمان باشا دمشق ظافرين فالتقاهما الدماشقة بالتعظيم والاجلال (١)

وسنة ١٨٣٠ طلب الوزير عبدالله باشا والي عكا معونة الامير لفتح قلعة شانور تأديباً للنابلسيين وكانوا قد شقوا عصا الطاعة، وكان عبدالله باشا صديقاً للامير. فأحب الامير ان يساعده فعيّ جيشاً لبنانياً ونهض بهم من الاولي الى

(١) الشدياق ص ٤٨٥

عكا وابقى ولده الامير امين في لبنان فالتقاه الوزير بالموسيقى والعساكر اجلالاً وتعظيماً ثم سار الامير بجيشه وضرب الحصار على القلعة فوقع الرعب في قلوب النابلسيين وبدأوا يسلمون له فئة فئة

اما الوزير فاشتد ساعده باللبنانيين فاستدعى مشايخ نابلوس الذين كانوا عنده في عكا واخذ يتهددهم قائلاً لهم : « اما تعلمون ان رجال الامير اللبنانيين مشهورون بالشجاعة والبطش ؛ واميرهم هذا ما سار في مهمة الا وايده الله فيها ونصره على الاعداء . . اما سمعتم في قرية عرطوز كيف شتت عساكر يوسف باشا الكردي والي دمشق وكيف ظفر بعساكر درويش باشا في ريشيا وهزمهم الى دمشق ، وكيف ظفر في واقعة المزة ، وكيف شتت شمل عساكر المختارة . فلما سمع المشايخ كلامه ارتعدوا وجعلوا يعتذرون اليه قائلين : ان ما فعله اصحابنا في نابلس لم يكن بعلمنا اصلاً . . . »

ثم عادوا الى المدينة وتخابروا بامر الصلح ولم يلبثوا ان سلموا القلعة . فكتب الوزير الى الامير امين يبشره بفتح القلعة وهدمها ، « ويخبره ان ذلك من همة الامير

بشير والده » (١) الى غير ذلك مما يطول شرحه ويثبت ما كان للبنان من الاستقلال في سوريا ومن السطوة بين حكامها .

ومما يروى عن إباء الامير وتخوته انه اجتمع يوماً بشريف باشا احد وزراء الدولة فسأله الباشا متهكماً : من اين إمارتك ؟ فاجابه الامير : إمارتي من سيفي هذا . فاغتاظ شريف باشا ولم يجب (٢)

ولم يكتف الامير بما ناله من الاستقلال الداخلي بل بات يعلل النفس بتحقيق الغاية الوطنية الكبرى من نزع السيادة العثمانية عن البلاد . ولم تخف نوايا الامير ومطامحه على من جعلت لهم الظروف علاقة بلبنان ، منهم قائد عصره ومعجزة زمانه بونابرت

---

(١) الشدياق ص ٥٦٥

(٢) *Mémoires de Napoléon* T. II. p. 175 & s,

حملة بونابرت على سوريا (١)

خرج ذلك القائد من احشاء الثورة الكبرى صغيراً ثم طغى عليها تيار بطشه فأغرقها في بحر قوته ومجده وكاد يتملك العالم لولا ان الطبيعة والكوائن غالبته فغلبته

سير على مصر حملته المشهورة فظفر بجيشها ومماليكها « فاطلت من الاهرام اربعون جيلاً تعجب به وبابطاله » .

وبعد تدويخ مصر ، زحف على سوريا فتساقطت امامه قلاعها الواحدة تلو الاخرى حتى وصل الى اسوار عكا فعانده فيها القدر فلم يُتح له ان يفتحها « فيغير وجه العالم »

لم يكن بونابرت يجهل ما كان بين فرنسا ولبنان من الصلات وما في قلوب اللبنانيين من المنزلة والمحبة للفرنسيين كما انه كان يعلم ما كان عليه لبنان من القوة والمنعة (٢)

ولم يفت بونابرت ، من جهة أخرى ، ان الامير بشير وقومه كانوا يسعون لتوسيع حدودهم ويطمحون الى

---

(١) الشدياق ص ٥٧٧

(٢) ورد في تاريخ الدولة العثمانية للفيكونت دي لاجونكيار ج ١ ص ٣٢٣ ان لبنان كان بامكانه يومئذ تجريد اربعين الف مقاتل

نزع سيادة الدولة عنهم ، وان بين الامير والجزار ضغائن لاينساها الامير خصوصاً بعد اغتصاب الجزار مدينة بيروت غدراً ولؤماً .

فلما وصل بونابرت الى ابواب عكا بادر الى مخابرة الامير بشير كما تخابر البلاد المستقلة ، فانفذ اليه مع « الكولونل سبستياني » (١) كتاباً ودياً بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٧٩٩ يخبره فيه بقدومه ويبلغه اعتماده على مساعدته واعداً اياه بانالته مبتغاه من توسيع حدود لبنان ورد بيروت اليه مع مدن أخرى تلزم لتجارته . وختم بونابرت كتابه بقوله : « واود انك في اسرع ما يمكن تأتي انت اوترسل من قبلك من تعتمده ليقابلني هنا امام عكا حتى نتخذ الاحتياطات اللازمة للقضاء على العدو المشترك » (٢)

ولو لم يسمع الامير الا داعي ميوله ولو لم يصخ الا الى صوت قومه ونزعة عواطفهم ، لبادر الى معسكر بونابرت ولتألب اليه ابطال اللبنانيين نجدة للجيش الافرنسي كما فعل اجدادهم من قبلهم يوم هبطوا من جبالهم ينيفون

(١) مذكرات عن سوريا : لشاهد عيان ص ٩٤

(٢) البارون دي تستا : مجموعة المعاهدات الدولية ج ٢

على ٢٥ الف مقاتل بامرة الامير سمعان نجدةً للملك لويس التاسع واتوه في ذلك المكان نفسه تحت اسوار عكا

الا ان الامير رأى نفسه مضطراً ال عدم الاندفاع والتسرع لعلمه ان قلعة عكا حصن منيع قد يتعذر على القائد الفتى فتحهُ رغم مقدرته وبسالة جيشه .

ولعله أخذ على بونابرت انه لم يعده بالاستقلال التام فلم ير ان يقامر بمركزه . وغاية ماقد يناله في حالة الانتصار على الدولة هو ان يبدل سيادتها بسيادة فرنسا عليه ، فيسد اذ ذاك في وجههِ باب الامل بالوصول يوماً الى الاستقلال المطلق ، وفرنسا على ما هي عليه من القوة ، في حين ان باب الرجاء يظل مفتوحاً امامهُ على مصراعيه اذا بقي الامر بينه وبين تركيا وعلامات الهرم والانحلال بادية عليها لكل ذي بصيرة

ورأى من جهة اخرى ان المراكب الانكليزية تملأ البحر وهي تمد القلعة بالميرة والذخيرة وتضرب بمدافعها الجيش الافرنسي المرابط امام عكا . وان للاميرال الانكليزي سميث سلطاناً على البحر لا ينازعه فيه منازع

فأيقن الامير والحالة هذه انهُ اذا انجد بونابرت ولم يبسم

له النصر فالجيش الافرنسي يعود من حيث اتى وتدور الدائرة على لبنان واستقلاله . وهذا ما حصل فعلًا الامير بشير نفسه بعد اربعين سنة من ذلك التاريخ حين خاطر بقوته وبامارته متحداً مع محمدعلي وفرنسا على الدولة . فقد أرغم يومئذٍ محمد علي على ترك سوريا فتركها ، وأهمل الامير كما اهملته فرنسا ، فكانت النتيجة ان فرنسا لم تنل بضر ولم تصب بمكروه ، وظل لمحمد علي سرير مصر ، الا ان الدائرة دارت على الامير بشير وحده فخلع من الامارة وانهار بعده صرح الاستقلال في لبنان

وقد ادرك بونابرت حرج موقف الامير فاكتفى منه بملازمة الحياد وبعدم الميل عليه مع الجزار ، واثباتاً لعذره له في حياده اهدى اليه بندقية ثمينة عربون المودة والصداقة

وكان الجزار في الوقت نفسه يراسل الامير ويستحثه على النهوض بجيشه لانجاده محاولا اقناعه تارة بالوعد وطوراً بالوعيد ، فلم يغتر الامير بوعده ولم يعبأ بوعيده . فأبى مساعدته باي نوع كان . فوجد عليه الجزار طول حياته . فلقي لبنان من جراء ذلك ويلات ومحناً شديدة لا محل

لذكرها وهي في سبيل فرنسا .

وقد ظل الامير يرقب مجرى الامور عاطفاً كل العطف على جيش بونابرت وباذلاً له ما استطاع من المساعدات

ومما يؤثر عن اللبنانيين في هذا الصدد ان قافلة كانت سائرة على طريق عكا تحمل من بكفيا خمراً الى الجيش الافرنسي فقطعت رجال الجزار عليها الطريق وبلغ الخبر اللبنانيين فهبطوا الى السهل مبادرين ونكلوا برجال الجزار وحرقوا قراهم (١)

بعد جلاء الفرنسيين عن سوريا

كانت الثورة الافرنسية قد نشرت مبادئها الحرة في العالم فزعزعت العروش وهاجت في الامم عاطفة الاستقلال واوجدت نزوعاً الى تفكيك قيود الظلم وتكسير اغلال العبودية . وقد ساعد على نشر تلك المبادي في تركيا ضعف الدولة وانحطاط قوتها ، فأخذ عقد ذلك الملك الشاسع ينفرط حبةً حبةً : فانتزع محمد علي مصر من يد السلطان سليم الثالث (١٨٠٥) وثار الوهابيون في العربية ثورتهم المشهورة

---

(١) (الشدياق ص ٤٩٤

سنة ١٨١٣ . وكانت نيران الثورة تشتعل في صربيا ، بينما دعاة الاستقلال في بلاد اليونان امثال « ايبسيلنتي » و « كاناريس » و « كوندوريوتيس » يستنفرون قومهم على غزاتهم الاتراك سعياً الى الانعتاق من ربقة الفاتحين على ما مرَّ بك

تلك كانت احوال الشعوب في تركيا من توترٍ في الاعصاب وغليانٍ في الصدور في الوقت الذي تلا جلاء الحملة الافرنسية عن عكا وسوريا

وكان الامير بشير في تلك الاثناء ، يواصل مساعيه الوطنية رغم مناوءات الجزار له . وقد آتته الظروف فتمكن بدهائه وحسن سياسته من حمل الدولة على الاعتراف له بسلطانٍ يمتد رواقه على جبل لبنان ووادي التيم وبلاد بعلبك وبلاد البقاع وبلاد المتاولة . وقد نال من وزير الدولة يوسف ضياء باشا وعداً صريحاً بان تلك البلاد تبقى دائماً ضمن امارته ولا يكون للوزراء تسلط عليه

وقد قضى الامير كل مدة حكمه وهو لا يعرف للتعصب الديني معنى فكان مدبروه واعوانه واخصاؤه وحاشيته من كل الطوائف على السواء تكفيه منهم

الكفائة واللياقة ، كما كان الامر على عهد فخر الدين الكبير .

ومما يذكر له في هذه الصدد ان دروز الجبل الاعلى قرب حلب استغاثوا به سنه ١٨١١ فاحضر منهم عائلات كثيرة الى لبنان واسكنهم فيه واغدق عليهم . وفي ذلك يقول سيادة الدبس : « سنة ١٨١١ ارسل دروز الجبل الاعلى يستنجدن الامير بشير على اعدائهم فارسل اليهم فارس الشدياق بجماعة ، وارسل الشيخ بشير جنبلاط رجلاً من الدروز اسمه حسون بدر ، فحضر معهم الى لبنان اربعماية عائلة من الدروز وانعم الامير عليهم بمئة الف قرش واسكنهم بين الدروز في لبنان »(١)

وكان له ميل الى الادب وعطف خاص على الادباء فجعل في خدمته المعلم بطرس كرامه الذي يمكن تلقيبه « بشاعر الامير »

ومن مآثره انه بنى جسر نهر الكلب وكان قد تهدم وبنى جسراً على نهر الصفا وجسراً على نهر الدامور .

ومما جلد ذكره سراي بيت الدين وماؤها : فقد

(١) الدبس : تاريخ سوريا ج ٨ عد ١٠٩٥

شيد البراي انة في الفخامة والاتقان ، فعدت على حق معجزة ذلك الزمان . وقد افاض في وصفها المسيو دي لامرتين في رحلته الى الشرق والكولونل تشرشل في كتابه عن جبل لبنان . (١)

وقد شهرت السراي باسم الامير كما عرفت فرسايل باسم لويس الرابع عشر . وقد كانت السراي بما فيها من خير وسعة ضيافة وبمن فيها من جند واعوان وكتبة وخدم وعبيد ، تحاكي قصور الملوك ابهة وجلالا ، حتى اذا تمثلتها وقد جلس الامير في قاعتها تحف به اعيان البلاد وشاعره ينشد بين يديه القصائد ، لدى كل مأثرة او موقعة ، مر في خاطرك ذكر عهد الخلفاء العباسيين في بغداد .

ولم يكن في بيت الدين ما كافٍ ، فلم يصعب على همة الامير ان يجلبه من مسافة شاسعة بعد عناء دام ثلاث سنوات ، لبعد المسافة ووعرة المسالك ووقوف الشغل في فصل الشتاء ، فعد عمله في ذلك العهد « فتحاً عظيماً » . وفي ذلك يقول صاحب الغرر : « انه كان في دار الامير من

---

(١) لامرتين : رحلته الى الشرق ج ١ ص ١٨٧
تشرشل : ج ٣ ص ٨٦٣

الاعوان المقيمين ببابه نحو ٣٠٠٠ رجل ، عدا الخيل والبغال ونظائرها . فلم يكن الماء يكفي هؤلاء الشاربين فضلاً عن غيرهم من زائر وطارق وذي حاجة. فكلف الامير رجلاً اسمه خليل عطيه ان ينظر اذا كان جر المياه ممكناً. فوجد خليل عطيه الماء على مسافة ثلاث ساعات ، في عين زحلتا من ينبوع يقال له ينبوع القاع بجانب نهر الصفا ، فعرض للامير فأمر الامير بجر المياه وبوشر العمل حالاً . وكان جميع اهالي البلاد تحضر كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير اجرة اكراماً للامير . وظل الشغل فيها ٢٢ شهراً تماماً حتى وصلت المياه الى السراي. وكان ذلك فتحاً عظيماً لم يقدر عليه احد من اسلافه لبعد المسافة وعسر المكان . وقد انفق على ذلك ما ينيف على المائتي الف درهم . » (١)

وقد اثار نجاح الامير وعلو مكانته حقد ولاة سوريا وحسدهم ، فباتوا يناوئونه ويغتنمون كل فرصة لاثارة الفتن في لبنان وتأييد الاحزاب وبذر بذور التفريق والشقاق ، فنجحوا في مهمتهم فكان ما كان من المنازعات

(١) الغرر ص ٩٢٨ وما يليها

والقلاقل والقتال بين الامير بشير وذويه من الامراء المطالبين بالحكم ، وبينه وبين الشيخ بشير جنبلاط ، مما ادى الى مظالم واضطهادات لا تخلو منها امثال هذه الحوادث ، فكان ذلك سبباً في تأخر البلاد واضعافها ، وهو غاية ما كانت تسعى اليه تركيا وولاتها في سوريا

ولم يكتفوا بايجاد القلاقل في لبنان بل اخذوا يسعون بالامير بشير الى الدولة متخذين ما بلغه من الجاه وبسطة الملك سبباً في اثارة هواجسها حتى تمكنوا من بلوغ غايتهم

فاضمرت الدولة الشر للامير كما كانت اضمرته لفخر الدين من قبله يوم شمرت بازدياد قوته وتعاظم شأنه . فلم يخف على الامير انقلاب الدولة عليه ورغبتها في الايقاع به فرأى من الحكمة ان يسعى ، كما سعى فخر الدين قبله ، لايجاد حليف يعضده فلم يلق اقرب اليه من محمد علي عزيز مصر . فسافر الامير الى القطر المصري سنة ١٨٢٢ ومعه ولداه الامير ان خليل وامين و٩٤ رجلاً من خواصه وحاشيته

• • • •

محمد علي والامير

رجلان ملاءا اسمهما في مصر وسوريا تاريخ النصف الاول من القرن التاسع عشر : ذلك ألباني الاصل عصامي طمح الى المجد فانتزع مصر من يد صاحبها واقام فيها سرير ملكه على انقاض عرش سلطانها ساعدته «القوة» فاعترف له بالملك وبحق الارث لابنائه .

وهذا لبناني كريم وامير جليل يرجع مجد احسابه الى قبل الاسلام . لم يوجد الامارة اللبنانية من العدم ولم ينتزعها من يد احد ، بل تابع بجلوسه على منصتها سلسلة امراء كرام وطدوا دعائمها ووحدوا حكومتها . الا ان «القوة» لم تساعد الامير كما ساعدت « محمد علي » فكان ذلك سبباً كافياً لخلعه وامتهانه ، لم تشفع به امارته وحسبه وجلال شيخوخته ومقام بلاده

ولعل في المبادي الشريفة التي انتجتها هذه الحرب ضماناً لسيادة الحق ؛ لانه حق ، بصرف النظر عما يكون في خدمته من قوة تؤيده .. اذ ذاك يطلق لبنان من قوده ويعترف للبنانيين بكيانهم وحقوقهم ...

كانت شهرة الامير قد سبقته الى بلاد العزيز فلما بلغ القطر المصري احسن محمد علي استقباله واكرم وفادته وقال له : « انه لم يدخل على مصر اعز منك » (١) وقد وضع في خدمته ما شاء له الكرم من المال والرجال والخيل والجياد اجلالاً لمقام ضيفه الكريم

وقد كان لمحمد علي مطامع بسوريا ورغبة بضمها الى مصر فكان يهمه كثيراً ان يحالف رجلاً في سوريا له ما للامير من القوة والسطوة

وقد كان لهما محادثات طويلة في هذا الشأن ادت بهما الى الاتفاق على ان ينجد الامير الجيش المصري في حملته ، ويقر محمد علي الامير على امارته في لبنان

وقد ذكر صاحب الغرر شيئاً من ذلك قال :

« بعد بضعة ايام حضر العزيز من شبرا الى القلعة فاستدعى اليه جميع العلماء وقواد الجند وامر باحضار الامير فحضر واستقبله العزيز بكل ترحاب وامر له بالجلوس وشرب القهوة واخذ يلاطفه بالحديث ، ثم صرف الحاضرين وامر ببقاء الامير واسر اليه جميع ما يرغبه منه من الخدمة في

(١) الشدياق ص ٥٣٦

جبل لبنان عند الحاجة لانه كان عازماً على تملك بلاد الشام بالسيف »(١)

وكان لابد للعزيز قبل اتمام عزمه من اصلاح ذات البين بين الدولة والامير من جهة ، وبينها وبين عبدالله باشا والي عكا صديق الامير من جهة اخرى ، حتى اذا تم ذلك عاد الامير الى لبنان لا ينازعه في الامارة منازع . فاهتم محمد علي بالامر لدى الباب العالي حتى تم له ما اراد

«فلما بلغ الخبر الامير استأذن بالسفر فاجابه العزيز اني اريد بقاءك مدة عندي لانك بمنزلة ابني ابرهيم وكل ما فعلته نحو عبد الله باشا من الجميل فهو لاجل خاطرك . فشكر له الامير تلطفه وودعه وسافر بالعز والاقبال ، وقد مر في طريقه على عكا . فاستقبله عبد الله باشا كما تستقبل الملوك فخرج الى لقائه باكابر دولته والمدينة برهج عظيم واطلقت له المدافع . (٢)

---

(١) الغرر ص ١٠٠١ وما يليها

(٢) الشدياق ص ٥٤١

وبعد بضعة ايام قضاها الامير في ضيافة عبد الله باشا عاد الى لبنان واستلم الحكم فيه على اشد ما كان عليه من العز والسطوة .

الحملة المصرية على سوريا

سنة ١٨٣١ اغتنم محمد علي اول فرصة عرضت له ، فتشبث بها لاتمام نواياه فجهز جيشاً ضخماً وارسله لفتح سوريا بأمرة ولده ابراهيم باشا

وبناء على الاتفاق الذي عقد بين محمد علي والامير أنجد الامير الجيش المصري برجاله ، فحارب اللبنانيون عساكر الدولة حرب الابطال وقد كان لهم يد جلى في كثير من انتصارات ابراهيم باشا ، كما شهد بذلك قنصل الروسية فيما بعد . (١)

وقد ظل الامير في ذلك العهد كما كان قبله ، عزيز السلطان واسع السطوة كما يتبين ذلك مما كتبه عنه المسيو دي لامرتين في كتاب رحلته الى الشرق (٢)

---

(١) انظر كلامه في ما يلي ص ١٨٦

(٢) زار لامرتين الامير في سراياه سنة ١٨٣٢ وقص ذلك في

ولم يقتصر حكم الامير في عهد المصريين على لبنان والبقاع بل تعداه الى ايالة صيدا ، فقد جاء في الغرر الحسان ص ١٠٢٢ عن حوادث سنة ١٨٣١ ما حكايته : « وفي اثناء ذلك كتب العزيز الى ولده ابراهيم باشا ان يفوض الى الامير معاطاة احكام ايالة صيدا وان يكون تعيين جمع المتسلمين

كتاب رحلته المذكور حيث جاء ما ترجمة بعضه ملخصاً :

«قصدنا دير القمر «بيت الدين» حيث سراي الامير بشير حاكم جبل لبنان .

بعد ان نتهينا من الغداء ارسل الامير الينا يقول انه بانتظارنا . فدخلنا باحة فسيحة تزينها فسقيات ، ومررنا في رواق قامت على جانبه اعمدة عالية مرتكزة على الارض تحمل سقف السراي

وكان يملأ نصف القاعة كتبة يلبسون «الغنابيز» الطويلة وفي زنار كل منهم دواة مذهبة يشكونها فيه مثل الخنجر ، وبعض من ابناء البلاد لابسين ثياباً فاخرة وحاملون اساحة صقيلة ، . وكان نفر من العبيد يرقبون اوامر سيدهم . وهنا رأينا بعض من الضباط المصريين . وكان النصف الثاني من القاعة أعلى قليلاً من القسم الاول وعلى دائره ديوان من الخمل الاحمر الفاخر . وكان الامير متربعاً في زاوية الديوان وهو شيخ جميل الطلعة ذو عين براقة ، تلوح عليه سيماء الراحة والنشاط ذو لحية و خطها الشيب مسترسلة على صدره ، وكان مرتدياً «غنباز» ابيض يشده زنار من الكشمير وهو يحمل فيه خنجراً كبيراً ظهر

واصحاب المقاطعات منه »

الا ان ابراهيم باشا ، بعد ان استتب له الامر في سوريا ، لم يحسن معاملة اللبنانيين كما كانوا يأملون ؛ ولعله خفي عليه صحة موقفهم من انهم شعب حي ماحاربوا معه

مقبضه بين ثنايا الغيار ، يزينه قبضة مرصعة بالحجارة الكريمة وهي بحجم البرتقالة

فابتدرناه السلام على الطريقة المتبعة في البلاد بان رفعنا يدنا الى جبهتنا ثم وضعناها على جبة القلب . فرد علينا السلام بأدب وابتسامة واشار علينا ان نقترب ونجلس بجانبه على الديوان . وكان ثمة مترجم راكع بيننا وبينه .

فابتدأت الحديث مظهراً ارتياحي الى زيارة تلك البلاد التي كان يحكمها بحزم وكفاءة عظيمين . ومما قلته له ان وجودي هنالك هو ابلغ مدح لحسن ادارته ، فان ما يجده المسافر من أمن في الطريق وغنى في الزراعة ونظام وسلام في المدن ، لاكبر وشاهد على قدرة الامير وحنكته . فشكرني واخذ يطرح علي اسئلة شتى فيما خص حوال اوربا ، خصوصاً ما كان له علاقة منها بسياسة اوربا في حرب الدولة ومصر ، مما اثبت لي اهتمام الامير الزائد بتلك المسئلة ودأبي على معارفه وفهمه للامور ، مما قد لا تجد مثله بين امراء الشرق .

ثم قدموا لنا القهوة والنارجيلون مرارا وطال بنا الحديث ساعة من الزمن . ولقد راعني ما وجدته في ذلك الشيخ من الحكمة والفهم والهيبة والجلال »

جيوش الدولة على سبيل الطاعة العمياء للامير بشير ، بل سعياً لغاية وضعوها نصب اعينهم ألا وهي : نيل الحرية المطلقة

ولما رأى اللبنانيون ان آمالهم بالدولة المصرية لم تتحقق وانهم ما خرجوا من سيادة الاتراك الا ليقعوا تحت سيادة أخرى ، هاجت في صدورهم حمية الاباء والجدود فهبوا غاضبين لحريتهم ثائرين لشهدائهم الذين قتلوا عبثاً في نجدتهم لعساكر المصريين

ومما زاد في نفورهم ان ابراهيم باشا اراد ان ينزع السلاح منهم ، وهو امر يخالف تقاليد البلاد وعادات اهلها ، فأبوا الامتثال للامر ، فتمكن ابراهيم باشا من نزع سلاح السوريين « لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين » (١) فكان ذلك من العوامل التي وسعت شقة الخلاف بين المصريين واللبنانيين

وفي تلك الاثناء كان المستر « ريشارد وود » مندوب الحكومة الانكليزية في سوريا ، فشعر بغليان الافكار وعرف ما يريده اللبنانيون فوعدهم باسم حكومته ان

(١) جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ٢ ص ٢٤٣

اوربا تعترف لهم رسمياً بامتيازات لبنان وتقرهم عليها كلها اذاهم ساعدوا على طرد المصريين. وقد ذكر ذلك الفيكونت دي لاجونكيار في تاريخه عن الدولة العثمانية واثبته مطولا المسيو «دي ملفيل» في خطابه في مجلس النواب في جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦. (١) واقر به المستر «وود» نفسه في كتاب ارسله الى نجيب باشا في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨٤١ حيث جاء «انه وعدهم بدوام تمتعهم التام بحريتهم الشخصية وبحقوقهم وامتيازاتهم القديمة مكافأة لهم على خدماتهم العسكرية» (٢)

فلم يحجم اللبنانيون والحالة هذه عن القول بمساعدة تركيا فاجتمع الدروز والنصارى واضرموا نار الثورة في البلاد واقسموا انهم يحاربون المصريين كما حاربوا الاتراك في سبيل حرية بلادهم وكيان امتهم. وقد اعلنوا انهم يقومون كما قام رجال الثورة الافرنسية الكبرى، ولا يرجعون

---

(١) دي لاجونكيار: تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ٤٣١
مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان تعريب المرحومين فيليب وفريد الخازن ج ١ عدد ٢٩ الى

(٢) مجموعة المحررات ج ١ ص ٧٢

حتى ينالوا ما ناله اليونان حديثاً من تكسير القيود وبلوغ الاستقلال .

واليك شيئاً من المستندات الرسمية التي تثبت ماتقدم

في ٨ حزيران سنة ١٨٤٠ اجتمع اللبنانيون من دروز ونصارى في انطلياس ووقعوا اتفاقية جاء فيها : « انه في يوم تاريخه قد حضرنا الى مارى الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا به بوجه العموم من دروز ونصارى ومتاولة واعلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى ، وقسمنا يمين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضر احد منا كائناً من يكون . القول واحد والرأي واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدث منا ادنى خلل نكون بارين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والحظوظ الخمسة وتكون نساؤنا طالقات من السبعة مذاهب ومحرمة علينا من كافة الوجوه . وايضاً يشهد علينا ماري الياس ويكون خصمنا . وقد اقمنا علينا شيخاً جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا . ونحن جمهور النصارى الذي نحن منا يكون ماري الياس خصمه ولا

يكون له موتة على دين المسيح ..»

وفي اليوم عينه نشر الثوار اللبنانيون على اخوانهم نشرة سردوا فيها دواعي نهضتهم وثورتهم على الحكومة المصرية واستفزوهم الى القتال في سبيل استعادة حريتهم واستقلالهم . ومما جاء فيها قولهم : « ان سكان لبنان رغم ما هم فيه من الانفة وروح الاستقلال احتملوا بصبر مظالم السلطة الجائرة مراعاةً لخاطر الامير بشير الشهابي على امل ان يضمن لهم صبرُهم هذا حفظَ شرفهم وحريتهم وكيانهم ...

« فلترقد بسلام رفات اخواننا الذين ماتوا في سبيل الحرية فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسويين الذين عندما هُددوا بالاستئصال اذا لم يستسلموا فضلوا الموت فخاضوا غمار الوغى وقتلوا ١٥٠ الف رجل ... وبما ان الموت ينزل بالذين ينتظرونه جبناً في بيوتهم كما ينزل بالذين يقومون لرفع نير الظلم عنهم ، فلا تتردّدوا بل فلنتحد اتحاداً وثيقاً ولننهض بغير خوف فان الاستبداد الذي يهددنا هو على وشك ان يهدم وطننا .. ولنكن على يقين تام ان الندامة المتاخرة لا تنقذنا اذا لا سمح الله افترقنا او ترددنا لحظة طرف عن توحيد قوانا لاستعادة حريتنا . ولكي نسلك بحزم

وفقاً لما تقتضيه ظروف كهذه مطبقين عملنا على الحكمة والرزانة الجديرتين بشعب حر مثلنا ، يجب ان نعقد اجتماعاً من الرجال المعروفين بعلو المنزلة وسمو المدارك ، ويكون قوام هذه الجمعية خمسة رؤساء يُنتخبون باكثرية الاصوات في كل اقطاعة فيعقدون كلهم او بعضهم مجلساً في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة ويُنتق عشرة الآف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية المسددة نحو حريتنا ولتخصص الضرائب — التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم ننهض عليها — لشراء المؤن اللازمة للعشرة الآف مقاتل الذين سيقتدون ببسالة المكابيين وقد كان كل فرد منهم يحارب عشرة . فمن كان الحق بجانبه لا يُقهر . ويقتضي ان تكون روابط اعضاء هذا المجلس مع بعضهم متواصلة ليتسنى لنا اتخاذ التدابير العاجلة لحماية مواطنينا المحدق بهم الخطر وانقاذاً لانفسنا من العبودية والظلم . . . وقد سبق لليونان ان كانوا احسن قدوة لنا فحصلوا على حريتهم وكان الله معهم . وان اهالي دير القمر هم في مقدمة من تسلح للدفاع عن دعوانا المقدسة والعادلة ، فليسمع

نداؤهم الوطني في كل الانحاء .. اما نحن فان عزيمتنا وطيدة لا تتزعزع : فقد أقسمنا على استعادة استقلالنا او نموت في هذا السبيل ... » (١)

وقد راعت تلك الحركة الوطنية قناصل الدول فلم يتمالكوا من الاعجاب بنهضة اللبنانيين وبنبالة اخلاقهم وشهامتهم في الحرب :

قال المسيو باذيلي قنصل الروسية في بيروت في تقرير له الى المسيو بوتينيف مندوب الروسية في الاستانة بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ : « ان هذه الثورة لخطيرة لان اللبنانيين قد تجنبوا الاستسلام للسلب ، اقتصاراً منهم على مناهضة الحكومة دون ان يلحقوا اقل ضرر بالسكان ولقد رفع الثوار منذ ايام نشرةً الى قناصل الدول مجاهرين باحترامهم الاوربيين واعدين باجازة مرور المؤن اذا كانت مرفقة بتذكرة من القنصلية .. »

« وقد اعاد الثوار لقنصلية انكلترا اكياس المال المرسلة من دمشق وقد كانت نُهبت غلطاً مع اكياس الحكومة . ورأيت اثناء تجولي في ضواحي المدينة عدة

(١) مجموعة المحررات ج ١ عدد ٢ و٣

مئات من هؤلاء الثوار تعلو وجوههم سيماء العزم والسكون في حين كانت مدافع المدينة تطلق قنابلها على رفقائهم المحتشدين في اماكن اخرى .» (١)

وقد شهد القنصل المذكور ان الفضل باخضاع سوريا سنة ١٨٣٢ كان مرجعه الى اللبنانيين وان خروجهم على ابراهيم باشا سيؤول الى طرد المصريين من كل انحاء سوريا» قال حضرته :

«وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا في سنة ١٨٣٢ قد جرّ معه خضوع سوريا كلها فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائياً من هذه البلاد ...» (٢)

ولم يخفَ على محمد علي ما في تلك الثورة من الخطورة وما يترتب عليها من العواقب الوخيمة على جيشه في سوريا، فتملكه من جرائها غضب لا مزيد عليه حتى زين له اليأس ان يحاول ابادة الثائرين على بكرة ابيهم قبل مغادرة البلاد انتقاماً منهم. فعلم قنصل النمسا بنواياه فأقنعه بان لا يقدم

(١) مجموعة المحررات ج ١ عدد ٤

(٢) مجموعة المحررات ج ٢ عدد ٤ ص ٧

على شيء منها فيفقد عطف اوربا عليه

وقد تبسط في سرد تلك الحوادث كتبة ذلك العهد، منهم المسيو هنري هان في رسالته الى جريدة اجسبورج سنة ١٨٤٠ (١)

وقد تمّ ما تنبأ به المسيو بازيلي وتوقعه محمد علي، فغلب ابراهيم باشا واكره، على اثر تلك الثورة ونكبات متوالية نُكبت بها جيوشه، على التخلي عن سوريا كلها

اما الامير بشير فبات امام تلك الحوادث في مركز دقيق حرج لعهوده مع محمد علي من جهة ولاعتقاده من جهة أخرى ان فرنسا لا تتخلى عنهما، لا تسمح بضياع استقلال لبنان بعد ان جرى ما جرى بمعرفتها وموافقتها. لذلك لم يُصغِ الى ما عُرض عليه من المواعيد الطيبة له وللبلاد فراح ضحية وفائه واعتماده على حلفائه

وبيان ذلك ان في ١٤ اغسطس سنة ١٨٤٠ رست العمارة الانكليزية النمساوية العثمانية في بيروت بامرة الكومدور السر شارل نابيير لتأييد الجيش العثماني على ابراهيم باشا وخليفه الامير بشير. وثاني يوم وصول العمارة

(١) هنري هان: لوتس، رسالة ٢٥ تموز سنة ١٨٤٠ ص ٩٨

ارسل السر ريشار وود كتاباً سرياً الى الامير بشير يعده فيه بالمحافظة على استقلاله اذا هو تخلى عن محمد علي (١)

وفي تلك الاثناء كتب ايضاً السر عسكر العثماني سليم باشا الى الامير بشير يخاطبه بالتسليم وارسل له فرماناً مع مندوب يقول له : « ان سلمت للدولة قبل مرور ثمانية ايام تبقَ والياً كما كنتَ بل تكون الولاية لك ولذريتك من بعدك . » (٢) فلم تسمح للامير نخوته اللبنانية بالتخلي عن حليفه ساعة الشدة ، لا سيما وفرنسا تؤيده ، وعهدُ فرنسا مقدسٌ في لبنان . ففضلَ الامير ان يحفظ عهوده حتى التضحية . وهكذا كان : فقد اضطرت فرنسا يومئذٍ لاسباب لا محل لذكرها ، الى التخلي عن محمد علي وأسقط الملك « لويس فيليب » حكومة المسيو تيارس الذي كان يريد ان يؤيد بالقوة محمد علي وحليفه الامير بشير ؛ فخلفته حكومة على رأسها المارشال « سولت » ووزير خارجيتها المسيو « جيزو » وهما من طالبي السلم ومريديه على اي حال وبعد مخابرات ومراسلات طويلة تمّ الاتفاق بين

---

(١) مجلة العالمين مجموعة سنة ١٨٤١

(٢) الشدياق ص ٦٠٦

الدول على حفظ مركز محمد علي في مصر.. ولم تدر الدائرة الا على لبنان وعلى اميره الشيخ رغم كل تلك الضحايا التي تحملها اللبنانيون سواء في مساعدة المصريين على فتح سوريا او مساعدة الدولة على طرد المصريين ... واضطر الامير الكبير الى التخلي عن الامارة (١)

---

(١) على اثر ذلك نزل الامير بشير الى بيروت فخيره عزت باشا السر عسكر ان يختار دارا لاقامته ، فيما عدا بلاد فرنسا وسوريا ومصر ، فاختار جزيرة مالطه وسافر اليها

وفي سنة ١٨٤١ ارسل السلطان عبد المجيد فرماناً الى الامير بشير وخيره في الاقامة في مملكته ما عدا سوريا فقام الامير في اواخر ايلول من تلك السنة وسافر بمن معه الى اسلامبول حيث توفي سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٠ سنة

وكان الامير هيبة نادرة بقيت في البلاد مضرب مثل ، يدلك عليها الحادث الاتي :

في اليوم الثالث من قدوم الامير الى الاستانة ارسل رؤوف باشا الصدر الاعظم يدعوه الى الباب العالي وارسل له خيولا مزينة لركوبه مع ولاده .

الفصل الثالث

الامير بشير الثالث (١٨٤٢ — ١٨٤٠)

الحركة الاولى سنة ١٨٤١
مصطفى باشا نوري في لبنان

على اثر تلك الحوادث وما حصل في لبنان من اضطرابات وحروب أدت الى اضعافه، ظنت الدولة ان الوقت مناسب لالغاء امتيازات لبنان، فبدلاً من ان تفي بوعدها وتقر اللبنانيين على استقلالهم عزمت على الحاق لبنان بالولايات

وسأل ارباب الديوان الصدر : هل نقوم للامير في السلام فاجابهم لا نقوم له. فلما دخل الامير نهض الصدر الاعظم اجلالا ونهض الجميع فحياه الصدر واجلسه مجلس العظماء فتهيبه الجميع متعجبين مما كان. ثم استأذن الامير وانصرف، فقال بعض كبراء الديوان للصدر الاعظم : لماذا نهضتم للامير بعد امرتم بعدم القيام، فاجاب الصدر : ان في هذا الرجل قوة انهضتني ضد ارادتي فاني لم ار في حياتي هيبة في رجل مثل هذا فان كل ما قيل عنه في ذلك صدق. (الشدياق ص ٦١١ و ٦٢١ والغرر الحسان ص ١٠٥١)

واقامة وال تركي عليه

فلما شعر اللبنانيون بمقاصد الدولة نسوا ما بينهم من الاختلافات واتحدوا جميعاً على الذود عن حقوق بلادهم

وقد بلغ منهم الهياج مبلغاً حمل مندوبي الدول على تقديم النصح لتركيا بالعدول عن فكرتها، خصوصاً مندوب الحكومة الانكليزية السر ريشارد وود. فاضطرت الدولة الى اتباع النصح وابقاء الامارة اللبنانية على ما كانت عليه من الاستقلال وعليها امير شهابي. فاتفقت مع الدول على تعيين الامير بشير قاسم ملحم الشهابي (١) خلفاً للامير بشير الكبير واصدرت له فرماناً تاريخه ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ (٢)

غير ان رضى الدولة بالمحافظة على امتيازات لبنان وبابقاء الامارة للشهابيين لم يكن عن طيبة خاطر، فباتت تتحين الفرص وتجرب كل الوسائل للقضاء عليها فملأت اعمالها هذه كل تاريخ لبنان منذ سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ فكانت من ثم فتنة سنة ١٨٤١ ومحاولة تركيا على

---

١ هو الامير بشير بن قاسم بن ملحم بن حيدر

٢ مجموعة المحررات ج ١ عدد ١٥

اثرها تعيين علي باشا حاكماً على لبنان؛ ثم بعثة السر عسكر مصطفى نوري باشا الى لبنان واحتياله على خلع الامير بشير الثالث وتعيين عمر باشا النمساوي مما ادى الى ثورة البلاد واحتجاج الدول .

ثم بدعة القائقاميتين ثم فتنة سنة ١٨٤٥ وبعثة شكيب افندي ؛ ثم الحوادث المشؤومة المعروفة «بحركة سنة الستين»

الحركة الاولى (سنة ١٨٤١)

رأت الدولة انه مادام اللبنانيون متحدين رغم اختلاف طوائفهم فلا سبيل الى الحاقهم بالولايات فعمدت الى اثارة عواطف التعصب بين الدروز والنصارى ومازالت بهم حتى وقعت حوادث سنة ١٨٤١ وهي اول مرة عرف فيها اللبنانيون المنازعات الدينية والحروب الطائفية بعد ان عاش الدروز والنصارى في لبنان اخوان صفاء اجيالاً طوالاً ، وقد اثبتت المكاتبات الرسمية مسؤولية تركيا في حوادث لبنان ، وفي ايراد شيء منها كفاية

من ذلك مذكرة المستر وود الى نجيب باشا في ١٣٠ت١

سنة ١٨٤١ حيث جاء : « من المحقق ان السوريين عامة اصبحوا يعتقدون ان هذه الاعمال هي من الحكومة العثمانية ذاتها . » ثم استطرد الى ذكر سبب اعتقادهم هذا فقال : « ارى ان نزع السلاح من اهالي حاصبيا وراشيا وزحله في لبنان وانتيلبنان هو تعدٍ على حريتهم وامتيازاتهم ومغانمٌ تمام المغانمة للوعود الصريحة التي ابلغتهم اياها باسم الحضرة الشاهانية . » الى ان قال : « ان نزع السلاح من يد السوريين عامةً امرٌ مرغوب فيه ... بيد انا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحيي لبنان وانتيلبنان في حين انهُ سمح لسائر اتباع الباب العالي بحفظ اسلحتهم . » (١)

وجاء في نطاقة اجماعية انفذها كل من قنصل فرنسا وبريطانيا العظمى والروسية في بيروت الى سليم باشا في تشرين الثاني سنة ١٨٤١ « انه من الثابت ان الدروز امدّوا بذخائر وافرة مرسلة من دمشق رغم تنبيه القناصل المقيمين في هذه المدينة صاحب الدولة نجيب باشا تكراراً الى وجوب منعها . » (٢)

---

(١) المحررات ج ١ عدد ٤٢

(٢) المحررات ج ١ عدد ٤٥

الى آخر ما هنالك من الادلة والبراهين .. وقصد تركيا من هذه الفتن ان تثبت صحة دعواها من ان الامراء اللبنانيين عاجزون عن حكم البلاد فيتحتم فصلهم عن الامارة وابدالهم بوال تركي وادغام لبنان بالولايات

وبناء عليه قررت تعيين علي باشا والياً تركياً على الجبل. وقد كان السر ريشارد وود مسموع الكلمة لدى سوريا، فلما شعر بما تنويه الدولة علم ان تلك السياسة وخيمة العواقب لوقوفه على حقيقة اخلاق اللبنانيين وعلمه انهم مهما اختلفوا في مسائلهم الداخلية فهم لا يسمحون لاحد بمس امتيازاتهم، فكتب الى سليم باشا والي صيدا في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٤١ كتاباً يحذره فيه سوء العاقبة جاء فيه ما ترجمته :

« يجب ان تعتقد دولتكم جيداً ان الجبليين عموماً لا يسمحون ابداً ان يحكم لبنان باشا تركي لان ذلك ينافي امتيازاتهم القديمة التي اعترف بها الباب العالي وايدها مؤخراً . ومن المحتمل كثيراً ان يمانع اللبنانيون بتنصيب علي باشا فاذا حاربوه او طردوه من الجبل سقطت هيبة الباب العالي » (١)

---

(١) المحررات ج ٢ عدد ٤٠

مصطفى باشا نوري في لبنان

رأت الدولة ان تلك الطريقة لم تنجح فعمدت الى سواها ، فأرسلت الى لبنان مصطفى باشا نوري السرعسكر بدعوى تهدئة الحال واشارت عليه وعلى الولاة ان يلبسوا ثياب الحملان ويظهروا بمظهر الاشفاق على اللبنانيين ولبنان.

فوصل مصطفى باشا الى لبنان وارسل رسلاً في البلاد لاغواء اللبنانيين بقبول ولاية الدولة عليهم مُبينين لهم من جهة ان ذلك هو الدواء الوحيد لما في الصدور من حزازات وفي الطوائف من منازعات ، ومفيضين من جهة أخرى بشرح الفوائد التي يجنيها لبنان من اندغامه في دولة كبيرة عزيزة الجانب يكون لابنائه فيها متسع لاظهار كفاءتهم واقتدارهم بدلاً من انزوائهم في جبالهم وصخورهم الجرداء.

فلم تكن بهرجة البيان لتغرّ اولئك اللبنانيين الصميمين ذوي النفوس الشماء والوطنية الصحيحة فلم يتخلوا قيد شعرة عن امتيازاتهم ولم يفرطوا في شيء من حقوق بلادهم مفضلين حفظ كيانهم القومي في وطنهم اللبناني ، على كل امتصاب الدول وخيرات العالم ، عالمين ان حياتهم القومية

موقوفة على الاحتفاظ بمركز لبنان الخاص وبالوحدة اللبنانية التاريخية (١)

وقد ذكر الشدياق وهو شاهد عيان لتلك الحوادث وكان له فيها شأن : « ان اللبنانيين قدموا في احتجاجهم هذا معروضاً الى الدولة والى وكلاء الملوك الاربعة في اسلامبول . . وان مصطفى باشا اخذ يتملقهم ليرتضوا بولاية الدولة فابوا . . » (٢)

وكانت حوادث سنة ١٨٤١ قد زعزعت ثقة الاهالي بالامير بشير قاسم ملحم الشهابي فاغتنم مصطفى باشا المذكور هذه الفرصة فاستدعى الامير اليه وكلفه السفر الى الاستانة بدعوى التقرير عن حوادث تلك السنة المشؤومة . فسافر الامير ، واللبنانيون غافلون عما يراد بهم ، ومصطفى باشا يطمئنهم ويطيب خاطرهم نفياً للريب والشكوك حتى انه استدعى فريقاً منهم وطلب منهم ان يتفقوا على رجل يولى عليهم برضاهم

---

(١) وقد دعي اللبنانيون الى مثل ذلك على اثر اعلان الدستور العثماني فكان موقفهم سنة ١٩٠٩ كموقف ابائهم وجدودهم سنة ١٨٤١

(٢) الشدياق ص ٦٤٠

ولما آنس من الناس سكوناً واطمئناناً خلع عن جسمه ثوب الحمل وفاجأ اللبنانيين باقامة « عمرباشا » النمساوي العثماني حاكماً على الجبل بمقتضى فرمان تاريخه ١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٢ ، وارسله بعسكر الى بيت الدين

الفصل الرابع

عمر باشا في لبنان

(١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٢ = ايلول سنة ١٨٤٢) (١)

لم يكد يستلم عمر باشا حكومة الجبل حتى افاق اللبنانيون من غفلتهم وفهموا ان الضربة لم تكن للامير بشير قاسم شخصياً بل بالاحرى لاستقلال البلاد. فهاجت خواطرهم وقدموا « المعاريض » الى قناصل الدول محتجين على تولية حاكم أجنبي عليهم خلافاً للمعتاد من قديم الزمان وسرت من ثمّ في البلاد روحُ الثورة فبادر القناصل الى اطلاع سفرائهم في الاستانة على واقع الحال فخابر السفراء الباب العالي تلافياً للامر قبل استفحاله.

---

(١) عمر باشا نمساوي الاصل من كراوتيا . ولد سنة ١٨٠٦ من والدين ارثوذكسيين ثم لجأ الى الاشتاق حيث اعتنق الدين الاسلامي ثم دخل في الجندية العثمانية فبلغ فيها مرتبة سامية

من ذلك ما جاء في تعليمات المسيو ستراتفورد كانين سفير انكلترا في الاستانة الى المسيو بيزاني ترجمان السفارة الاول بتاريخ ٩ شباط سنة ١٨٤٢

« اتصل بنا ان الامير بشير قاسم عُزل فجأة بامر استبدادي .... وان السر عسكر مصطفى باشا عيّن باسمه مسلماً مكان الامراء عاهداً اليه بالسلطة المختصة بهم . وهو اليوم في دير القمر بصفة وال على لبنان مما لم يسبق له مثيل وذلك مناقض للوعود المسجلة وخارق للامتيازات المقررة منذ عدة قرون . واذا ثار اهالي الجبل واضطر السر عسكر الى استعمال القوة يزيد في غضبهم ؛ ويرجح ان حراجة موقفه تجعله ينشب في قتال تكون الارجحية فيه الى خصومه فيعرض شرف سلطانه لعار الانكسار ... » (١)

فاضطر صارم افندي ناظر الخارجية امام هذه الاحتجاجات ان يهدىء بال السفراء ، فابلغهم في ١٧ اذار سنة ١٨٤٢ « ان الباب العالي لا يتشبث ببقاء عمر باشا والياً على لبنان وانما كان تعيينه من قبل السر عسكر مراعاةً لظروف الحال وان الباب العالي قرر ان يرسل الى لبنان

(١) مجموعة المحررات ج ١ عدد ٤٨

سليم بك عاهداً اليه بالوقوف على حقيقة الحال وتقديم تقرير بذلك » (١)

وكان يقصد صارم افندي من ارسال سليم بك الى الجبل ذر الرماد في العيون وتسكين الخواطر ، لا تغيير سياسة الباب العالي فعلاً ، فلما وصل سليم بك الى لبنان اتفق مع مصطفى باشا على افساد الحقيقة واثبات ما يخالف الواقع فحصلا بالوعد والوعيد والترغيب والتهديد على عرائض وقعها بعض الاهالي يطلبون فيها تعيين والٍ تركي عليهم والتنازل عن امتيازاتهم وقد بلغ الامر بمصطفى باشا وسليم بك المذكورين انهما زورا اختاماً عديدة ليوهما ان الاغلبية في لبنان تطلب الانضمام الى الولايات وقد ارسلت هذه العرائض الى الباب العالي فعرف بها السفراء بطريقة غير رسمية فاستغربوا تنازل اللبنانيين عن استقلالهم وهم قد دافعوا عنه ابد الدهر ؛ كما ان صوت احتجاجهم على تعيين عمر باشا لم يكد يخفت بعد ، فلا يعقل ان ينقلب رأيهم بين عشية وضحاها ويصرحوا وهم يطلبون تولية من احتجوا عليه بالامس .

---

(١) مجموعة المحررات ج ١ عدد ٥٠

لذلك طلب السفراء من قناصلهم في بيروت ان يوافوهم بالاخبار الصحيحة عن احوال لبنان جلاء لتلك المناقضات. فبادر القناصل وارسل كل منهم تقريراً الى سفيره على غير سابق اتفاق بينهم ؛ واذا بالتقارير كلها مجمعة على ان الحقيقة هي ان اللبنانيين لا يرضون ابداً بالتنازل عن امتيازاتهم واستقلالهم وان العرائض التي ارسلت الى الباب العالي أخذ بعضها بالوعد والوعيد وزور منها البعض الاخر

على أثر ذلك اجتمع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا في ٢٧ ايار سنة ١٨٤٢ عند صارم افندي ناظر العدلية ومعه ظاهر باشا ناظر البحرية ، ولم يكن يعلم صارم افندي بما سبق للسفراء اتخاذه من الاحتياطات للوقوف على الحقيقة فأراد ان يسرد الحوادث على هواه ويفاجئهم بالعرائض تأييداً لسياسة الباب العالي ومنعاً لتدخل الدول في شؤون لبنان .

قال صارم افندي . « انه لما كانت قد حدثت اضطرابات في جبل لبنان رأى الباب العالي من الموافق ارسال السر عسكر مصطفى باشا الى ذلك الصوب منذ نحو ستة اشهر ووكل اليه الاشراف على حالة الشؤون واتخاذ

التدابير والتحوطات المناسبة فخلع السر عسكر الامير بشير قائم من منصبه وارسله الى الاستانة وولى مكانه عمر باشا وان ممثلي الدول الخمس احتجوا على عدم موافقة العمل وطلبوا ان يحسب هذا التعيين وقتياً وألحوا ايضاً بوجوب حفظ طريقة الاحكام القديمة ونصحوا الباب العالي ان يُعيد الحكم الى الاسرة الشهابية ، وانه على أثر هذه المساعي ابلغ هو الممثلين المشار اليهم اعتماده على ارسال مندوب الى سوريا مفوض بالتحري عن مجرى الامور حتى بعد عودته تتخذ طريقة الحكم الواجب وضعها في لبنان . وان سليم بك قام بالمهمة الموكولة اليه ورفع للباب العالي بياناً عن نتيجتها مشفوعاً باربع عرائض موقعة من المشايخ الموارنة وغيرهم من اهالي جبل لبنان . »

فلم تحدث تصريحات صارم افندي التأثير الذي كان ينتظره منها على السفراء بل رد عليه سفير انكلترا مفنداً زعمه ومبطلاً حجته ، قال السفير :

« ان البيانات التي انفذت اليه من سوريا مخالفة للتي تلقتها الحكومة العثمانية . وزاد ان تلك البيانات التي عنده تثبت ان العرائض التي ارسلها مصطفى باشا استحصلت بالوعد

والوعيد وان لديه ما يدعوه الى الاعتقاد ان رصفاءه تلقوا من قناصل دولهم رسائل مماثلة لهذه . فصدق سائر السفراء على قوله . »

« فاجاب ناظر الخارجية ان العرائض التي تليت في الجلسة تثبت صدق تقارير السر عسكر باشا ... فرد ممثلو الدول الخمس اقوال ناظر الخارجية باجماع القناصل على رواية واحدة ، واوضحوا للنظار العثمانيين ان العرائض التي تليت عليهم مقصورة على تواقيع قليلة وانه من المشهور انها أخذت بوسائل الارهاب والوعيد ... ثم قرىء كتاب مسهب يشتمل على تفاصيل وسائل التمليق والعنف التي التجىء اليها حمل بعض زعماء لبنان على توقيع العرائض المذكورة وابانوا لناظر الخارجية انه بدون الوسائل المار بيانها يتعذر التصديق ان اهالي جبل لبنان بدلوا رأيهم بهذه السرعة وتناسوا عادات قديمة وامتيازات هم شديدو التمسك بها حتى انه من برهة وجيزة طلبوا باجمعهم غير مرة بلهجة حازمة وباالحاح شديد حفظها . »

ثم قرأ وكيل سفارة النمسا ملخص رسالة سمو البرنس دي مترنيخ بتاريخ ١٧ ايار سنة ١٨٤٢ فاذا بها ترمي ايضاً

الى وجوب العودة الى طريقة الحكم القديم

ثم استأنف السفراء والنظار الكلام عن امتيازات اللبنانيين من قديم الزمان فاورد ممثلو الدول عدة ادلة معززة بشواهد تاريخية «ان السلاطين الاكثر بطشاً وشوكة قد طالما راعوا في ابان عزهم جانب اللبنانيين وامتيازاتهم»(١)

فلم يصغ الباب العالي الى نصح السفراء بل ابقى عمر باشا والياً في لبنان فبات هيجان الخواطر يزداد يوماً بعد يوم حتى اصبح الجبل كأنه الهشيم اليابس فلم تكد تقدح فيه شرارة صغيرة حتى اشتعلت جوانبه واندلع لهيبها في كل انحائه.

وقد كان ظهورها في كسروان حيث اتهم مشايخ بيت الدحداح بايقادها فحسبت الدولة بادىء ذي بدء ان الامر مقتصر على افراد معدودين يمكنها كبح جماحهم بالقوة واطفاء النار بسهولة، فارسلت في الحال عسكراً للقبض على الدحادحة فقاموا من وجهه الى الشمال فطاردهم العسكر

---

(١) ملخص المفاوضة التي دارت بين ناظر الخارجية العثمانية وممثلي الدول الخمس في الجلسة المعقودة في ٢٧ ايار سنة ١٨٢٤. عن مجموعة المحررات الرسمية ج ١ عدد ٥٥

حتى جبة بشراي ، وكان حديثهم قد سرى في البلاد وعرف اللبنانيون سبب فرارهم ولحاق الجند بهم ، فهب اهالي الشمال وفي مقدمتهم اهل اهدن وبشراي هبة الابطال غضاباً لقومهم وحريتهم فتصدوا للعسكر وانتشبت بينهم الحرب فظفروا بالعسكر وكسروه فولى الادبار منهزماً الى طرابلس وغنم اهالي الشمال خيلهم واسلحتهم وامتعتهم .

ومما يثبت ان ذلك الشعور الوطني لم يقصر على فريق من اللبنانيين دون فريق وعلى جهة دون اخرى هو ان الثورة لم تحصر في كسروان والشمال بل تعدتهما الى سائر انحاء الجبل : فما كاد يبلغ الدروز ما فعله اهالي جبة بشراي واهدن حتى هاجوا ايضاً طالبين حرب عمر باشا

فلما رأت الدولة ان الجبل كله في هياج وان الدروز والنصارى متحدون على خلع الحاكم التركي ، فهمت ان الامر خطير والموقف حرج فخشيت سوء العاقبة فتلافتها بان فصلت عمر باشا عن لبنان في ايلول سنة ١٨٤٢

ولم تقتصر على ذلك بل زادت في التودد الى اللبنانيين وفي مجاملتهم فعادت واعلنت ، تسكيناً للخواطر ، انها تعترف بحقوق اللبنانيين بانتخاب من يشؤن والياً عليهم

وقد ارسلت الى لبنان وكيلين من قبلهما يكتبان اسماء الذين يرشحهم اهل لبنان للامارة (١)

وهكذا انتهت ولاية عمر باشا على لبنان ، وهي وان لم تستمر الا بضعة اشهر غير انها كانت في الواقع فاتحة عهد جديد في حياة لبنان السياسية : ففقد الجبل منذ ذلك الحين « وحدة امارته » ونالت تركيا بعض غايتها فلم تبق في لبنان « أسرة مالكة » . وكان ذلك آخر عهد الشهابيين بالحكم في لبنان (٢)

---

(١) الشدياق ص ٦٤٢

(٢) وفي ذلك تقول العامة : « اولها بشير واخرها بشير » اشارة الى ان اول امير شهابي ولي على لبنان كان الامير بشير الاول واخرهم الامير بشير الثالث

الباب السابع

ابتداء عهد القائمقاميتين

٧ ك١ سنة ١٨٤٢ الى ٩ حزيران سنة ١٨٦١

بدعة القائمقاميتين . حوادث سنة ١٨٤٥

ثورة الاهالي في كسروان . حركة ١٨٦٠ . تدخل اوربا في لبنان

ذكرى وعبرة

اذا وقعت في بلدٍ حوادث خطيرة من فتن داخلية وحروب « اهلية » تبلبل حياة الامة ، فقد يتعذر على العامة من معاصري تلك الحوادث ومشاهديها مشاهدة عيانٍ ان يتبينوا اسبابها ويحكموا على مقدماتها ونتائجها حكماً صحيحاً ؛ فيكونون في الغالب عرضة للمؤثرات المحيطة بهم ؛ لا يرون من الحوادث الا حاضرها ضاربين صفحاً عن

مسبباتها وعاجزين عن الوصول الى نتائجها في حين ان لكل حادث مقدمات يترتب عليها وقوعه فتنتج عن وقوعه نتائج تجهلها العامة وقد لا تخفى على الخاصة . ومتى حصل ذلك تشبث الشعب بالعرض ونسي الجوهر فيضيع عن محجة الهدى ويعمى عن الحقيقة ، فيناله في حياته القومية ضرر قد لا تكفي الاجيال لازالته

وهذا ما حصل في لبنان في الفترة المنقضية بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ .

لم تر العامة يومئذٍ في تلك الحوادث الا ما وقع تحت اعينها ، ولم يقع تحت اعينها الا اقتتال بين الدروز والنصارى وسلسلة ملاحم سالت فيها الدماء انهاراً ، فاستنتجت العامة ان الدروز والمسيحيين هم بحكم الطبع اعداء لا يتفقون ، وسهي عن بالها انهم قبل ذلك العهد قد عاشوا الاجيال الطوال على اتم وفاق واصفى اخاء .

فاذا قرأ اليوم عقلاء اللبنانيين صفحة تلك الحوادث المشؤمة ، ومرت امام اعينهم في لمحة بصر مدة تلك السنين العشرين ، وهم بعيدون عن مؤثراتها ، خالون من

تبعتها ، راعتهم فظاعة ذلك الشرك الذي نصبتهُ الدسائس في لبنان ووقع فيه آباؤهم وجدودهم

واذا تبينوا اسباب تلك الحوادث وفقهوا مقدماتها ونظروا الى نتائجها ، وجدوا ان عليهم واجباً مقدساً لوطنهم : ان يصونوا يومهم عن امثالها ويدرأوا عن مستقبلهم شرّ الوقوع في فظائعها ، وليس من دواء لذلك الداء الا في قطع دابر الدسائس والتفريق .

والحكيم من احتاط بامسه ليومه وبيومه لغده ، فيعلم اللبنانيون قاطبة انهم ، وهم متضامنون في قوميتهم ، اصلب قناةً على الغامزين . وانهم ، وهم متفقون في بلادهم ، أبرّ ببعضهم من سواهم بهم . وانهم على كل حال اسلم عاقبة لوطنهم وأبقى .

فليطلع اللبنانيون على تلك الحوادث لا من حيث انها تعيد الى الذهن ذكرى مؤلمة ؛ بل من حيث هي امثولة رشيدة في عقبى التفريق المذهبي ونتيجة التحزب الديني ، فيقابلوا بين ضعف لبنان وهوانه بعد سنة ١٨٤٠ ، وبين عزّه وسلطانه قبل ذلك التاريخ . ويعلموا من جهة اخرى ان تدخل اوربا في لبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ لم

يغنهم عن التضامن شيئاً ، وان الداء اذا كان في النفوس فلا تفعل فيه المسكنات الخارجية .

تلك هي العبرة الكبرى التي تستخلص من سلسلة هذه الحوادث عظة وهدى للوطنيين المخلصين ! . .

الفصل الاول

اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ . الحركة الثانية سنة ١٨٤٥ .
شكيب افندي في لبنان

اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢

رأت الدولة بعد حادثة عمر باشا انه لا يسهل عليها ان تفهم فوراً والياً تركياً على لبنان فارجأت ذلك الى وقت انسب ، غير انها وضعت نصب عينيها غاية باتت محور سياستها في لبنان الا وهي نزع الحكم من الشهابيين . وقصدها من هذا العمل ان لا تبقى في الجبل « أسرة مالكة » تكون عنوان استقلال البلاد

وكان ان رجعت فرنسا الى نفسها فرأت انها لم تؤيد الامارة اللبنانية حق التأييد في ازمة الامير بشير الكبير ، وهو لم يسقط الا لاحتفاظه بعهد محمد علي مدفوعاً الى ذلك

بسياسة فرنسا (١) . فرأت ان تعوض مما فات فارسلت الى سفيرها في الاستانة « البارون دي بور كني » ان يؤيد طلب اللبنانيين فيتشبث باعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه من الوحدة والاستقلال . فذعرت الدولة من طلبه بعد ان عملت جهدها حتى تهدم صرح تلك الامارة . فاستنجدت سفراء الدول على سفير فرنسا وما زالت بهم حتى استمالت فريقا منهم اليها . ولما طال الامر بالسفراء ولم يقروا على رأي ، اقترح احدهم ، حلاً للمشكلة ، ان يقسم لبنان الى قائمقاميتين : نصرانية وعليها مسيحي من غير الشهابيين ، ودرزية وعليها امير درزي

فرضيت الدولة بذلك الاقتراح ، شرطاً ان لا يحيوا لها شبح الامارة اللبنانية القديمة

وقد تم شطر الجبل على هذا الشكل بموجب اتفاق تاريخه ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ ، من مقتضاه ان باشا صيدا يعين القائمقامين من اهل لبنان ويكون لهما السلطة الكافية في ادارة الامور الداخلية

وقد ولي فعلاً الامير حيدر اسماعيل اللمعي قائمقامية

(١) لامرتين : خطابه في مجلس النواب . الحررات ج ١ ص ٢٦٧

النصارى، والامير احمد ارسلان قائمقامية الدروز (١). فكانت هذه البدعة الجديدة في شكل الحكومة اللبنانية اكبر صدمة لاستقلال لبنان. وقد اضطرت الحكومة الافرنسية يومئذٍ الى القبول بها مكرهة، اما البرلمان الفرنساوي فشعر بما في شكل الحكم الجديد من الحيف على لبنان فأبى التصديق عليه، وصرّح «بوجوب الرجوع الى ادارة حكم تكون مطابقة لاماني اهل لبنان» (٢)

وعلى كل فحلّ المسئلة على هذا الشكل لم يرض احداً من الفريقين:

فهو من جهة لم يرض الدولة لان غرضها نزع الحكم من اللبنانيين وتعيين القائمقامين من الاتراك (٣) او على الاقل تضييق سلطتهما بحيث يصبحان آلة في يد والي صيدا

وهو من جهة أخرى لم يرض اللبنانيين ومؤيدتهم فرنسا لتشبثهم باعادة الامارة الشهابية على الجبل.

فاعتبر الفريقان تلك الطريقة وقتية وباتا يرقبان الفرص

---

١ المحررات ج ١ عد ٦١

٢ » » ١ » ١٣٨

٣ » » ١ » ٦١

لنقضها، كلٌ على هواه

وقد استنتج اللبنانيون يومئذ ان تدخل الدول الاوربية في لبنان أضعف حقوقهم بدلاً من ان يزيدها. من ذلك ما جاء في احتجاج رُفع باسمهم الى الدول في ٢٩ ك ١ سنة ١٨٤٣، على أثر سلخ بلاد جبيل عن ادارة الامير حيدر والحاقها بحكومة طرابلس وجعلها تحت سلطة باشا تركي، فقد جاء فيه: «اذا سكتت الدولُ عن هذا الاغتصاب الجديد لا يبقى لمسيحيي لبنان الاّ ان يختاروا بين امرين: إما الاقدام على حماية مهد أمتهم المقدس مستميتين في هذا السبيل عاقدين رايات الحرب على حكومة الباب العالي، اما هجر وطنهم العزيز الذي صدوا عنه هجمات الاعداء في الزمان السابق. بيدان هذا الشعب لا يسعه الافتراض ان تدخل الدول المسيحية العظمى في سوريا يؤول الى جعله في هذا الموقف الحرج او تكون النتيجة فوز الاتراك في لبنان. (١)

فلم تشأ الدول ان ترمي اللبنانيين في مهاوي اليأس فايدت احتجاجهم فأعاد البابُ العالي بلادَ جبيل وملحقاتها

١ المحررات ج ١ عد ٦٤

الى لبنان (١) . وقد حذّر سفيرُ انكلترا البابَ العالي من تهوره في انكار حقوق اللبنانيين وصرح له بان ليس لتركيا الحق بالتعرض لشؤون اللبنانيين الداخلية . قال السفير ما ترجمته : « ارى انه يتعذر انكار حق اللبنانيين الثابت بادارة شؤونهم الداخلية على يد ولاتهم الوطنيين . . » (٢)

. . .

الحركة الثانية سنة ١٨٤٥

لم يعر ولاةُ سوريا النصح اذناً صاغية بل ظلوا يدسون الدسائس ويحركون عوامل التعصب بين الدروز والنصارى جرّاً للمشاكل والاضطرابات في الجبل حتى يثبتوا للعالم انهُ يتعذر استتباب الامن في لبنان مادام عليه حكامٌ من الوطنيين ، وان العلاج الوحيد هو تعيين حاكم تركي على البلاد . وقد ساعدتهم بدعة القائمقاميتين على بلوغ امنيتهم فان هذه الطريقة ، بجعلها الدين اساس الحكم في الجبل ، قد قطعت روابط الوحدة القومية وفككت عرى الاتحاد

(١) المحررات ج ١ عد ٦٨
٢ « « ٨٢

الوطني بين الدروز والنصارى فبدلاً من ان يظلوا معتبرين انفسهم لبنانيين قبل كل شيء كما كانوا في الماضي ، انشق اجبل شطرين : درزيا ومسيحياً ، وهو غاية ما كانت تطمح اليه تركيا ...

ولما رأى عمال الدولة ان ما زرعوه في النفوس من بذور التعصب قد نمى ، اوغروا صدور بعض الرعاع وكلفوهم اضرام الشرارة الاولى من النار ، حتى اذا اشتعلت تركوها تمتد وتقوى الى ان التهمت انحاء الجبل وتعدتها الى الولايات السورية بين المسلمين والنصارى : تلك هي سياسة « فرّق تسد » التي لم ينتبه لها اللبنانيون الا بعد وقوعهم في نتائجها الفظيعة فكان ما كان من حوادث سنة ١٨٤٥ . وقد اثبتت المكاتبات الرسمية ان الذنب كل الذنب فيها كان على الحكومة التركية لا على الشعب كما حصل سنة ١٨٤١ : من ذلك ما جاء في كتاب ارسله زعيم من زعماء الدروز في تلك السنة الى كبير منهم يطمئنه فيه الى عاقبة القتال بقوله : « لا تخافوا لانه قد كتب أمر الى حامية عبيه بمساعدتكم .. » وكتب ايضاً الى مشايخ اقليم الخروب واعيان المسلمين يقول لهم : « ان الباب العالي قد جاد

وسمح لنا بمهاجمتها (الامة المسيحية) وان دولة افنديتنا داود باشا المعظم قد فوض الينا محاربتها وساعدنا عليها بجنوده السلطانية . . . فنريد من همتكم وبسالتكم ان تسرعوا حالاً وتهاجموا الدبية لان الحامية التي فيها قد برحتها بامر مصطفى بك .. فلا تخشوا شيئاً لاننا نحن والباب العالي يد واحدة في هذه المسئلة وهذا كافٍ لطمأنينتكم وبه غناية عن اطالة الشرح . . » (١)

ولم يكن كلام ذلك الزعيم الدرزي عن تعصب طائفي وحقد مذهبي بل كان مدفوعاً اليه من ولاة سوريا والموظفين الذين ذكرهم والبرهان هو انه على اثر تلك الحوادث ارادت الدولة ان تتنصل من المسؤولية فسجنت من سجنت في ثكنة الجنود في بيروت ومن ضمنهم ذلك الزعيم فذهب لعيادته الكونت غندور بك السعد لاعتقاده انه كان محمولاً على فعل ما فعل . وقد روى الكونت انه

---

(١) اثبت هذين الكتابين المسيو بوجاد قنصل فرنسا في بيروت في كتابه عن لبنان وسوريا ص ٢٤٧ — ٢٤٩ وعلق عليها ان الشيخ المشار اليه كتبهما في بدء فتنة سنة ١٨٦٠ فوقعا بين يديه وسلمهما الى وجيهي باشا مشير ايالة صيدا فاعترف بصحتهما

في خلال الحديث قال له الزعيم الدرزي : « انتم حاسبينها ونحن حاسبينها وكلانا وقعنا فيها » (١)

وجاء في رسالة للمسيو غيزو الى سفير فرنسا في الاستانة بتاريخ ايار سنة ١٨٤٥ ما ترجمته : « ان هذه الجنود (العثمانية) .. غمست يدها في دم المسيحيين في ظروف عديدة واتت اعمالاً بربرية بحيث لم يبق ادنى شك في تآمر الباب العالي مع اعداء الموارنة .. » (٢)

ولم يخف يومئذ على اللبنانيين سبب الاضطرابات الحقيقي فرأوا ان المفسدين قد لعبوا بهم وجروهم الى تلك المذابح الاهلية فسعى عقلاء الدروز والنصارى الى اصلاح ذات البين فوجدوا من طيب اخلاق الشعبين الكريمين اكبر مساعد على نسيان الماضي ، فعقدت بين مندوبي الدروز والنصارى وثيقة تاريخ ٢ حزيران سنة ١٨٤٥ تعهد فيها الفريقان بالرجوع الى الصلات الودية القديمة « ليعيشوا بكمال الوئام مراعين واجبات الجوار وناسين الماضي ماحين

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٨٢

(٢) المحررات ج ١ عد ١١٠

كل ما وقع بينهما من سجل الكوائن . . » (١)

وقد زادت تلك الحوادث اعتقاد اللبنانيين ان الدواء الوحيد لذلك الداء انما هو اعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه من الوحدة والاستقلال

وقد ابلغ اللبنانيون طلبهم يومئذ الى اوربا فاهتمت بجالسها السياسية بالامر وطرحت مسئلة لبنان على البرلمان الافرنسي في جلسة ١٥ تموز سنة ١٨٤٥ فعنف الكونت دي كاترباردب وزارة المسيو غيزو واتهمها بالضعف وعدم قيامها بالواجب نحو اللبنانيين فاجابه المسيو غيزو وزير الخارجية واعترف بمسؤولية السلطة التركية في الحوادث وصرح بان فرنسا لا تفتر عن مساعدة اللبنانيين في تحقيق امنيتهم وانها لا تتحول عن سياستها القديمة المعروفة من المطالبة باعادة امارة لبنان الى ما كانت عليه (٢)

وفعلا بذلت الحكومة الافرنسية جهدها في سبيل اعادة الامارة اللبنانية والغاء اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ ، فلم تجد التعضيد الكافي من سائر الدول

---

(١) المحررات ج ١ عدد ١٢٣ ومايلي

(٢) « « ١ « ١١٤ «

وقد استفاد الباب العالي من تفرق الكلمة فتبرأ مما حصل في لبنان ملقياً تبعته على عاتق المأمورين في سوريا وابلغ الدول انه اتباتاً لحسن النية قد انتدب السلطان عبدالمجيد وزير خارجيته بالذات شكيب افندي موفداً خاصا الى سوريا لاجراء النظام وتسكين الحال (١)

شكيب افندي في لبنان

وصل شكيب افندي الى بيروت في ١٤ ايلول سنة ١٨٤٥ وطلب من ممثلي الدول ان لا يتعرضوا له في شيء متعهداً بعمل كل مايلزم لتهدئة الخواطر والقاء السكينة وترتيب الحكومة . وقد بادر فور وصوله الى ابعاد رعايا الحكومات الاجنبية من لبنان حتى لايكون لدولهم سبيل الى التدخل في حال من الاحوال، وملأ البلاد عسكراً نظامياً وامر بنزع السلاح مؤكداً في الوقت ذاته للبنانيين « ان نزع السلاح من ايديهم لا يراد به مس امتيازاتهم القديمة » ومازال يطمئن خاطر اللبنانيين من جهة ويطلي على ممثلي الدول من جهة أخرى حتى تمكن بعد مخابرات ومفاوضات

(١) المحررات ج ١ ص ٢٤٠

لا محل لذكرها الى ذر الرماد في العيون فسادت الفكرة ان الحال قد هدأ على احسن منوال

وقد ابقى الامير حيدر اللمعي قائمقاماً على النصارى واقام مكان الامير احمد ارسلان اخاه الامير امين ارسلان

وقد سن نظامه المشهور المعروف « بنظام شكيب افندي » واساسه تضييع ما بقي من استقلال لبنان ووحدة حكومته ورابطة قومه بان يضيق سلطة القائمقامين كل التضييق وجعلهما في اكثر الامور الاساسية تحت سلطة باشا صيدا ، ووسع من جهة اخرى شقة الخلاف بين الدروز والنصارى وشطرهما في كل امورهما شطرين ، كل شيء فيهما للدين . وقد فطن الكثيرون من اللبنانيين الى ما في ذلك النظام من الحيف وتقويض دعائم الاستقلال فاحتجوا عليه لدى الدول ، وقد ايدهم البرلمان الافرنسي في احتجاجهم كل التأييد في جلسات متعددة . ولاسباب لا محل لذكرها لم تجد فرنسا بين الدول من يشد ازرها وازرهم في الامر فكانت النتيجة ان العمل بنظام شكيب افندي فزاد بتفكيك الوحدة اللبنانية .

الفصل الثاني

حوادث لبنان في البرلمان الفرنساوي

جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦. جلسة ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦. جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧

بلغ مسامع فرنسا ما حلَّ بلبنان من الكوارث والمصائب فاهتزت مجالسها النيابية لهول ما سمعت ولم يخف على المفكرين الاحرار من اعضائها ان اوربا عامة وفرنسا خاصة مسؤولة نوعاً عما دهى الجبل من الفواجع والمحن لتلاعب الايدي بلبنان واميره واهليه بمناسبة الحملة المصرية على سوريا سواءٌ في عهد الفتح سنة ١٨٣١ او في عهد الانسحاب سنة ١٨٤٠ : ففي كلا العهدين دُعي اللبنانيون الى القتال على ان يكون ثمن ما يريقون من الدماء نيل الحرية المطلقة . . فبادروا اليه مستبسلين

وحاربوا في العهدين حرب الاسود حتى شهدت المقامات الرسمية ان انضمام اللبنانيين الى ابرهيم باشا ضمن له تدويخ سوريا كما ان خروجهم عليه اضطره الى الجلاء عنها . . وبالرغم من ذلك لم ينل اللبنانيون ثمن ضحاياهم بل تخلت عنهم اوربا ولم تدفع الضيم عنهم فرنسا . واصبحوا بعد ان انهكتهم تلك الحروب مقطعي الاوصال مشتتي القوى ولقمة سائغة للاعداء

فاغتنمت تركيا الفرصة ، فعمدت الى تفكيك عرى « القومية اللبنانية » وبذر بذور التعصب الديني في الصدور . وقد نجحت سياستها فكان ما كان في لبنان من فتن ومحن من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٦٠ حتى تم ما خشي منه المسيو ملفيل في مجلس نواب فرنسا حين قال لهم : ان جل ما ابغيه هو ان لا تجعلوا لبنان كبولونيا

علمت اوربا بما حدث في لبنان وشعرت بمسؤوليتها نحوه فاهتمت صحافتها ومجالس نوابها بالامر ، وكان اشد ذلك الاهتمام في فرنسا لما بين الشعبين من المحبة المتبادلة والعلاقات القديمة ، فقام الخطباء في مجلس النواب يذكرون فرنسا بما للبنانيين من الحسنات والافضال منذ ايام لويس

التاسع الى عهد بونابرت ويستحثون الحكومة على بذل المعونة للبنان مبادلة لصنيع اللبنانيين :

ولا بأس بالتبسط قليلاً في ما حصل يومئذٍ في البرلمان الافرنسي من هذا القبيل

جلسة ١٥ - نيسان سنة ١٨٤٦ ، دي ملفيل

في تلك الجلسة خطب المسيو دي ملفيل ولام وزير الخارجية على عدم سعيه لاعادة امارة الجبل الى ما كانت عليه من الاستقلال تحقيقاً لوعد اوربا للبنانيين سنة ١٨٤١ ، واستحلف الوزارة ان تقوم بوعودها للبنان ولا تسمح بان يكون مصيره كبولونيا ، قال النائب : « اننا كثيراً يا حضرة النواب ما نرمي هذه الشعوب بعدم التمدن والخديعة والغش لكنها اذا تعلمت يوماً ان تكتب التاريخ فانها تجد مجالاً واسعاً للكلام . . لانه في ذلك العهد جاءها اناس اثاروها بوعدهم لها حفظ ضماناتها وامتيازاتها بل توسيع دائرتها » . . وهنا سرد النائب من الحوادث ما يثبت انه لم يبر بالوعد . ثم قال :

« ان اهالي جبل لبنان المسيحيين الذين حفظتهم العناية الربانية فيه . . لم يكونوا قط تحت حكم الباب العالي مباشرة ولم يكن له عليهم الا سيادة اسمية . »

وقد تبسط النائب في هذا الموضوع وأتى على ملخص تاريخ الحوادث التي وقعت في لبنان منذ سنة ١٨٤٠ فأثبت ان الدسائس كانت السبب في وقوعها ، لا تعصب الاهلين. وختم خطابه بقوله للوزير : « كان اصحابكم يقولون بالامس يجب ان نجعل في الشرق بلداً يشبه سويسرا ، وانا اسألكم ان لا تجعلوه يشبه بولونيا . » (١)

---

(١) كانت بولونيا منذ الجيل التاسع مملكة مستقلة وظلت كذلك الى سنة ١٧٦٤ فتدخلت في امورها الامبراطورة الروسية كاترين . ومنذ ذاك الحين اخذت الدسائس تنخر عظام بولونيا وتثير فيها عواطف التعصب الديني والمذهبي حتى انقسمت الامة على بعضها : فاستنجد الارثوذكس بالامبراطورة كاترين واستغاث البروتستانت بملكة النمسا ماري تريز وبملك بروسيا فردريك الثاني . وما زالت تلك الحكومات الثلاث تتجاذب الطوائف والاحزاب البولونية حتى تقطعت اوصال الامة وانفرط عقد وحدتها فأدى ذلك الى تقسيمها بين روسيا والنمسا وبروسيا . فاصبح تاريخ بولونيا منذ ذاك الحين سلسلة قلاقل داخلية ومنازعات دامية بين الشعب والبولوني وتلك

جلسة ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦ : لامرتين

خطب في تلك الجلسة المسيو دي لامرتين المشهور خطاباً مطولاً بسط فيه المسئلة اللبنانية من سنة ١٨٤٢ فذكر حقائق عرفها شخصياً اثناء رحلته الى لبنان سنة ١٨٣٢ وشهد باتحاد اللبنانيين من دروز ونصارى كما انه صرح رسمياً ان فرنسا مسؤولة عن نكبة الامير بشير وعن زعزعة استقلال لبنان ... قال :

« علي ان اصلح الهفوة التي بدرت امس من حضره المسيو دي ملفيل فقد قال بوجود خلافات واحقاد قديمة بين شعوب لبنان في حين ان لاشيء من ذلك وجل ما بين الموارنة والدروز خلاف في العقيدة .. فالموارنة مسيحيون كاثوليك ، وسبق لي ان قلت في هذا المجلس ان

الحكومات حتى جاءت هذه الحرب ، وكان قد عرف البولونيون علة مصائبهم فاتفقوا واتحدوا على مبدأ يحفظ كيان أمتهم واستقلالها وقاموا اليوم يطالبون بحقوقهم فاخذ الحلفاء بيدهم وستنال بولونيا استقلالها بفضل اتحادها وحياة القومية في اهلها على اختلاف طوائفهم وتباين نزعاتهم ... وقد اثبتت الحوادث ما كنبناه في الطبعة الاولى فاصبحت بولونيا مملكة مستقلة

العقيدة الاساسية في مذهب الدروز هي حفظهُ سراً في قلوبهم. ولهذا كانوا متحدين مع الموارنة في عهد الامير بشير.

« والامير بشير لم يرتكب سوى خطأ واحد دفعته اليه سياستنا وهو انه مال حيناً الى ابراهيم باشا فأغضب الباب العالي ؛ ولما اضطر ابراهيم باشا الى مغادرة سوريا ، فأول عملٍ اتتهُ الحكومة المنتصرة ان اسقطت سلطة الامير بشير . .

ثم تطرق الخطيب الى ذكر حقوق لبنان والى الحالة التي يجب الرجوع اليها في طريقة الحكم فيه قال : « وما هي هذه الحالة القديمة العهد الثابتة من مئتي سنة والمعترف بها من جميع الدول ؟ هي وحدة السلطة والامارة في يد الامير بشير . .

« لست بحاجة الى ان أعيد على ذاكراكم كم هذه القضية حرية بعنايتنا ومزيد اهتمامنا . ولا اقول شيئاً عن عواطفي الخاصة اتقاء ان أتهم باني أريد ان أخضع سياسة بلادي لها . اذا طالعوا اقوال فولني الذي قضى سنتين بين الموارنة الشيطين المنكودي الحظ فيمثل لكم اسمى الفضائل التي كانت تجمل المسيحيين الاولين مجسمة في

شخص أجمل طائفة وانبلها وأجرأها ، ويريكم الشعب الماروني كأبدع امة في الشرق يمكن ان تلقح بها شجرة الامة المسيحية . فاذا تركتموها تهلك اوتباد فاصرح لكم اني اعدّ ذلك كآخر نقطة من ثفالة كأس شربناها سنة ١٨٤٠ وكان عليكم اقلهُ ان تبذلوا الجهد لئلاّ تتحوّل هذه الثفالة الى نقطة دم . اما انا فني أتهم الحكومة الفرنسوية ليس فقط بضعف بصيرتها في المسألة الشرقية العظمى منذ سنه ١٨٣٦ بل بقلة الشهامة والحزم ، ولا يوجد رجل فطن منزه عن غاية الا ويشاطرني رأيي .

« لماذا عاكست الحكومة في اول اذار ؟ لاني تيقنت بعد البحث الدقيق ان السياسة الفرنسوية ارتكبت غلطاً عظيماً بتوجيه كل عنايتها الى مصر واهمالها السكان الذين توجب علينا وحدة الايمان وحمايه متقادمة العهد ان نعضدهم بكل قوى سياستنا فلا نتركهم عرضةً للاعتداء البربري وللسلب والنهب .

لاي سبب بعد سقوط الوزارة في اول اذار عضدت باقتراحي الوزارة الجديدة في بدء عهدها ؟ لاني كنت اعتبر ان الوطنية الحقة تقضي عليّ بتأييدها لانهاض سياستنا

من كبوتها في المسالة الشرقية ، وبان لا اسمح على قدر طاقتي بتعريض امة محبوبة من فرنسا منذ عهد القديس لويس حتى لويس الرابع عشر الى الفناء من جراء جهل الوزارة او ضعفها . بيد انه قد سقط من كنت اريد انهاضه وترعزع ما قصدت توطيده اذ أن نتائج السياسة التي انتهجتها حكومتنا اوصلتنا الى حالة اوشك المسيحيون في الشرق ان ينسوا ما قد بذلته فرنسا في سبيل نفعهم . ومع ذلك قد سمعتم امس واول من امس حضرة وزير الخارجية يسألنا السكوت عن مسألة سوريا . وكل مرة عرضت علينا مسألة خطيرة مثل هذه طلبوا منا الصمت . وقد طلبوه منا امس واليوم عن الموارنة الباسلين ولا ذنب لهم الا لكونهم وضعوا آمالهم فيكم ونادوا باسمكم مستغيثين ومدوا اذرعتهم الى فرنسا متوسلين . فهذا هو الشعب الذي سألتم اليوم السكوت عن امره . اما تعلمون ما ذا يحدث ؟ سيأتي يوم فيه يقولون لكم : لم يبق ثمة مسألة سوريا ولا مشاكل ولا منازعات . اجل انه لا يبقى مسألة ، اذ يكون الشعب الماروني قد ادركه الفناء !

«علينا ان نرفض كم افواهنا وعلى فرنسا ان ترفع

صوتها بقدر ما تخفضه حكومتها ولتعلن على رؤوس الاشهاد انها لا تتسامح في اي مكان كان في الاحترام الواجب لاسمها ولا تترك اصدقاءها والموارنة في جملتهم ، ولتجهر بأعلى صوتها بما تقدم حتى اذا هلكت هذه الامة المنكودة الحظ يوماً ما فالتبعة تقع على عاتق من يعنيه الامر ، ولتسقط آخر نقطة من دمها ليس على فرنسا بل على حكومتها ! . » (١)

على اثر تلك المناقشة وعدت الوزارة بالاهتمام بمسألة لبنان والمحافظة على حقوقه . وكان فصل العطلة البرلمانية قد أزف فارفض المجلس . وما عاد الى الالتئام حتى رجع الى المناقشة في المسألة اللبنانية :

وفي تلك الاثناء كانت المشادة قد بلغت اقصاها بين اللبنانيين والباب العالي في ما خص اعادة الامارة اللبنانية الى سابق استقلالها ووحدة سلطتها واللبنانيون يعللون النفس عبثاً بمساعدة خارجية فعلية تنيلهم حقوقهم ، ولما طال على تعللهم الزمان رفعوا الى البرلمان الافرنسي عريضة تلاها على المجلس الكونت دي كاتر بارب في جلسة ٦ ك ٢

(١) حرفيا عن المحررات ٣ ص ٢٦٨ وعن بوجد ص ١٧٦

سنة ١٨٤٧ جاء فيها : «اجيبونا صريحاً وبجلاء اذا كان يمكننا ان ننتظر منكم مساعدة عاجلة او تتخلون عنا فنعلم اذ ذاك كيف يجب ان نتدبر فلا نستسلم الى الآمال الفارغة . .»

—

جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧ : كازيمير ، ملفيل ، كريميو

لم تقتصر المطالبة بحقوق البلاد على فريق من اللبنانيين دون فريق بل اشتركوا فيها على اختلاف مذاهبهم فارسل المسيحيون والدروز عرائض الى البرلمان الافرنسي في صيف سنة ١٨٤٧ والجميع متفقون على الطلب ذاته : «اعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه مع حق التوارث فيها . .»

وقد عرضت هذه العرائض على المجلس الافرنسي في جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧ (١). فأيد الكونت دي كازيمارب طلب اللبنانيين كل التأييد وقال للمجلس : « يا حضرات النواب ، لا يوجد لهذه الحالة سوى علاج واحد هو اعادة

(١) المحررات ص ٢٧٤ عدد ١٣٦

امارة لبنان الى ما كانت عليه مع دفعها للباب العالي الجزية واعترافها بسيادته الرسمية وخلا هذه القاعـدة لا تقوى اية حماية كانت على توطيد اركان الراحة . . »

وكان قد زهق اهل لبنان يومئذ من كثرة الوعود وقلة الاعمال فارسلوا في ذلك الرسائل الى النواب الذين كانوا مستعدين لتأييدهم ، منها خطاب قرأ بعضه الكونت دي كاتر بارب في تلك الجلسة ذاتها (٣ تموز سنة ١٨٤٧) جاء فيه : « نعم انكم لم تفتروا حتى الان عن السعي في سبيل انقاذ امتنا فلا حاجة اذاً الى تحريضكم على مواصلة مساعيكم اذ من يقدم على احداث بناء يتوجب عليه اتمامه حتى اذا لم ينجزه يستهدف للسخرية وهزء الناس . »

وقد علق النائب على هذه الفقرة بقوله : « ان هذه العبارة ليست موجهة اليَّ لاني لستُ هنـا سوى صدى ضعيف اردد مصائب شعب جدير بكل اعجاب . . كلاّ فما كنتم لترتضوا بابادة هذا الشعب . وقد بقي وحده مدة ثمانية قرون مستقلاً حراً في وسط السلطنة العثمانية . . » (١)

وقام بعد الكونت دي كاتربارب حضرة النائب المسيو

(١) المحررات ص ٢٧٦ عد ١٣٧

دي ملفيل ولفت نظر النواب الى اختلاف سياسة المجلس عن سياسة الحكومة : فالمجلس يشدد باعادة الامارة اللبنانية حسب طلب اللبنانيين ، والوزارة تتهاون وقد لام الوزارة كل اللوم على عدم اتباعها رغبة المجلس . ثم أتى على تاريخ حوادث لبنان من سنة ١٨٤١ وشرح كيف ان الباب العالي يسعى لغاية وضعها نصب عينيه وهي هدم استقلال لبنان متذرعاً الى بلوغها بكل الوسائل قال : « اني اذكر المجلس بانهُ بدىء اولاً بقسمة امارة لبنان المطلقة الحكم الى قائمقاميتين ثم ظهر ان قسمة السلطة هذه تجعل المسيحيين المقيمين في القرى المختلطة ، وهم الاغلبية ، تحت حكم وال تركي وانهُ يخشى من تجديد جميع الرزايا التي تأسفنا لحدوثها

« واذ ذاك استنبطت طريقة انتخاب وكيلين احدهما درزي والآخر ماروني لموازنة سلطة القائمقاميتين الواسعة فهذا التنظيم لم يأت بنتيجة وجاءت كوارث سنة ١٨٤٥ مصداقاً لقولنا . .

« ثم افتكر فيما بعد بانشاء ديوانين مؤلفين من العناصر المختلطة ووضعهما تحت رئاسة السلطة التركية ، فحبطت جميع هذه التنظيمات لان غايتها جميعها كانت ترمي الى بسط

السلطة التركية على لبنان ..»

وقد خطب بعده المسيو كريميو النائب الاسرائيلي فاظهر للمجلس واجب فرنسا نحو اللبنانيين ليس من قبيل الدين فقط بل نظراً للخدمات الجليلة التي قام بها اللبنانيون لمساعدة الافرنسيين من قديم الزمان قال : « اتسكتون والامر متعلق بمسيحي لبنان ؟ ومن هم هؤلاء المسيحيون؟ هم اخوانكم منذ قرون ليس في المذهب فقط بل في السلاح وفي ساحات القتال فقد وجدتموهم في كل الظروف ... فالقديس لويس وجدهم من قبل ونابليون كذلك .»

فأبدى المجلس استحسانه وصرحت الوزارة بعد تلك المناقشة باستعدادها التام للاهتمام بالمسألة اللبنانية جدَّ الاهتمام ..

...

يثبت ما تقدم بما يأتي :

ان استقلال لبنان الداخلي كان ثابتاً تاريخياً قبل سنة ١٨٤٠ بأجيال

ان الباب العالي لم يكن له في لبنان ، بشهادة مجالس النواب والحكومات الاوربية ، الا السيادة الاسمية فقط

أن البرلمان الافرنسي كان يشدد على حكومته بوجوب مساعدة اللبنانيين على اعادة « امارتهم المستقلة » لا لمنفعة تنالها فرنسا من وراء تلك المساعدة بل قضاء لواجب عليها نحو اللبنانيين « وهم اخوان ليس في المذهب فقط بل في السلاح من عهد لويس التاسع . . »

انه ما خطر يومئذٍ في بال اللبنانيين ، رغم ما حل بهم من المصائب المتتابعة ، ان يتنازلوا عن شعرة من حقوقهم بل كان صراخهم وسعيهم وتضامنهم مقصوراً على التشبث باستقلالهم واعادة امارتهم الى ما كانت عليه من الوحدة والمنعة ، ولم يجل في خاطرهم قط ان طلبهم عون دولة يقضي عليهم بالتنازل لها عن استقلال البلاد او عن شيء منه . بل كانوا يعتقدون أن تلك الدولة اكبر وانبل من ان تكلفهم تلك المساومة فتجعل مساعدتها واسطةً للحصول على منفعة في لبنان ، بل يرون انها اذا بذلت لهم ما تستطيعه من المعونة يكون ذلك مبادلةً منها للمساعدات العديدة التي قام بها اللبنانيون جهدهم في كل فرصة سنحت لهم من قديم الزمان .

الفصل الثالث

الامير بشير احمد اللمعي (سنة ١٨٥٤ ـ ١٧ت٢سنة ١٨٦٠)

ثورة الاهالي في كسروان سنة ١٨٥٨

تعيين الامير محمد ارسلان مكان ابيه المتوفي الامير امين

حركة سنة ١٨٦٠

لم يأتِ ما بُذل يومئذٍ من المساعي والمجهودات بفائدة وظلَّ شكل القائمقاميتين في حكم لبنان يساعد على تربية روح جديدة في نفوس اللبنانيين ، روح التعصب للدين والمذهب ، لان كل شيء في حكومتهم وادارة شؤونهم أصبح تابعاً لصفة الشخص الدينية والمذهبية

وقد جاءت وفاة الامير حيدر سنة ١٨٥٤ ضغثاً على ابالة لان خورشيد باشا طلب ان يعين خلفاً له اقل من كان بين الامراء لياقةً للحكم وهو الامير بشير احمد ابو اللمع .

وغرضهُ من هذا التعيين ان تزيد الفتن ، اعتقاداً منه انه كلما زادت الاضطرابات في لبنان وتفاقمت الشرور كلما اتسعت سلطة الولاة واضمحل نفوذ الحكومة الوطنية حتى يضطر اللبنانيون في آخر الامر الى طلب وال تركي عليهم

وقد شهد بذلك المسيو مور قنصل انكلترا العام في بيروت في كتاب ارسله الى المسيو اليزون وكيل سفارة انكلترا في الاستانة قال فيه في ٢٨ ك ٢ سنة ١٨٥٦ « ... اما السبب ... في عضد الاتراك للقائمقام فهو السياسة التي انتهجوها ولم يحيدوا عنها قط وقوامها توجيه المساعي الى ابقاء الاضطراب في لبنان للتذرع الى الغاء ادارة حكمه الحالية وهم ينهجون مثل هذا النهج في القائمقامية الدرزية » (١)

وكتب المسيو مور المذكور في المعنى ذاته الى الكونت ملمسبوري في ٢٧ ايار سنة ١٨٥٨ ما ترجمته : « اما المقصود من سلوك خورشيد باشا في مسألة لبنان ونياته التي استشففتها هي ذات نيات الحكومة التركية في ان يسود الاضطراب في جبل لبنان على امل ان تتمكن في وسط القلاقل العامة من الغاء انظمة لبنان التي لم تفتر عن النظر

---

١ المحررات ج ١ عد ٢٤٤

اليها بعين الاستياء . . . » (١)

وفعلاً حدث يومئذٍ في لبنان السوء ادارة الامير بشير احمد وعدم كفاءته ما كان يُنتظر وقوعه . فبلغت الاضطرابات اشدها وسنحت الفرصة لراقبيها فاثاروا الحزازات بين المشايخ والاهالي من جهة ؛ وعواطف التعصب بين الدروز والنصارى من جهة أخرى ؛ فجرت حوادث كسروان على اصحاب الاقطاع سنة ١٨٥٨ ، وتلتها اشدّ هولاً منها حركة سنة ١٨٦٠ والمسؤولية في الحادثتين على عمال الدولة وغرضهم واحد كما كان سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ ، وهو بسط سلطتهم على لبنان وادغامه في الولايات . والادلة الرسمية على ذلك لا تحصى :

منها ماجاء في كتاب المسيو مور الى السر هنري بولفر بتاريخ ٣٠ حزيران سنة ١٨٥٩ عن حركة الاهالي في كسروان ماترجمته : « يخيل لي ان الحكومة تقصد بسكوتها توسيع دائرة الخلاف بين الشعب ورؤسائه اصحاب الاقطاع بل تريد ابقاء جرثومة الهياج حية بحيث تضطر الشعب

---

(١) الحرات ج ١ عد ١٥٨

وزعماءه الى طلب والٍ تركي والانضمام الى الحكومة التركية . » (١)

وفي ٣ ايار سنة ١٨٥٩ توفي الامير امين ارسلان فعين خورشيد باشا مكانه ولده الامير محمد . وقد جعل تعيينه بصفة وقتية حتى يزيد الاضطراب . (٢)

وقد شهد المسيو مور بمسؤولية ولاة سوريا والجنود في حوادث سنة ١٨٦٠ في رسائل عديدة ارسلها الى سفراء انكلترا ووزرائها ، منها ما كتبه الى السر هنري بولفر في ٣١ ايار سنة ١٨٦٠ : «وانتهى اليّ ان الجنود التركية اطلقت النار أمس على المسيحيين في الحدث وبعبدا وحرقتهما مع وادي شحرور وعاريا وبعض مزارع في الساحل ... ويقال ان نفراً من الباشبوزق انقض على الامير بشير قاسم امير جبل لبنان سابقاً بينا كان خدمه يقودونه الى خارج داره في بعبدا وهو بعمر خمس وثمانين سنة اعمى البصر .. وقد

(١) المحررات ج ١ عد ٢١٩

(٢) تستا : ج ٦ ص ٥٨

وُجدت جثتهُ مشخنة بضرب السيوف وعنقه مقطوعة(١)

ومنها ان اهالي بكفيا لما بلغهم ما حل باخوانهم هبوا لنصرتهم فاجتمع اليهم كثيرون من جيرانهم فاحتشدوا في البلدة لا يقلون عن خمسة الاف مقاتل شاكي السلاح فبلغ خبرهم خورشيد باشا فارسل اليهم يطيب خاطرهم ويشير عليهم بالبقاء في بكفيا لانه سيتخذ هو الاحتياطات اللازمة. وفي ذلك يقول المستر مور في كتابهِ الى السر بوليفر بتاريخ ١٦ حزيران سنة ١٨٦٠

«اخبرنا (خورشيد باشا) انه سمح للمسيحيين المحتشدين في بكفيا وعددهم خمسة الاف ان يبقوا فيها بسلاحهم، وانه سيصدر أمره باعادة السلاح الى من يريد من المسيحيين اللاجئين الى هنا للعودة الى الجبل انضماماً لاخوانهم، وانه سيرسل خمسماية جندي نظامي لنجدة زحله، وانهُ أنفذ الاوامر الجازمة الى زعماء دروز لبنان بان لا يبدوا اقل حركة..» (٢) فكانت نتيجة ذلك ان الجنود التي ارسلت

(١) المحررات ج ٢ عدد ١٨

(٢) المحررات ج ٢ عدد ٤٨

الى زحله هي التي كانت اساس الشر . ولولاها لما حدث فيها شيء على الاغلب كما يُستنتج من كتاب المستر مور الى السر بولفر في ٢٠ حزيران سنة ١٨٦٠ وفيه يخبره عن حوادث زحله وعن خبر سقوطها : « . . اما بخصوص سلوك المشير وارباب السلطة التركية واعمالهم فاني اتأسف على ان اقول انه مع شدة ميلي الى ان أحسن الظن بهم وانسب اعمالهم الى افضل النيات فالانباء والظواهر تلقي شديد الريبة في صدق مقاصدهم . . . ومن الشائع ان الدروز ارادوا بمهاجمة زحله نهار الاثنين من جهة الجبل المعسكرة فيها الجنود التركية ، اثبات الاعتقاد العام بانهم يعتبرون الجنود الاتراك محالفيهم . . . » (١) وثاني يوم تأكد المستر مور خبر سقوط زحله فارسل الى السر بولفر كتاباً بتاريخ ٢١ منه جاء فيه : « . . ويقال ان الجنود التركية اشتركت مع الدروز في مهاجمة المسيحيين وقد اكد هذا الخبر اناس يقولون انهم شهود عيان وان قد وصل المدينة خفيةً زهاء ثلاثين جندياً جريحاً . . »

وقد تحقق القناصل ان المسألة ليست بين الدروز

---

(١) المحررات ج ٢ عدد ٥٨

والنصارى بل بين الاتراك واللبنانيين. وان الدولة تريد ان يتفانى اللبنانيون في حرب اهلية لبلوغ غايتها. وبناء على هذا الاعتقاد لم يعد القناصل يرجون اقل مساعدة من خورشيد باشا في سبيل تسكين الحال بل كان اعتقادهم بالعكس. وقد شهد بذلك المستر مور في كتابه المذكور آنفاً عن سعي القناصل حين بلغهم ان دير القمر مهددة، قال: «وفي الوقت ذاته اشتركت مع رصفائي في استنهاض خورشيد باشا لانقاذ دير القمر، وقد فعلنا ذلك مراعاة للظواهر على غير أمل في نجاح مسعانا..» (١)

وكان ما خشي منه المستر مور، فان الحامية التركية في دير القمر فعلت ما فعلته شقيقتها في زحله. وفي ذلك يقول المستر مور في كتابه الى السير بولفر في ٢٣ منه «ان الانباء المفصلة التي وردت عليّ عن مذبحة دير القمر تفيد ان الحامية التركية خدعت الاهالي واقنعتهم بتسليم اسلحتهم، ... ان النساء التي جاءت بهن البارجة «غانيت» قان لقائدها لامبير: ان الجنود التركية اساءت معاملتهن اكثر

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٦١

من الدروز ...»(١)

وقد شهد اللورد دفرين ، وشهادته على تركيا لا ترد، « ان المذابح الاخيرة وكل الحروب الفظيعة والاضطرابات التي دهت لبنان في الخمس والعشرين سنة الاخيرة كانت نتيجة مساعي الحكومة التركية » (٢)

وقد اضطرب احرار النواب في مجالس اوربا لتجدد تلك الحوادث في لبنان فجرت في مجلس العموم الانكليزي مناقشة في هذا الصدد في جلسة ١٧ آب سنة ١٨٦٠ فلم يخفِ السر شارل نابيير اشمئزازه مما حصل وعطفه على اللبنانيين لان اوربا وعدتهم كثيراً ولم تفِ لهم بشيء من وعودها كما جرى على يده سنة ١٨٤٠ حين كان كومدور العمارة التي ساعدت تركيا على ابرهيم باشا في سوريا. قال حضرته: « قلت في الاجتماع الذي عقد في ادنبورج وكررته في ما بعد على مسامع ندوة العموم اني مخجول من الدور ... الذي لعبته في سوريا .. ولم يبق ادنى ريب بان الاتراك بذلوا جهدهم لحمل اهالي لبنان على شق عصا الطاعة على الحكومة

---

(١) المحررات ج ٢ عدد ٦٢

(٢) دي لاجونكيار ج ١ ص ٦٦٥

المصرية فلم ينجحوا فكلفت اذ ذاك بان اعد اللبنانيين بان الاتراك يحسنون معاملتهم اكثر من المصريين ففعلت وكان ان قام جمهورهم على الحكومة المصرية ولولا مساعدتهم لتعذر على الحكومة نظراً لقلة عدد جنودها اصابة النجاح الذي ادركته . » (١)

وقد بلغت فظاعة تلك الفتن وتجددها مبلغاً حمل اوربا اخيراً على التدخل في الامر فكانت النتيجة على عكس ما رجته تركيا من عملها : فبدلاً من ان تتمكن من الحاق لبنان بالولايات اضطرت الى موافقة الدول على الاعتراف باستقلاله الداخلي في معاهدة دولية لا قبل لها بالغائها .

(١) المحررات ج ٢ عد ١٧٧

الفصل الرابع

تدخل اوربا في لبنان

اتفاق ٥ ايلول سنة ١٨٦٠

تعيين يوسف بك كرم قائمقاماً على النصارى

لما حدثت فتنة سنة ١٨٦٠ بعد فتن سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ أيقنت اوربا ان لا امان في لبنان ما زال للدولة امل بالغاء استقلاله ، وان السبيل الوحيد الى وضع حد لتلك الحال هو ان تعاد الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه : يقام عليها امير وطني تبنى حكومته على الكفاءة كما كانت الحال في الماضي لا على قاعدة الطوائف التي اوجدها الاتراك بعد سنة ١٨٤١ ، وان تكفل الدول تلك الامارة وتضمن استقلالها بمعاهدة دولية تقطع آمال تركيا فتهدأ البلاد ويرقى لبنان ...

ولقد اتمت الدول نصف مهمتها : فكفلت نظام لبنان بمعاهدة دولية . الا انها لم تقم عليه اميراً ولا اعطت لبنان حدوداً كافية ولا نزعت القاعدة الطائفية . ولذلك فهي لم تبلغ الا نصف الغاية المنشودة : فهدأت البلاد ، الا ان الترقي كان ضئيلا او معدماً ...

وبالنسبة لعلاقة فرنسا بلبنان كما تقدم باشرت الحكومة الافرنسة المحابرة مع الدول بشان التدخل في لبنان . فارسل وزير خارجية فرنسا المسيو توفنل بتاريخ ٦ تموز سنة ١٨٦٠ تعليمات بهذا المعنى الى سفراء دولته في لندره وفينا وبطرسبرج وبرلين ليعرضوا على تلك الدول راي حكومة الامبراطور بارسال لجنة الى لبنان قوامها مندوبو الدول والباب العالي لدرس الانظمة الواجب وضعها صوناً لحقوق لبنان واحتفاظاً بالامن والنظام في بلاد لا يمكن اقلاق راحتها «دون تعريض السلم في الشرق الى خطر عظيم»(١)

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٦٦

الكتاب الازرق الانكليزي في حوادث سوريا سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦١ عد ٦ ص ٣ و ٤

دي تسنا عد ٣٦ ص ٨١ و ٧٣

وكتب المسيو توفنل الى سفيره في الاستانة رسالة بالمعنى والتاريخ ذاتهما يشير عليه بمفاوضة الباب العالي في الامر . وعلى اثر تلك المفاوضة ارسل السلطان عبدالمجيد الى الامبراطور نابوليون الثالث رسالة عن قصر طوله بغجه بتاريخ ١٦ منه اكد له فيها عزمه على قضاء واجراء العدل في لبنان ، ومما جاء فيها قوله : « ولكي لا يبقى ادنى ريب في نيات حكومتي قد شئت ان اعهد بهذه المهمة الخطيرة الى ناظر خارجيتي (فؤاد باشا) المعروفة اراؤه لدى جلالتكم » (١)

وفعلا ارسل السلطان فؤاد باشا الى سوريا بفرمان يطلق فيه يده في مسائل لبنان وسوريا وقد احتفل بتلاوته في بيروت في ١٩ تموز من السنة المذكورة (٢)

وبعد مفاوضات طويلة اتفقت الدول ايضاً على شكل تدخلها ، وكان ذلك في جلسة عقدها مندوبوها في باريس

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٦٨ . دي تستا عد ٣٧ ص ٨٣ وعد ١٣ ص ١٠ وعد ٣٤ ص ٢٢

(٢) المحررات ج ٢ ص ١٧٣ . الكتاب الازرق عد ٦٥ ملحق ٢ ص ٤٣ . ٤٠ ودي تستا عد ٤٤ ص ١٩٠

بتاريخ ٣ آب سنة ١٨٦٠ ذكروا في محضرها اتفاقهم: واهم ما فيه ان فرنسا ترسل نصف الحملة العسكرية المتفق عليها وان احتلال الجنود الاوربية لا يزيد على ستة اشهر.

وحتى لا تقوم ريبة في النفوس في مقاصد احدى الدول من التدخل في شؤون لبنان اعلن معتمدوها في الوقت ذاته «تجردهم عن كل غرض وصرحوا بصورة علنية قاطعة بان الدول المتعاقدة لا ينوين ان يطمحن وان يطمحن ابداً في اثناء اجرائهن عهودهن الى الاستيلاء على بعض اراض او اكتساب نفوذ خاص ...» (١)

وعلى هذا الاساس سافرت الحملة الافرنسية الى لبنان وقوامها الالاي الخامس بامرة الكولونيل كوبر. والالاي الثالث عشر بامرة الكولونيل داريكو. والسرية الاولى من فيلق الفرسان الاول بقيادة اليوزباشي ستوكلي. وعلى هذه الحملة المركيز دي بوفور قائد عام. فبلغت بيروت في ١٦ آب. (٢)

ولم تلبث ان تبعتها اللجنة الدولية فاجتمعت لاول

---

(١) المحررات ج٢ ص ٢٤٢ ودي تستا عدد ٤٢

(٢) المحررات ج٢ ص ٢٥١ وص ٢٨١

مرة في بيروت في ٥ ت ١ سنة ١٨٦٠ وهي مؤلفة من المسيو وكبكر عن النمسا، والمسيو بكلار عن فرنسا، واللورد دوفرين عن بريطانيا العظمى، والمسيو رهفوس عن بروسيا، والمسيو نوفيكوف عن الروسيا، وكان فؤاد باشا يمثل الحكومة التركية (١)

وفي تلك الاثناء اصدر فؤاد باشا امراً بتعيين يوسف بك كرم قائمقاماً على النصار عوضاً من الامير بشير احمد اللمعي، تاريخه ١٧ ت ٢ سنة ١٨٦٠ ووجه اليه رتبة قبوجي باشي (٢)

وقد سار فؤاد باشا في لبنان على سياسة تخالف وعود الباب العالي وتعهداته وتزيد في حرج الحال، فهو بدلا من ان ينزل العقاب الصارم بعمال الدولة مثيري الفتن ومسببيها ويعمل على تضميد جراح الاهالي، اخذ يسعى لتبرئة

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٣٦٢

(٢) المحررات ج ٣ عد ٢٤

ساحة اولئك العمال الجسام ويستعيض عنهم ببعض من الاهالي فيصدر عليهم الاحكام الشديدة فيزيد بذلك تنافر القلوب وحفيظة النفوس ، فاستنتج « المندوبون » من هذه الاعمال ان في الامر خداعاً من الباب العالي. فهو يعد شيئاً ويسر شيئاً آخر . وقد شهد بذلك اللورد دفرين في رسالة له الى سفير انكلترا في الاستانة جاء فيها ماترجمته : « ان لدي من المعلومات ما يثبت ان الباب العالي يرسل الى فؤاد باشا تعليمات تخالف الخطة التي كان تعهد باتباعها ، فان حكومة الاستانة هي التي اوحت اليه تبرئة خورشيد باشا وسائر الاتراك في مقابل قتل ٣٠ شيخاً من الدروز . » (١)

اما اللجنة الدولية فقد عقدت جلساتها في بيروت من ٥ ت١ سنة ١٨٦٠ الى ٥ ايار سنة ١٨٦١ ، فاضاعت معظم تلك الجلسات في البحث في منشأ الفتن واسبابها وفي تقدير الخسائر التي ألمت بالاهالي ، ولم تصل الى الغرض الجوهري وهو سن نظام جديد للبنان يكفل له اعادة امارته المستقلة وتوحيد الحكومة وتوسيع الحدود الا وقد سئم المفوضون

(١) دي لا جونكيار ج ١ ص ٦٦٦

الجدل حتى اصبحوا وهم يتوقون الى الانتهاء على اي وجه كان ، لاسيما وجو السياسة آنئذ مكفهر متلبد فما يريده الواحد يأباه الآخر ، حتى انتج سأمهم واختلاف نزعاتهم بضعة مواد سموها نظام لبنان الاساسي .

وقد أرسلت هذه المواد الى الاستانة لعرضها على السفراء والباب العالي . . فشكل السفراء ومفوض الباب العالي مجلسا لاعادة النظر في النظام ، مؤلفاً من عالي باشا عن تركيا ، والسر هنري بولفر عن انكلترا ، والمسيو لافالت عن فرنسا ، وبرو كش اوستين عن النمسا ، وجولتز عن بروسيا ، ولوبانوف عن روسيا

وبعد مباحثات طويلة ، عادت كل دولة الى الرأي الذي كانت دافعت عنه بواسطة مندوبها في لجنة بيروت ، وتوفقوا اخيراً الى الاتفاق على نظام لبنان الاساسي الاول في ٩ حزيران سنة ١٨٦١

ولم يكد ذلك النظام يوضع موضع التنفيذ حتى ظهرت عيوبه وثبت نقصه مما اضطر الدول الى النظر فيه سنة ١٨٦٤ فكان من ثم نظام لبنان الاساسي الثاني وهو

لا يفضل سابقه كثيراً، الاّ انهُ اقل تعقداً واكثر مرونةً: فقد ساعد على الراحة في لبنان لكنهُ لم يتمكن من ترقيتهِ سياسياً واقتصادياً

ولم يخفَ على اللبنانيين ما في ذلك النظام من النقص والحيف فاحتجوا عليه منذ اعلانهِ. ولئن قضت السياسة الدولية فيما مضى بعدم تلبية اللبنانيين الى كل مطالبهم فلا شك في ان مؤتمر الصلح يعيرهم التفاته وينفي عنهم ظلماً حملوه دهراً طويلاً وهم صابرون عليه آملين ببارقةٍ مازالت تلمع امام عيونهم في الافق البعيد وهي تقترب منهم شيئاً فشيئاً حتى باتوا وهم يرونها اليوم في يد قادة العالم المتمدن مشعلاً وضاءً يُطلون بهِ من قمة جبل العدل فينيرون ظلمات الشعوب الضعيفة ويحيون ميت آمال الامم المغلوبة على امرها، فينال لبنان حقه من الاستقلال ثمناً لدماء عزيزة أراقها اللبنانيون على ممر الاجيال.

وكأن ارواح اولئك الشهداء لا تزال ترفّ في سماء ارزه الخالد تملأ الفضاء هيبةً واسراراً تهيب بابناء اليوم ان يصونوا إرثاً مقدساً تركه الجدود وديعةً وامانةً بين

ايديهم فليس لهم ان يضيعوه في ساعة اضطراب عصبي ، بل عليهم ان يحتفظوا بهِ فيخلفوه للابناء والاحفاد : انما الاحتفاظ بحق موجود أسهلُ وأسلم من السعي لاسترجاع ذلك الحقِ بعد اضاعته . . .

انتهى القسم الاول

القسم الثاني

لبنان والقانون الدولي العام

لبنان بعد معاهدة سنة ١٨٦٤

لبنان والقانون الدولي العام

بيان واجب

في الانسان سليقتان متناقضتان : حب الحرية لنفسه والنزوع الى استعباد غيره ، وبمعنى آخر سليقة الدفاع عن حقوقه والرغبة في توسيع دائرتها ، وسليقة التهجم على غيره والسعي الى تقصيرها . وتفادياً من الفوضى توصل الناس الى ربط حقوق بعضهم وواجباته ، بحقوق البعض الآخر وواجباته ، لانهم رأوا ان الهيئة الاجتماعية لا تقوم الا على هذا الاساس

ومن ثم قالوا أن حرية الواحد تحدها حرية الآخر ، وان حقوق الفرد تنتهي حيث تبتدي حقوق الجماعة

وعلى هذه القواعد وضعت الانظمة في العالم

واجراء لتلك الانظمة رأوا انه لابد من ايجاد قوة اكراهية ترغم الفرد على التزام حده فلا يتعداه الى اهتضام حقوق غيره

فكانت من ثم الحكومات المتمدنة بالشكل الذي نراها عليه في البلاد الراقية : فهيئة لسن القوانين ، وهيئة

للحكم بمقتضاها ، واخرى لتنفيذها

وهـذه السلطات الثلاث : الاشتراعية والقضائية والتنفيذية ، هي الالة التي تدير كل حكومة وكل دولة وكل امة ، بل هي اساس الهيئة الاجتماعية في العالم

وما يصح عن الافراد في علاقاتهم بعضهم ببعض ، يصح مثله على الدول في علاقاتها مع بعضها : فكل دولة تميل بحكم الطبع الى توسيع ملكها من ملك الاضعف منها. لذلك كانت الحروب بين الدول ، واساسها طمع القوي بالضعيف وتهجم الكبير على الصغير .

وكما اضطرت كل بلاد متمدنة الى وضع قوانين خاصة تحمي حقوق الافراد ، هكذا اضطرت الدول الى الاتفاق فيما بينها على قواعد عامة من شأنها ان تمنع الفوضى بين الامم فتحمي الامة الصغيرة من الكبيرة ، وتصون كيان الحكومة الضعيفة من عبث الدولة القوية . فكان من ثم ما يسمونه « قانون الدول العام » وهو مجموعة اتفاقات ومعاهدات عامة : منها ما وضع لحماية الشعوب الصغيرة ، ومنها ما سن لتنظيم العلاقات والمعاملات بين الدول . وقد أخذت كل دولة على نفسها احترام ذلك القانون صوناً لحقوق

الجميع على السواء عملاً بالمبدإ القائل : إن حقوق الواحد تنتهي حيث تبتدي حقوق الآخر ، سواء في ذلك الفرد والامم ..

وقد وصلت الدول كالافراد الى ايجاد السلطة الاشتراعية وهي المؤتمرات التي تجمع مفوضي الدول فتضع القوانين الدولية . والسلطة القضائية وهي مجالس التحكيم التي تقضي بين الامم بموجب القانون الدولي العام

ولم يتوصلوا بعد الى ايجاد سلطة تنفيذية تكره الدول على احترام الاتفاقات والمعاهدات ، وهي غاية يسعى لتحقيقها اقطاب العالمين في محاولتهم انشاء «عصبة الامم» فتقيم صرح السلام في الدنيا على قواعد لاتتزعزع ، فتصبح كل دولة مهما قويت شوكتها مرغمة على احترام القانون الدولي شأن الفرد وهو خاضع لقوانين بلاده مهما اشتد ساعده واتسع جاهه وكثر ماله

ان مستقبل السلام في الدنيا موقوف حتماً على القانون الدولي العام لان العالم كان منذ الازل ولن يزال الى الابد مقسوماً الى ممالك ضخمة قوية وشعوب صغيرة ضعيفة . فلا منجاة في الحالة هذه من قانون يكفل للامة الضعيفة حقوقها

من بطش الدول القوية ، ولا بد من سلطة ترغم تلك الدولة على التزام حدها

ان كل الامم تتساوى في حاجتها الى هذا القانون والاحتماء بظله كبيرة كانت او صغيرة . فما من دولة قوية الا وتجد اقوى منها ، وما من امة ضعيفة الا وترى اضعف منها ، فكل امة إذن على نسبتها ، في حاجة الى القانون الدولي العام كحاجة غيرها اليه ، لاتغني الدولة عنه اساطيلها وجيوشها .

فاذا تقرر ذلك تساوى مركز الامم ضعيفها وقويها من جهة الحرية والاستقلال ، فلا ينال الاستقلال من يقدر على الاحتفاظ به بنفسه فقط ، بل يناله ايضاً من يكفل له قانون الدول حريته واستقلاله .

فالحرية حق طبيعي للفرد وللامم ، فهي القاعدة وغيرها الشاذ . . .

ذلك هو المبدأ الشريف الذي من اجله تطاحن العالمان بالامس . مبدأ حرية الشعوب واستقلال الضعيف منها والقوي . وبفضل هذا المبدأ الشريف تعود بلجيكا وسربيا مثلاً الى استقلالهما وتظلان على رغم صغرهما بالنسبة لجاراتهما أمتين

حرتين ومملكتين مستقلتين لاسيطرة للاجنبي عليهما بل تكونان وامثالهما من الامم الصغيرة في حمى قانون الدول العام او « عصبة الامم » (١)

وبفضل هذا المبدأ عينه يكون للبنان على صغره وضعفه حق الحرية والاستقلال كما كان له ذلك من قديم الزمان بكفالة عصبة الامم ايضاً ، اللهم بغير سيادة اجنبية أكره على قبولها في الماضي لاسباب لاتتفق اليوم مع ذلك المبدأ الشريف الذي تموت في سبيله الملايين تحريراً للشعوب وضمانة لاستقلالهم الصحيح .

وضع نظام لبنان الاساسي لاول مرة في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ وهو يحتوي على سبع عشرة مادة جعلت اساساً لادارة الحكومة ، وكلف دادو باشا بتجربة تنفيذه مدة ثلاث سنوات وفي نهايتها اشار الباشا بادخال تعديلات عليه فقبل بضعها وأهمل البعض الاخر ونشر النظام الحالي في ٦ حزيران سنة ١٨٦٤ وهو مؤلف من ثماني عشرة مادة .(٢

---

(١) وهكذا حصل فعلاً في مؤتمر الصلح (تعليق الطبعة الثانية)

(٢) اهم ما ادخل على النظام الجديد من التعديلات : الغاء مجلس الطوائف لدى الحاكم، وتغيير النسبة في تشكيل مجلس الادارة

اذا نظرت الى النظام من حيث القانون فهو يثبت مبدأ الاستقلال الداخلي، بمعنى انه شكل حكومة مستقلة تمام الاستقلال في ادارة الشؤون الداخلية ولم يترك للدولة مجالا للتدخل في تلك الشؤون بوجه من الوجوه. وغاية ما أبقى النظام للدولة من الحقوق في لبنان ينحصر في مسألة تعيين الحاكم العام، على ما ابرقه السير بولفر الى اللورد روسل في ١٢ حزيران سنة ١٨٦١. قال ما ترجمته:

«ان حق الباب العالي بتعيين الحاكم يحفظ له شيئاً من السلطة على الحكومة، ومن المحقق ان ليس له غير ذلك من السلطة، لكنها ليست بقليلة.» (١)

اما اذا اخذت النظام من حيث قيمته بذاته وبحثت فيما اذا كان تدارك اسباب الانشقاق والتقهقر، ووضع قواعد لترقية البلاد واقامة حكومة فيها وطيدة الاركان، تبين لك انه من هذه الجهة نظام مبتور فيه من النقص

الكبير، وتعديل تقسيم البلاد الجغرافي، والغاء مجالس القائمقاميات، وتوسيع اختصاص المحاكم التجارية، وتخويل الحاكم سلطة تعيين القضاة بدلا من تعيينهم بمعرفة الرؤساء الروحيين، ومحاكمة الاكليروس امام المحاكم الاكليريكية وعدم السماح لهم بحماية الفارين.

(١) تستا: ج ٦ ص ٤٠٠.

الاساسي شيءٌ كثير

اجتمعت اللجنة الدولية في بيروت، ومهمتها الجوهرية سنُّ نظامٍ يضمن المستقبل للبنان الاّ انها اضاعت معظم جلساتها في : « البحث في اسباب الحوادث التي وقعت في لبنـان وتقدير الخسائر التي المت بالاهالي » ولم تصلْ الى مهمتهـا الجوهرية الا وقد سئم المفوضون الجدلَ ، فجاء نظامهم مبتوراً ناقصاً

ومن اشد عيوبه انه قرر اموراً وسهلَ إتيانَ اخرى كانت قاضية على لبنان، فضلاً عما أهمل تقريره من القواعد الاساسية :

جعل النظامُ الحاكم غريباً ومرجعه الى الدولة ، فقصرَ همَّ الحاكم والحالة هذه على خدمة مصالح الدولة صوناً لمستقبله . وجعل الطائفة قاعدةً للحكومة في كل مصالحها، فكان ذلك سبباً في قتل الروح الوطنية وتقطيع اوصال القومية اللبنانية . وقرر اخيراً ذلك الظلمَ الفاحش بحصر لبنان ضمن حدودٍ خانقة بما سلخ عنه من المدن والسهول كبيروت والبقاع

ولم يقف الامر على ما كان في النظام من النقص بل

بذل المتصرفون غاية جهدهم في التهجم على ذلك الشبح المهزول حتى اصبح كهلال الشك

وقد أهمل النظام كثيراً من القواعد الاساسية كحق الاشتراع وتشكيل وزارة ، مما زاد في تقلقل الحكومة واضطرابها

ولم يكن لبنان في نظامه الجديد الذي نشر في ٨ اذار سنة ١٩٢٢ باحسن حظاً منه في نظام سنة ١٨٦٤ . بل كان الامر بالعكس . والشعوب حظوظ (١)

تطور البلاد وجمود نظامه

رأيت في موجز تاريخ البلقان السياسي كيف تمشت الدول بممالكه من ايالات عثمانية الى ولايات مستقلة داخلياً

---

(١) في الطبعة الاولى من هذا الكتاب بحث في نظام سنة ١٨٦٤ . وقد رأيت الاستغناء عنه في هذه الطبعة لانني على اثر نشر نظام ٨ اذار سنة ١٩٢٢ وضعت كتابي « بين القديم والحديث » وفيه مقابلة بين النظامين يتضح منها ان نظام سنة ١٨٦٤ على علاته خير من النظام الجديد . فليراجع

حتى بلغت بها الى ممالك ذات استقلال مطلق ، في حين ان لبنان ظلّ ضمن نطاق لم تقطع حلقاته رغم ما بذله من الجهد وتكبده من الضحايا

واذا حاسبت الدول نفسها وجدت انها لم تحقق طيب الامال التي علقها عليها اللبنانيون كما هي حققت امانى اليونان والصرب والرومان والبلغار والجبل الاسود

فمن درس تاريخ البلقان السياسي (١) يستخلص منه نتيجتين : نتيجة خارجية ونتيجة داخلية :

النتيجة الخارجية :

اخضعت تركيا لسلطانها في من اخضعت من الشعوب أمم البلقان من يونان ورومان وصرب واهالي الجبل الاسود

ولم تستطع واحدة من تلك الامم ان تخلع نير تركيا عن عاتقها بغير معونة اوربا فلم تدخل الدول عليهن بالمساعدة الفعلية سياسياً وعسكرياً . وقد افتتحت اوربا مهمة تحرير البلقان بالمملكة اليونانية فارسلت انكلترا وفرنسا وروسيا قواتها البحرية والبرية لنصرة اليونان على تركيا وما زالت

(١) راجع ص ٧٢

حتى طردت الاتراك وضمنت لليونان حريتها التامة

واسدت مثل تلك اليد ال المملكة الصربية فاصبحت المملكتان بفضل اوربا، تتمتعان باستقلالهما المطلق بعد ان رزحتا اجيالاً تحت اثقال الحاكم التركي

ولم تعتبر الدول المحسنة ان مابذلته من المعونة لليونان والصرب يخولهما حق السيطرة عليهما بنوع من الانواع بل رأت ان عملها هو من قبيل الواجب في نصرة الحق على القوة واكتفت من اليونان والصرب بالثناء ومعرفة الجميل

الا ان الروسيا لم تفعل مثل ذلك مع الرومان

فهي لما اتاحت لها الظروف ان تساعد رومانيا على تركيا، زين لها حب التوسع والاستعمار ان تساوم رومانيا على استقلالها فلم تقلص ظل تركيا عن رومانيا حتى ادعت لنفسها الحق بالحلول محل العثمانيين معتقدة ان الرومان يحسبون سيادتها عليهم ونزولها في بلادهم نعمة وسعادة

ولم يتفق ذلك مع اماني الرومان وهم انما يتطلعون الى خلع نير تركيا للتمتع باستقلالهم المطلق لا لبدل سيادة بسيادة مهما كان نوعها واية كانت تلك الدولة السائدة. ولا

فرق عندهم بين تركيا وروسيا اذا هم فقدوا نعمة الاستقلال .

ولذلك لم يلبث ان تحول كره الرومان الى الروس حتى انفجرت ثورة سنة ١٨٤٨ كما رأيت في ملخص تاريخ البلقان السياسي في القسم الاول وأدّى انشقاق الرومان على الروس الى تحرير رومانيا الفعلي من اية سيادة كانت واعترفت الدول باستقلال رومانيا في معاهدة باريس كامر (١)

وقد كانت مسألة رومانيا امثولة كافية من هذا القبيل ، فاستفادت منها بلغاريا يوم انعتقت من ربقة تركيا ونالت استقلالها الفعلي التام بدون تدخل الاجنبي في ارضها

وهذا ما حدا بالدول في معاهدة برلين الى تفويض لجنة دولية بادارة الحكومة الموقتة في بلغاريا حتى تم انتخاب الامير واستلم مهام الحكم بحسب قانون بلغاريا الاساسي وانسحبت اذ ذاك اللجنة الدولية وسارت الامارة البلغارية من الاستقلال النوعي الى الاستقلال المطلق على ما رأيت

(١) راجع ص ٨٣

فالنتيجة الخارجية من تطور المسألة البلقانية هي ان المساعدة الخارجية لا تروق في اعين الامة الضعيفة الا اذا كانت تلك المساعدة مجردة عن كل غاية ، منزهة عن كل مصلحة ... والا فالمسألة عملية تجارية يعملها الفرد وتتعاطاها الشركات وتقدم عليها الدول جرًا لمنفعة وسعياً لغنم فلا فاضل اذ ذاك ولا مفضول ولا سبيل الى حسن الثناء ...

النتيجة الداخلية

يوم عزمت اوربا على تحرير البلقان لم يفتها ان للاستقلال شروطاً اذا توفرت لامةٍ فهي تبلغه حتماً ان آجلاً او عاجلاً

فحققت الدول للبلقان تلك الشروط فلم يلبث ان كللَ النجاح مساعيها ونالت ممالكه الاستقلال الواحدة تلو الاخرى .

ومن اهم تلك الشروط ان يكون الحاكم وطنياً كما حصل في صربيا والجبل الاسود ...

اما اذا دعت الحاجة الى تولية حاكم اجنبي فلا مندوحة من تصييره وطنياً بجعله حاكماً لمدى الحياة وجعل الحكم

لورثائه من بعده فتصبح البلاد والحالة هذه بلاده ومصالحها مصالحه كما لو كان وطنياً صميماً ، وهو ما حصل في اليونان ورومانيا وبلغاريا

ونتيجة كون الحاكم وطنيا او مستوطنا هي انه يعمل على توسيع حقوق البلاد التي وكل اليه امرها وعلى ترقية شؤونها مادياً وادبياً وسياسياً حتى يبلغ بها الى الاستقلال المطلق كما حصل فعلاً في البلقان

اما اذا كان الحاكم في بلد مسود اجنبياً ، وتوليته لمدة معينة ومرجعه الى الدولة صاحبة السيادة ، فهو يعتبر نفسه غريباً عن البلاد لا تضامن بين مصالحه ومصالحها فيتلكأ في خدمتها ولا يهتم الا بما فيه مصلحة الدولة صاحبة السيادة فيقصر ما امكن من حقوق البلاد المسودة .

وبدلا من السير بها الى الاستقلال ، يعمل جهده على تضييقه وتقليص ظله . وهو ما حصل للبنان في عهد المتصرفية .

وهنالك ايضاً مسألة «القومية الوطنية» . فلا تصل امة الى استقلالها ما لم يكن اساس الحكم فيها قائماً على الاهلية والكفاءة لا على العنصرية الطائفية .

ان في كل امة من امم البلقان عناصر مختلفة وطوائف متعددة لا يقاس اختلاف الطوائف الظاهري في لبنان بما بين عناصر البلقان وطوائفه من الحزازات والاحن المتأصلة في النفوس ، ومع ذلك فقد قررت قوانين البلقان الاساسية ان اختلاف العناصر والمذاهب لا دخل له في الحكومة والادارة ، ولعلّ الدول اعتبرت بما خبرته في لبنان من نتائج الطائفية فافادها اختبارها هذا يوم وضعت معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ فصرحت فيها ان قاعدة الحكم في بلغاريا تكون الاهلية والكفاءة رغم اختلاط البلغاريين في جهات عديدة بالترك والرومان واليونان وغيرهم .

فنتج على ذلك تمكين الرابطة القومية في البلاد والسير بها سيراً حثيثاً الى الاستقلال المطلق .

بعكس ما حدث في لبنان على اثر تقسيم البلاد وتنظيم الحكومة وتشكيل المحاكم بحسب الطوائف مما ادّى الى تفكيك عرى «القومية اللبنانية» وتقطيع اوصال «الوحدة الوطنية» فلم يعد اللبنانيون لبنانيين بل اصبحوا

موارنة ودروزاً وملكيين وارثوذكس ومتاولة الى آخر ما شاء النظام من مذاهب واديان ، فاتوا والحالة هذه لقمةً سائغة للآكلين فاستبد بهم المتصرفون ، ولعبت بهم ايدي السياسة ، واستفادت تركيا من انقساماتهم واختلافاتهم ما لم تستفده جيوشها في محاربتهم اجيالاً طوالاً .

وهنالك شرط ثالث للاستقلال لاغنى عنه لسلامة وهو ضمان حياتها الاقتصادية باعطائها حدوداً تكفيها للمعيشة . فاذا ضيقوا الخناق على شعب وحصروه ضمن حدود قاهرة أرغم خيرُ من فيه من اهل العلم والعمل على المهاجرة سعياً للرزق ، وظهر الاستقلال للجميع بمظهر حقير فيصبحون وهم ينظرون اليه نظرهم الى عدو مصلحتهم المادية وقاتل حياتهم الاقتصادية فيحقق بذلك الغرض الذي يكون قد سعى له اولئك الذين ضيقوا على الشعب حدوده ، ويكون هذا الشعب المسكين قد خدم عدوه من حيث لا يدري باعتقاده ان الاستقلال آفة بلاده ، والاستقلال براء من آفاتها ومصائبها .

فقضاء لحاجة البلاد اهتمت الدول باعطاء الممالك البلقانية حدوداً تكفل لها الحيوة الاقتصادية ، بعكس ما جرى في لبنان يوم ضرب عليه نطاق خانق بسلخ سهوله ومرافئه الطبيعية عنه .

وعليه فوطنية الحاكم وقاعدة الاهلية لا الطائفية في الحكومة ، وتوسيع الحدود الجغرافية ، تلك هي الشروط الاساسية التي تفكل للامة التدرج الى الاستقلال المطلق . فتوفرها للبلقان ساعدها على التطور الى الاستقلال ، وحرمان لبنان منها كان السبب الاكبر في جموده السياسي .

ان في الماضي لعبرة للحاضر في إعداد المستقبل وأقامته على قواعد تكون عوناً للبنان على النهوض ؛ لا ثقلاً يجره متعباً فيعيق خطاه في سيره الى قمة الرقي في عهده الجديد

لبنان بعد معاهدة سنة ١٨٦١

موجز تاريخ المتصرفية

—

لمحة اجمالية

—

افاق لبنان من حوادث ١٨٦٠ مقطع الاوصال مشتت القوى دامي الجراح عرضةً للاضطراب والمؤثرات ، فوجه اللبنانيون يومئذٍ جلَّ اهتمامهم الى مراقبة العقوبات التي يحكم بها على الجانين ، والى تقدير الخسائر التي نزلت بالمصابين ولم يكن عندهم من السكينة واطمئنان النفس ما يكفي للاهتمام بمسألة المسائل وهي سن قانون البلاد الاساسي .

فاغتنمت تركيا فرصة غفلتهم وتضعضعهم فلعب الداهية فؤاد باشا دوره المعروف فتساهل مع مندوبي الدول ماشاؤا

في أمر العقوبات والتعويضات ، محولاً كل قواه ودهائه الى القواعد التي تبنى عليها الحكومة في لبنان . على علم منه ان ذلك هو الجوهر وما سواه عرض لا يؤبه له .

وضع نصب عينه ان يهدم صرح الاستقلال في لبنان بتقويض اركانه من اسسها . فلا عائلة مالكة ، ولا قومية وطنية ، ولا حدود اقتصادية كافية . حتى اذا تم له ما اراد لم يعد للبنان من الاستقلال الا أثره ، وتصبح البقية الباقية شراً ووبالاً على اللبنانيين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . الى ان يأتي يوم يكون فيه اللبنانيون اول الناقمين على ذلك الاستقلال حاسبين انه هو علة مصائبهم وبلاياهم ، ناسين اصل الداء وجاهلين حقيقة الدواء . وهكذا كان . فأزيلت العائلة المالكة ، وبطلت الوحدة القومية ، وحرم لبنان حدوده الجغرافية . فكان كأنه طفل خنق في المهد وهو رضيع

رأيت في القسم الثاني ان النظام لم يوجب جعل الحاكم وطنياً فكانت النتيجة ان الحاكم كان دائماً غريباً . وبهذه الصفة كان يعتبر نفسه مأموراً عثمانياً ، جل اهتمامه واقصى امانيه ارضاء الدولة العاملة على محو استقلال لبنان ، فكان

عهدُ المتصرفية شوط مسابقة وزحام بين المتصرفين الى تحقيق رغائب تركيا . وقد ساعدهم على ذلك شطر البلاد مذاهبَ ، حتى فاق عهد المتصرفية عهدَ القائمقامية من هذا القبيل . فبدلاً من الاكتفاء بقسمة الشعب الى دروز ونصارى ، تفننوا بتشطيره الى طوائف عديدة ، فاصبحت كلُّ طائفة قائمة بنفسها لا تضامن ولا تآزر بينها وبين سواها من الطوائف ، ففقد اللبنانيون ميزة القوة والمنعة التي كان يضمنها الاتحادُ والاتفاقُ لأبائهم وجدودهم ، فاصبحوا ألعوبة بين ايدي ذوي المصالح المختلفة ، وتفشى فيهم داء التوظيف سعياً من افراد كل طائفة منهم الى استلام زعامة طائفتهم باستلام الوظيفة الخاصة بها ، مما لم يكن وجود لمثله قبل النظام

وفوق هذا وذاك كان حصر لبنان بين الصخور والوهاد والانجاد عاملاً كبيراً في حمل الناس على المهاجرة حتى ساوى اللبنانيون اليازحون عددَ اللبنانيين المقيمين ، وهو أمر لم يحصل في غير لبنان من بلاد العالم .

وبهذه الطريقة تمَّ للدولة ما ارادت : فمزقت شمل اللبنانيين وقطعت اوصالهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً حتى

اصبحوا اليوم وقد ضعفت وطنيتهم وهزلت قوميتهم ونزح خيرة شبانهم وانشطر رجالهم وهم يكادون يظنون ان استقلالهم هو اصل شقائهم وتأخرهم ، ولعل البعض اذا خيروا احسبوا انهم يخدمون بلادهم اذا هم لم يتشبثوا به .

ولم يعدم لبنان بعد تشكيل النظام من افراد دعوا قومهم الى تفكيك السلاسل وتكسير القيود ، وقد كان يوسف بك كرم أولَ اولئك الداعين فلم يجد من الدول تأييداً ، فاضطر الى هجر البلاد مرغماً .... وكان بعده يتصاعد في لبنان من حين الى آخر صوت داعٍ الى النهوض فلا تتجاوب الارجاء اصداءه ، حتى ضرب على البلاد سرادق كثيف من اليأس والخمول ... واذا بلغ اليأس من شعب مثل هذا المبلغ فصعب على افراده مهما عظمت وطنيتهم واشتد اخلاصهم ان يقيلوه من كبوته ..

غير ان « العناية » التي صانت هذا الشعب منذ الاعصر الاولى وحفظت كيانه واستقلاله رغم تقلب الغزاة والفاتحين في سوريا ، لقديرة ان تنفخ فيه روحاً جديدة وحياة ناهضة : ان في السويداء لقوة كامنة ، وبين اللبنانيين المقيمين والنازحين لرجالاً اكفاء ، اذا زعق بوق الوطنية

في وادي سباتهم العميق تغلغل دويّ صداه الى مكامن صدورهم فافاقوا من ضجعتهم وزحزحوا الجنادل عن مناكبهم ونفضوا الاكفان عن اجسامهم ونشطوا الى الحياة يجمعون اشتاتهم ويستعيدون مجد اجدادهم حتى كأنّ الله نشر الاموات من قبورهم ، انما الله يحيي العظام وهي رميم .

فلا يهمل لبنانَ الباسلَ الدامي صوناً وحرمةً لارزه المقدس

الفصل الاول

داود باشا (١٨٦١ — ١٨٦٨) «١»

ويوسف بك كرم

اتفقت الدول على تولية داود باشا في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ فصدر الفرمان بتنصيبه حاكماً عاماً على لبنان لمدة ثلث سنوات وبمنحه رتبة المشيرية، ولعلها اول مرة منح فيها مسيحي هذه الرتبة الرفيعة . وقد غادر داود باشا الاستانة في اواخر حزيران فبلغ بيروت في اوائل تموز حيث

---

(١) هو داود جرابيد ارتين ولد في الاستانة سنة ١٨١٨ من عائلة ارمنية كاثوليكية وتلقى العلوم في مدرسة زميرا الافرنسية ثم درس الحقوق واللغات وعين مدرساً للغات الاجنبية ثم دخل في سلك السياسة وكلف بمهمة لتركيا في برلين حيث وضع كتاباً في تاريخ القوانين الجرمانية وقد منحته اكاديمية العلوم في برلين لقب عضو شرف

قدمهُ فؤادباشا الى مفوضي الدول ؛ ثم اقيمت حفلة رسمية فخمة لتلاوة الفرمان في حرش بيروت حيث نصبت السرادقات والخيام وتلي الفرمان السلطاني بحضور وكلاء الدول ووجهاء البلاد وقد روى شاهد عيان لتلك الحفلة انه راى فيها يوسف بك كرم وهو واقف مستنداً الى سيفه وعلى وجهه سيماء الكآبة والتأمل .. (٢)

وفي اواسط تموز غادر دولته بيروت الى دير القمر حيث استلم مقاليد وظيفته . وقد لقي صعوبات جمة في اداء مهمته لاسباب عديدة منها عدم توفر المال اللازم . فان مبلغ ٣٥٠٠ او ٧٠٠٠ كيس المنصوص عنه في النظام لم يكن كافياً لاقالة البلاد من عثرة السنة الستين ولاجراء

سنة ١٨٤٥ ومنحته كلية ايانا لقب دكتور في الحقوق سنة ١٨٥٣ ثم دعي بعدها الى تولي ادارة البوستة والتلغراف في الاستانة فنجح في وظيفته نجاحا باهرا ومنها انتقل الى تولي حكومة لبنان . ويقال انه لم يطلع على نظام لبنان الاساسي الا وهو على ظهر الباخرة التي اقلته الى بيروت فقال انه لو اطلع عليه قبل توليته لما قبل الوظيفة الجديدة لما في النظام من النقص

(٢) *Souvenir de Syrie par un témoin oculaire* p. 294 et s

الاصلاح فيها كما تقتضيه الحال . ومنها ان النظام فرق الشعب اللبناني في كل المصالح الى طوائف ومذاهب لا سيما في اقامة مجلس وكلاء عن الطوائف الست لدى الحاكم فاضطر دولته الى عدم تنفيذ كل نصوص النظام لتعذر تنفيذ بعضها ولعدم ملاءمة تنفيذ البعض الاخر

ومما كان يزيد في حرج الحال وفي نفور اللبنانيين من الترتيبات الجديدة تولية حاكم اجنبي . فاللبنانيون لم يتعودوا ان يروا على بلادهم حاكماً غريباً ، ولما ولت الدولة عليهم عمر باشا قاموا في وجهه قومة واحدة فاضطر الباب العالي الى اقالته كما مر في القسم الاول (١)

ولم يكد يستقر المقام بداود باشا حتى شعر الوطنيون بما في تعيين الحاكم الاجنبي من خفضة لشأن لبنان ، ورأوا ان الاصلاح والرقي لا يتفقان مع وجود حاكم غريب لا تضامن ولا تآزر بين مصلحته ومصلحة البلاد ، فجرت في البلاد حركة نفور من شكل الحكومة الجديدة .

وقد ظهرت بوادر تلك الحركة في جهات الشمال على

---

(١) راجع ص ١٩٩

يد فتاها الباسل « يوسف بك كرم » ، فثار القوم هناك كما ثار اباؤهم من قبلهم سنة ١٨٤٢ على عمر باشا والغرض واحد في الحالين : اعادة الحكم الى الوطنيين .

ولم تكن ثورة كرم لتنجح الا اذا ايدته الدول كما فعلت سنة ١٨٤٢ اذ ساعدت اللبنانيين على عمر باشا ، ولم يكن بجهل « كرم » حاجته الى ذلك التأييد . لكنه بدلاً من ان يناله طلب اليه ان يخلد الى السكينة على ان يعاد الحكم الى الوطنيين لدى انتهاء مدة داود باشا سنة ١٨٦٤ .

فاذعن كرم وهجر البلاد في اواخر سنة ١٨٦١ منتظراً اتمام الوعد في حينه .

ولما انتهت مدة داود باشا سافر دولته الى الاستانة وترك الحكم في البلاد لوكيل رئاسة مجلس الادارة ، وهو يومئذ الشيخ عيد حاتم .

وقد جرت العادة بعد ذلك انه كلما خلي مركز الحاكم العام لسفر او لمرض او لوفاة كان يقوم مقامه وكيل رئاسة المجلس ، فاصبح الامر تقليداً متبعاً عمل به في كل عهد المتصرفية ، فكانت الحكومة اللبنانية في تلك الفترات حكومة وطنية بحتة . وهو تقليد تحسن مواصلة العمل

به في العهد الجديد

ولما وصل داود باشا الى الاستانة طلب من الدول بالحاح تعديل مواد النظام واعطاء لبنان حدوداً تمكنه من الحياة الاقتصادية ، ولج في وجوب دفع الخزينة فرق الميزانية للبنان . فاجيب الباشا الى بعض طلباته ، وأمضي النظام الجديد في ٩ حزيران سنة ١٨٦٤ ، لكنه لم يزد على حدود لبنان شيئاً .

واتفقت الدول في الوقت ذاته على تجديد المدة لداود باشا لخمس سنين اخرى فكان قرارهم في مسئلة التجديد مخالفاً للوعود التي وعد بها « كرم » ومخيباً لامال اللبنانيين

فلما علم « يوسف بك » بما كان ، عاد الى لبنان سنة ١٨٦٥ فثارت معه البلاد ثانية ، وفي هذه المرة ايضاً تغاضت عنه الدول ولم تؤيده فرنسا فاضطر الى الرجوع الى منفاه سنة ١٨٦٧ وتوفي في نابولي سنة ١٨٨٨

واليك بعض ما رواه المؤرخون عن حوادث « كرم » في لبنان : (١)

---

(١) عن الدبس ج ٨ عد ١١١٩ والمقاطعة الكسروانية ص ٣٦٥ وجوبلان ص ٤٨٣ ودي لاجونكيار ج ٢ ص ٨٢ .

راى « كرم » ان الجبل بعد الانظمة الجديدة لم يعد على هيئة عظمته الاولى فقام في وجه داود باشا لا طمعاً بوظيفة ، وقد عرض عليه داود باشا ما يريد فأبى ، بل قام دفاعاً عن استقلال لبنان واشفاقاً من ان يتولاه حاكم اجنبي خلافاً للمعتاد من قديم الزمان

« وقد توسط البعض من قناصل الدول لدى « كرم » واكدوا له ان تعيين الحاكم الاجنبي على لبنان مسألة وقتية تنتهي بانتهاء مدة داود باشا بعد ثلث سنوات ، وانه يحسن به ان ينتظر ريثما تنتهي هذه المدة فتعود البلاد الى استقلالها ويولى عليها حاكم لبناني

« وقد مكر فواد باشا « بيوسف بك » فدعاه الى بيروت زاعماً انه يريد مباحثته ، وهو في الواقع يريد ايقافه ، فوقع « البك » في الشرك واكره على مغادرة لبنان الى الاستانة .

« وكان سفره اليها في اواخر سنة ١٨٦١ ، ومنها انتقل الى برنابا بجوار ازمير منتظراً نهاية مدة ثلث سنوات . وعند نهايتها لم يتم ما كان أمل به « كرم » بل جدد الحكم لداود باشا . ولما عرف « يوسف بك » بذلك افلت من منفاه وعاد مسرعا الى البلاد فوصل الى ميناء طرابلس في منتصف ت ٢ سنة ١٨٦٤ وسار منها خفية الى زغرتا فدخلها ليلاً حين لم يكن احد ينتظر وصوله . وفي صباح اليوم الثاني ذهب الى المقبرة يصلي على قبر والدته وقد كانت توفيت اثناء هجرته ، فابصره الزغرتاويون جاثياً يصلي على القبر فعرفوه فبادروا اليه مهللين وذاع خبر قدومه في البلاد فاهتز له لبنان وامه

الناس افواجا من كل انحاء البلاد .

« وبناء على وساطة البطريرك ووجهاء البلاد لم يحصل بين الباشا وكرم ما يعكر صفو السكينة في بادىء الامر . غير ان دولته بعد ذلك ادخل الى لبنان عسكر الدولة خلافا لمنطوق النظام فعاد الاضطراب وقام يوسف بك في وجهه ثانية

« فرأى داود باشا انه لا يستقيم له الامر في لبنان « وكرم » فيه فسافر الى الاستانة سنة ١٨٦٥ مستنجدا .

« وفي تلك الاثناء ارسل قنصل فرنسا الى الاساقفة والاكليروس الماروني يبلغهم ان حكومة الامبراطور لا تؤيد « كرم » ابداً » (١)

« وفي اخر السنة المذكورة عاد داود باشا على الباخرة الحربية « لبنان » بعسكر عديد . وقد جعل مركز المتصرفية في شتاء سنة ١٨٦٦ في جونيه بالقرب من بكركي لاتهامه البطريرك بولس مسعد بمجاملة « كرم »

« وقد كان لداود باشا مع « كرم » مواقع مشهودة لا يزال ذكرها يملأ لبنان حتى الساعة ، منها ان داود باشا سير عليه في اوائل سنة ١٨٦٦ ثلاثة الاف مقاتل من جنود الدولة وعليهم القائد الفرنسوي « الطاب » . فقام « البك » من زغرتا الى بشعي ومعه نحو اربعمئة رجل . فاضطرمت نار الحرب بين الفريقين ساعات واسفرت الواقعة عن انتصار « كرم » فرجع عسكر داود باشا مدحورين الى طرابلس ونهم « الكرميون » شيئا كثيرا من سلاحهم فاستعانوا به على حربهم

---

(١) *De la Jonquiere T, II. P. 29,*

في مواقع اخرى .

« واحتاطه مرة في نبع جوعيت نحو الف رجل فانحدر امامهم في وادي النهر جهة مزيارا واتبعه الرجال على ضفتي الوادي . فلما بلغ الكمين وايقن ان لا مناص له صاح باصحابه وكانوا نحو خمسة عشر رجلا : [سيوفكم يا ابطال] واستل سيفه ومشى على القوم المشتبكين في الطريق وحوله رجاله فارتاع الكامنون وانحسروا عن طريقه واجتاز بينهم ومضى

« وفي سنة ١٨٦٧ خرج كرم في البلاد داعيا قومه الى النهوض فتالبت اليه الجموع الغفيرة فسار برجاله الاباسل زاحفا على بيت الدين . وقد مر في جبة بشري وبلاد البترون وجبيل وكسروان والجماهير تهتف له ونخبة الشبان الاشداء ينضمون اليه حتى بلغ بكفيا في اواسط كانون الثاني فدخلها ليلا وبات فيها مع معظم رجاله

« وفي صباح اليوم الثاني كان يسمع القداس في كنيسة مار عبدا فاذا باحد رجاله مسرعاً يخبره ان القتال انتشب في وادي الصليب بين رجاله والعسكر النظامي . ويروي الذين كانوا جاثين بقربه من اهالي بكفيا ان البك لشدة تعبده لم يشأ ان يترك الكنيسة قبل نهاية القداس فقال للكاهن المصلي : « عجل » وظل جالساً ريثما انتهى القداس فخرج من الكنيسة وامتطى جواده فانضم الى رجاله شبان من بكفيا وساروا جميعاً الى ملاقاة العساكر . وما لبثوا ان شارفوهم فجرت بينهم [وقعة وادي الصليب] فاستبسل فيها كرم ورجاله استبسال الاسود ولم تنل منهم العساكر منالا . وبينما القتال على احره وصل الى البك الشيخ صليبي كنعان الخازن موفدا من قبل قنصل

فرنسا فاوقف القتال وخلا الشيخ صليبي بالبك وقال له [ان فرنسا تريد منه ان يكف عن القتال والا فهي قد عزمت العزم الاكيد على تأييد داود باشا وان القنصل متفق على ذلك رأياً مع البطريرك وهو ينتظره في بكركي عند غبطته ويطلب موافاته الى الكرسي حالا]

« فلما نظر يوسف بك الى الاحوال المحيطة به وعلم ان من كان يعتمد عليهم قد تخلوا عنه . ايقن انه يضحي برجاله الابطال على غير جدوى ، فحقناً لدمائهم واشفاقاً عليها من ان تطل هدراً ، راى ان يغمد سيفه مكرها ويومن رجاله ، على ان لا يقيم بعدها في بلاد فقدت استقلالها وهو قد عجز عن استعادته لها . .

وفي ١٨ ك٢ سنة ١٨٦٧ اجتمع يوسف بك بالقنصل والبطريرك في كرسي بكركي فاسفرت تلك المقابلة عن تسليم يوسف بك للاسباب المتقدمة . . »

قد لا يُعرف يوماً ما جاش في صدر « يوسف بك » في تلك الساعة من عواطف الحنق والغضب واليأس ، وما قد قد يكون جاهر به من التعتب والتعنيف ، وما أسرّ به الى محدثيه عن واجب يقضى وعن أمل يُرجى . .

في ذمة الله ما اعلن وما اسر في تلك الساعة الخطيرة . وعلى كل فلم يخرج « كرم » من تلك المقابلة الا وقد قضي الامر . . على ان لبنان لا يزال يهتز لاسم « كرم » ويقدّس

اهل الشمال رفاته وذكره ..

لم يفعل « كرم » في لبنان غير ما فعله قره جورج في الصرب ، وايبسيلنتي في اليونان : (١) هنا وهناك ثار الوطنيون سعياً للاستقلال ، وهنا وهناك تدخلت اوروبا في الامر ، غير ان تدخلها في البلقان اسفر عن استقلال ممالكه ، وتدخلها في لبنان أفضى الى ضياع استقلاله : ان لله في خلقه شؤوناً ؛ والامم كما للافراد حظوظا وجدوداً (٢)

---

١ راجع ص ٧٧ وما يليها

٢ في اليوم الثاني اي في ١٩ ك ٢ سنة ١٨٦٧ نزل يوسف بك كرم الى بيروت فخرجت الجماهير الى لقائه يشق عنان السماء دعاؤهم له ، وقد روي من حضر ذلك الملقى انه لم يسبق حصول مثله في بيروت

اما (البك) فلم يقم فيها طويلا . ففي اوائل شباط غادرها الى مرسيليا ومنها ابحر الى الجزائر ثم جاء باريس حيث قابل وزير خارجية فرنسا وتحدث معه ملياً ، غير انه خرج من تلك المقابلة غير راضٍ . فغادر فرنسا ولم يعد اليها .. ومنها سار الى بادجكا ثم الى رومه وكورفو ، واخيراً اتى نابولي فتوطنها الى اخر ايامه . وقد زاره في نابولي سيادة (الدبس) وعرض لديه باسم كامل باشا الصدر الاعظم اصلاح ذات البين بينه وبين الدولة على ان يكون يوسف

اثرت تلك الحوادث في مركز داود باشا تأثيراً سيئاً فشعر بعدها بانحراف الناس عليه ونفورهم منه في حين انه لم يكن بوسعه ايقاف ذلك التيار باجراء الاصلاح في البلاد وتحويل الافكار الى المنافع العمومية والرقي الاجتماعي، ولبنان على ما هو عليه من عجز في المالية، وضيق في الحدود، وحواجز بين الطوائف تساعد على الانشقاق والاختلاف، فطلب من الباب العالي طلبات تمكنه من معالجة الداء والحّ في طلب منافذ لبنان الطبيعية الى البحر كطراباس وبيروت وصيدا، فابت عليه حكومة الاستانة كل مساعدة، جارية في ذلك على سياستها القديمة القاضية بالتضييق على لبنان ما امكن، وما زالت به حتى اضطرته الى الاستعفاء سنة ١٨٦٨.

بك قائمقاماً او متصرفاً على احدى مدن سورية خارجا عن لبنان، فابى (كريم) كل وظيفة موثراً ان يقضي مابقي من حياته في الغربة. وهكذا كان. فانه توفي في نابولي سنة ١٨٨٨ ودفن في احدى مدافنها ولم يحنط. وبعد ١٥ شهرا تقريبا ارسل البكوات ابناء اخيه من اتى برفاته الى وطنه فجاوا به الى اهدن حيث لا يزال موضوع اجلال الناس يحجون اليه ويتبركون منه

وفي مدته جرى نظام التسجيل في المحاكم اللبنانيـة ، وحصل لبنان على ايراد البقاع من اصل المطلوب له من خزينة الدولة ، وجرى فتح ٧٠٠٠ متر من طرق العربات ، واشترت الحكومة سراي دير القمر من ورثـة الامير الشهابي ، ثم سراي بيت الدين بمبلغ ١٢٠٠ كيس من ارملة الامير بشير ، واصبحت بيت الدين منذ ذاك الحين مركز الحكومة الرسمي صيفاً

وكان معاش داود باشا ٧٠٠٠٠ غرشاً شهرياً

الفصل الثاني

من فرنسوا باشا الى اوهانس باشا

تمتع لبنان في هذه المدة بكثير من الراحة والسلام غير ان اللبنانيين شهدوا فيها خرق الامتيازات في مواطن عديدة، وركود التقدم والرقي من الوجهة الاقتصادية. فكانوا من حين الى آخر يرفعون اصوات الاحتجاج ثم لا تلبث ان تخفت اصواتهم لعدم وجود من يؤيدهم، فيخيم السكوت على البلاد بينما المهاجرة تنهش أحشاءها وتجلي عنها ما فيها من علم ونشاط، حتى اصبح سكون هذا العهد أشبه شيء بالاستسلام. ولعل ذلك عقبى طبيعية لعهد الاضطرابات السابق. او بالاحرى عاقبة يأس اللبنانيين بعد جهادٍ طويلٍ غير مجدٍ، ونتيجة فسادِ النظام الاساسي ونقصهِ.

منذ الفتح العثماني ترى لبنان يسعى للاستقلال فتذهب مساعيه سُدىً : ففي اوائل الجيل السابع عشر ثار فخر الدين على الدولة وحاربها زهاء ربع قرن . وفي آخر الامر خانه الدهر ، وحالت الظروف دون إنجاد حلفائه في اوربا له فقضى ولم يبلغ « الغاية »

وبعد مضي نحو من مئتي سنة أعاد الامير بشير الكبير عمل فخر الدين معتمداً هو ايضاً على حلفاء اقوياء . فلم يرد عنه محمد علي مقدراً ، ولم تدفع عنه فرنسا مكروهاً فانتهى الى حيث كانت نهاية فخر الدين من قبله .

وجرّب اللبنانيون يومئذٍ ان يسعوا لاستقلالهم من طريق أخرى فحولوا قواهم الى الدولة على ابراهيم باشا بناءً على الوعود والتعهدات التي اعطوها ، وبعد ان تمّ النصر للدولة على يدهم ، ذهبت كلّ تلك الوعود والتعهدات ادراج الرياح . . .

وقام اخيراً « يوسف بك كرم » حاسباً ان الوقت قد حان لانصاف لبنان ، فلم يكن أسعد حظاً ممن تقدمه . فخاب فأله وكسر سيفه ، وكسرت معه قلوب اللبنانيين بعدما رأوا ان في كل مرة يقلب جهادهم وبالاً عليهم .

وكأن سلسلة تلك العبر المفجعة لم تكن كافية حتى بلوا بذلك النظام الاساسي فاجهز على وحدتهم ورقيهم ..

تلك امور اذا طرأت على بلاد تكفلت باخمادها على الهمم واضعاف أقوى الشعوب ، فخدوشها في لبنان يشفع به لدى المفكر المنصف اذا شاء ان يصدق حكمه على هذا نصف القرن الاخير ، بل يفسر في لبنان جموداً ما كان ليتفق مع ذكاء اهليه ونشاطهم .. ان هي الا هجعة وتنقضي فللأمم ضجعات تفيق منها وتنشط الى تحقيق غايتها بهمة أمضى وعزم اشد ، وفي بوادر النهضة القومية والحركة الفكرية التي ظهرت في اواخر المتصرفية لفأل يبشر بحسن المآل ..

فرنقو باشا (١٨٦٨ — ١٨٧٣) (١)

بعد استعفاء داود باشا تم الاتفاق بين الدول والباب العالي على تولية فرنقو باشا لمدة عشر سنوات ؛ ووقع البروتكول الخاص به في ٢٧ تموز سنة ١٨٦٨ ، وقد انضم يومئذٍ معتمد ايطاليا في الاستانة الى معتمدي الدول الخمس الكبرى وامضى معهم البروتكول المذكور . فكان ذلك فاتحة دخول ايطاليا في مصاف الدول الاوربية الكبرى ، واصبح نظام لبنان الاساسي في ضمانة الدول الست .

ومما يروى عن فرنقو باشا انه يوم استلامه فرمان التولية تعهد للسلطان عبد العزيز بالعمل على الغاء نظام لبنان .(٢)

وقد بدأ اعماله بان تنازل للدولة عن ايراد البقاع

وقبل نهاية مدته توفي في لبنان في ١١ شباط سنة ١٨٧٣ ودفن في الحازمية ، قرب بيروت على طريق الشام

وقد عمل في مدته ٥٩٥٠ متراً من الطرقات ، وانزل معاشه الى ٥٠٠٠٠ غرشاً شهرياً

---

(١) هو فرنقو نصري كوسا اصل عائلته من حلب

(٢) G. CHARMES, Voyage en Syrie, P. 264

رستم باشا (١٨٧٣ - ١٨٨٣) (١)

امضى مفوضو الدول ومفوض الباب العالي برتوكول رستم باشا في ٢٢ نيسان سنة ١٨٧٣ ورأت الدول ان اطالة المدة للباشا خير من تقصيرها حتى يتسنى له التفرغ للاعمال النافعة ولا يكون بعد مدة وجيزة تحت رحمة الباب العالي . فتم الاتفاق على توليته لعشر سنوات ايضاً .

اراد رستم باشا ان يمحي خزينة الدولة من دفع فرق الميزانية للبنان فخفض جعل الموظفين بادئاً بنفسه فانزل معاشه الى ٢٣٠٠٠ غرشاً شهرياً ، لكنه زاد معاش الجندية ، ولم يكف تنزيل المعاشات لسد فرق الميزانية ففرض على البلاد ضرائب عديدة ، مما ادى الى اضطراب الافكار وافضى الى الاختلاف الشديد الذي وقع بينه وبين سيادة المطران بطرس البستاني على اثر وضع ضريبة ورق التمغة وقد قامت البلاد تؤيد المطران بطرس في طلب المحافظة

---

(١) هو الكونت ماريانى من عائلة ايطالية شريفة كان قبلاً سفير الدولة فى روسيا ثم اصبح سفيرها في لوندره بعد مغادرته لبنان

على النظام ؛ غير ان رستم باشا عمد الى استعمال القوة بعد ان أمن معارضة سفير فرنسا ، وفي ٣١ ايار سنة ١٨٧٨ ارسل من الق القبض خفية على المطران . فثار من علموا بالامر وارادوا ان يتعرضوا للعسكر بالقوة فخشي سيادته وقوع ثورة قد لا تحمد عقباها لاسيما وفرنسا تؤيد الباشا ، فالح عليهم بالاخلاد الى السكينة . وقبل ان ينتشر الخبر كان سيادته غادر البلاد الى القدس حيث نزل ضيفاً مكرماً في بطريركية اللاتين

وقد اضطربت البلاد لهذا الحادث وثارت الافكار في كل مكان . ثم بذلت المساعي فعدلت الحكومة الافرنسية رأيها . وقبل مضي ستة شهر صدر الامر برجوع سيادته . فقام من القدس الى يافا حيث اقلته باخرة افرنسية الى جونيه فوصلها في ٩ تشرين الثاني من السنة ذاتها (١٨٧٨) فاستقبله الناس باحتفال كبير . ومن هناك صعد الى كرسيه في بيت الدين بابهة واجلال نادرين .

وقد توصل رستم باشا بما احدثه من الضرائب الى اعفاء الدولة من دفع فرق الميزانية لصندوق لبنان .

ومنذ سنة ١٨٧٧ جعل مركز المتصرفية في غزير شتاء

وسنة ١٨٨١ بنى جسر نهر الكلب ، وهو على طريق قاطع بكفيا ما بين طاحون دير مار عبدا وطاحون دير مار الياس الراس .

وفتح طرقات تقدّر بنحو ٩٥٢٢٠ متراً

واصه باشا (١٨٨٣ — ١٨٩٢) (١)

وقعت الدول والباب العالي بروتوكول تنصيبه في ٨ ايار سنة ١٨٨٣ وجعلت مدة حكمه عشر سنوات ايضاً .

الغى واصه باشا نظام المحاكم اللبنانية وربطها بعدلية الدولة . وفي ايامه تفشت الرشوة في لبنان واصبحت آفة البلاد ، وفيها كثر التدخل في امر الانتخابات لمجلس الادارة واشتد الضغط على القضاة في اصدار الاحكام مما حمل اللبنانيين على تقديم الاحتجاجات الشديدة الى الدول الحامية وظهرت نتائجه في بروتوكول نعوم باشا .

ومما يذكر له انه اعار التفاته الطرقات فعمل منها في عهده ١٩٤٠٦٠ متراً

وقد توفي في اواخر حزيران سنة ١٨٩٢ قبل نهاية مدته ودفن في الحازمية ايضاً بجوار مدفن امرأته وبنته اللتين توفيتا في لبنان اثناء حكمه

---

١ واصه باشا الباني الاصل من قبيلة المردنيتي لاتيني المذهب

نعوم باشا (١٨٩٢–١٩٠٢) (١)

خلف نعوم باشا واصه باشا بمقتضى برتوكول تاريخه ١٥ آب سنة ١٨٩٢ وقد حددت مدته لخمس سنوات وجددت له في ١٤ آب سنة ١٨٩٧ لخمس سنين أخرى

وعلى اثر احتجاج اللبنانيين على خرق النظام في مسالة انتخاب المجلس وتغيير نظام العدلية والتدخل في المحاكم احتج سفراء الدول على ذلك ودونوا احتجاجهم في برتوكول تولية نعوم باشا حيث جاء ما ترجمته :

« وعدا ما تقدم ، راى ممثلو الدول انهم مضطرون ان يلفتوا نظر الباب العالي الى بعض تعديلات ادخلت على نظام لبنان ويطلبوا منه ان يتعهد في المستقبل بتنفيذ نصوصه مع السهر خصوصاً على ما يلي :

١ ان تجري انتخابات مجلس الادارة بكل ضمانات الاستقلال المرغوبة وان تحترم حقوق هذه الهيئة .

٢ ان تنظيم القضاء المشكل في نظام سنة ١٨٦٤

---

١ نعوم باشا زوج بنت فرنقو باشا وحلبي الاصل مثله

والذي غيره حكام لبنان بغير موافقة الدول ، يجب ان يعاد على قاعدة المواد ٦ و٧ و١٠ من النظام المذكور .

٣ ان تحترم الضمانات المعطاة للقضاة في المادة ١١ من النظام ذاته فلا ينقل هؤلاء الموظفون ولا يعزلون الا بعد تحقيق يتم بمعرفة مجلس الادارة .

اعلن دولتلو سعيد باشا ان الباب العالي يعتمد الطلب المذكور وانه سيوصي الحاكم باحترام نظام لبنان وتنفيذ كل نصوصه بامانة »

ورغم ما جاء في البروتوكول المذكور لم يغير نعوم باشا نظام المحاكم بل ابقاه مرتبطاً بعدلية الدولة

ويؤثر عنه انه كان مولعاً بانشاء الطرقات فقد شغل منها في مدته ما يقدر بنحو ٤٨٠٨٨٠ متراً .

وبنى سنة ١٨٩٧ سرايات الحكومة في جونيه وجزين وبحنس والبترون ، وبنى سراي اميون سنة ١٨٩٨

مظفر باشا (١٩٠٢ – ١٩٠٧) (١)

ولي مظفر باشا حكومة لبنان بمقتضى بروتوكول تاريخه ٢٧ ايلول سنة ١٩٠٢ وجعلت مدته خمس سنوات فقط

اثبت مظفر باشا باعماله ومظاهره الرسمية انه يعتبر نفسه اميراً مستقلاً، ويريد ان يعمل لمصلحة لبنان لا لسواها، وقد نشر في البلاد على اثر وصوله بيان الاعمال الآتية : (٢)

١ تعميرات وتشكيلات مجددة في مراكز المتصرفية وانشاآت جديدة ومد خط تليفون في الدوائر . (٢) وضع حدود فواصل بين الجبل والولايات . (٣) انشاء اساكل بحرية على الشواطئ اللبنانية تسهيلاً لدخول المراكب التجارية . (٤) تدابير لمنع المقامرة . (٥) مصور «خارطة» لكل قرية في كل ناحية وفي كل قضاء مبين فيها الاملاك واسماء اصحابها ومقدار مساحتها . (٦) تدابير لمنع التهريب (٧) تدابير لاصلاح المالية . (٨) تدابير لايقاف المهاجرة

---

(١) مظفر باشا اصله بولوني ومذهبه لاتيني من عائلة تشايكوفسكي

(٢) عن جريدة الاهرام الصادرة في ٢٤ ت٢ سنة ١٩٠٢

الى البلاد الاجنبية . (٩) اصلاح معاملات الانتخاب . (١٠) اعلان ميزانية الحكومة في كل شهر . (١١) اصلاح وتحسين الجندرمة . (١٢) اصلاح وتحسين المحاكم والمجالس على نمط خاص . (١٣) تعميم اصول انتقاعد وتأسيس صندوق في المتصرفية . (١٤) اصلاح مايتعلق بواجبات الدوائر والمأمورين . (١٥) تعيين خطوط المرور للطرقات الجديدة اللازمة . (١٦) استخراج المعادن . (١٧) توسيع الصنائع والحرف . (١٨) الاعتناء بالتحريج . (١٩) بناء بيت سكن للمتصرف

وقد يكون نفذ بيانه او بعضه لو لم يبله الله بخاصة وحاشية اضاعت اتعابه وافضت بـه الى الداء الذي اودى بحياته ، فخاب ما كان علق عليه من الامال

وقد توفي في صيف سنة ١٩٠٧ قبل انتهاء مدته بشهرين تقريباً فنقلت جثته الى الاستانة .

وفي عهده كثر انشاء الجمعيات السياسية

وبنى سراي الشويفات سنة ١٩٠٢ ، وسـراي انفه وغزير سنة ١٩٠٤ ، وسراي الجديدة سنة ١٩٠٥ ، وفتح من الطرقات ما يقدر بنحو ٦٧٠ ٢٢٢ متراً

يوسف باشا (١٩٠٧ — ١٩١٢)

على اثر وفاة مظفر باشا اتفقت الدول والباب العالي على تولية يوسف باشا ابن فرنقو باشا وجعلت مدته خمس سنوات ايضاً .

وفي ايامه نشر الدستور العثماني فتسرب التحمس به من الولايات الى لبنان حتى خطر على بال بعضهم ان ان يطلبوا ضم لبنان الى سوريا وارسال مبعوثين الى مجلس المبعوثان ، ولم تكد تظهر تلك الفكرة حتى اختفت امام هياج اللبنانيين في البلاد وفي الخارج ، متشبثين بكيانهم وامتيازاتهم لا يرضون بحال من الاحوال ، ان يتنازلوا عن مركز لبنان الخاص ، اسوة بما فعله اجدادهم سنة ١٨٤١ (١)

وقد امتازت مدة يوسف باشا بكثرة ما ادخل على لبنان من الانظمة والقوانين المخالفة للنظام اخصها قانون المطبوعات مما ادى الى احتجاج الصحافة اللبنانية واضراب

---

(١) راجع ص ١٩٢

اصحابها عن العمل مفضلين اقفال مطابعهم والغاء جرائدهم على الخضوع لقانون يخالف امتيازات لبنان ، وفي تلك الاثناء عمد شهيدا لبنان فيليب وفريد الخازن بعد ان اوقفا جريدتهما الارز ، الى خدمة القضية اللبنانية من طريق أخرى فعنيا بتعريب « المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن حوادث سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠ » فطبعا منها ثلاثة مجلدات ضخمة تتناول الحوادث حتى اذار سنة ١٨٦١ . وقبل ان يوفقا الى تعريب الجزء الرابع دهتهما الحرب فكانا من اول شهدائها واعزهم . ولا شك في ان نشرهما لتلك المحررات كان من اكبر العوامل على قتلهما .

ولم تذهب تلك الحركة الوطنية سدى فهاجت افكار اللبنانيين في لبنان والمهجر وانشأوا الجمعيات السياسية العديدة للدفاع عن امتيازات لبنان وقدموا مذكرات الى الدول الحامية يطلبون فيها بالحاح المحافظة على النظام واعادة لبنان الى حدوده الطبيعية وفتح مرافئه للبواخر التجارية مما ظهرت نتيجته في بروتوكول اوهانس باشا وقد عمل في عهد يوسف باشا من الطرقات ١١٨١٨٠ متراً .

اوهانس باشا (١٩١٢ — ١٩١٦) (١)

وقع بروتوكول تنصيبه في ١٥ ك ١ سنة ١٩١٢ وجعلت مدته لخمس سنين .

واهم ما فيه ان الدول فهمت اخيراً ان طريقة الانتخابات لمجلس الادارة لا تتفق مع اسباب الرقي فقر قرارهم على تعديلها شيئاً « فاوافوا على شيوخ القرى مندوبا عن كل مئة مكلف في كل بلدة يزيد عدد مكلفيها عن المئة » . والغرض من ذلك ان لا ينحصر حق الانتخاب في هيئة مشايخ القرى بل يتعداه نوعاً الى الاهالي لما كان في الاقتصار على المشايخ من المحذورات . ولم يكن هذا التعديل سوى علاج مسكن ، اما الدواء الوحيد فاطلاق حرية الانتخاب للشعب .

« واعطى البرتوكول دير القمر حق انتخاب مندوب عنها ، ونقل عضو جزين الدرزي الى الشوف »

---

١ هو اوهانس قيوجيان الارمني

وقد خطا البروتوكول خطوة في سبيل الحكم النيابي فقرر « احترام حقوق مجلس الادارة بان حذر ايقاف عضو من اعضائه الا اذا اجرى المجلس تحقيقاً اسفر عن استذناب ذلك العضو ». وقرر « وجوب عمل ميزانية باتفاق الحاكم مع المجلس »

ومن حسنات هذا البروتوكول ايجابه على الحاكم ان يقدم قبل نهاية مدته بعشرة اشهر تقريراً عن مالية لبنان حتى تتمكن الدول والباب العالي من اعادة النظر في المادة الخامسة عشرة من النظام الاساسي ، وفي هذه المناسبة تعمل تصفية نهائية عن حسابات السنين الماضية . » فالباب العالي اعترف صريحاً في هذا البند ان بين الخزينة وبين صندوق لبنان حسابات قديمة معلقة وانه يجب تصفيتها نهائياً . فللحكومة اللبنانية اليوم بمقتضى هذا البند ان تطلب تصفية الحسابات القديمة ودفع ما هو مستحق للبنان على الدولة (١)

(١) ابنت في الطبعة الاولى ص ٣١٩ ان المستحق للبنان على الدولة لا يقل عن ٧٩٠٥٠١ ليرة عثمانية ذهب

وقرر ايضا « ان القضايا التجارية تنظر في لبنان اذا كان المتقاضون كلهم لبنانيين »

واخيراً نص على زيادة عدد الجندية وجعلها ١٢٠٠ نفر واناطة تدريبهم بمعلم خاص .

ولما كان الباب العالي يخشى دائماً زيادة المصروفات في لبنان خوفاً من تحميل اعباء الفرق لخزينة الدولة جاء في البروتوكول انه « يجب الاهتمام حتى لا تكون المصاريف الجديدة حملاً ثقيلاً على ميزانية السلطنة . »

وقد نفذت بعض بنود هذا البروتوكول وأهمل تنفيذ البعض الآخر كعمل ميزانية وتعليم الجندية ؛ وقبل انتهاء مدة اوهانس باشا وتصفية الحسابات القديمة مع الدولة ، شهرت الحرب بين تركيا والحلفاء وخرقت الدولة امتيازات لبنان واحتلته عسكريا ، ثم عزلت اوهانس باشا سنة ١٩١٥ وعينت مكانه علي بك منيف ، ثم استبدلته باسماعيل حقي بك في اواخر سنة ١٩١٦ .

وقد ذاق لبنان الامرين في هذه المدة سياسياً واقتصادياً : فقتل الاتراك من خيرة ابنائه من قتلوا ونفوا من اكليروسه ووجهائه من نفوا ، وضيقوا الخناق على

البقيه الباقية فيه فسدت عليها المسالك من كل الجهات فدخل الجوع منازل الاغنياء كما قبض على رقاب الفقراء. وتفشت الامراض والاوبئة بينهم . ونزلت بهم المصائب والبلايا على انواعها ، حتى باد على اقل تقدير نصف سكان لبنان ، وهي نسبة لم يُفجع بمثلها شعب من شعوب الدول المحاربة.

ولئن قيس الجزاء والتعويض بمن فقدته الشعوب من ابنائها وبما خسرته من مرافقها فلبنان في طليعة الشعوب الشهيدة ينظر الى الحلفاء حماة الحق والعدل ونصراء الضعيف والمظلوم ، ولا يذكرهم ان نصف قومه بادوا في سبيلهم فهم له ذاكرون ، بل يأمل منهم وقد وضع النصر مستقبل العالم بين ايديهم ان ينصفوه مما ألمّ به قديماً وحديثاً إنصافهم لسائر الشعوب الصغيرة ، فيسدلوا بمنحه الاستقلال ستار الطمأنينة والسلام على آخر فصل من تلك المأساة الدامية التي مثلها على ممر الاجيال صوناً لكيانه

واذا اعتمد لبنان على الحلفاء في نيل الاستقلال فان اعناق بنيه تطال بنوع خاص الى فرنسا لما بين الشعبين من العلاقات القديمة الملخصة في الفصل التالي

لبنان وفرنسا

—

يرجع تاريخ العلاقات بين لبنان وفرنسا الى عهد الصليبيين ويمتد مستحكم الحلقات حتى اليوم

وقد بدأت تلك العلاقات بانجاد الموارنة للصليبيين ، ثم بمساعدة اللبنانيين عموماً للفرنسيين في مرافقهم التجارية على عهد فخر الدين ، ثم بمنحهم الاوقاف الكثيرة لانشاء المدارس وتشييد الاديرة في لبنان ، فضلاً عن ان اللبنانيين كانوا ولا يزالون يغتنمون كل فرصة تسنح لهم فيثبتون تعلقهم بفرنسا وحبهم لها ، في حين ان فرنسا كانت تبادلهم الود الحميم والجميل الجزيل : فراسلهم ملوكها وخصوهم بانعامات وفيرة وعنايات جلى ، حتى اصبح تبادل المحبة والمعروف تقليداً مرعياً بينهم لم يكن تبدل شكل الحكومات في فرنسا ولا تقلب الدهر على لبنان ليغير فيه شيئاً . بل زاد رسوخاً على كرور الاجيال حتى اصبحت مدة هذه الثمانية

قرون عبارةً عن مبادلة متوالية للولاء الخاص وللخدمات المجردة ، كلٌ على نسبة مقدرته

وقد علمت ممارٌ قدرَ الخدمات التي قدمها اللبنانيون للافرنسيين على عهد الصليبيين (١)

وقد عُرف اللبنانيون بصدق ولائهم وذكرهم للجميل. فهم لقاء ما أنسوه في الافرنسيين يومئذٍ من رعاية واهتمام باتوا يحفظون لفرنسا عهداً ما كفروا به رغم تقلب الزمان. ولئن تمكنت فرنسا من الاحتفاظ بمركز تحسدها عليه الدول في الشرق فالفضل فيه يعود الى اللبنانيين. من اجل ذلك بات يعلق لبنان الامال الواسعة على فرنسا ، ومن اجل ذلك لا يفهم اللبنانيون كيف لا تحقق لهم تلك الآمال ، وان هي الان الا دين في ذمة اكرم دولة.

وفي اثبات مايلي دليل على مواصلة لبنان للاعمال الطيبة التي بدأ بها منذ الصليبيين في سبيل فرنسا

ففي اوائل الجيل السابع عشر كان الامير فخر الدين الكبير قد اعاد الى صيدا بعض زهوتها القديمة ، وكان

---

(١) راجع ص ٥٣ وما يليها

للفرنسيين فيها جالية فمنحها الامير « خانا » هو عبارة عن بناية كبيرة متسعة الارجاء جعل فيها القنصل الافرنسي داره والتفّ حواليه تجارُ الفرنسيس ومعهم متاجرهم ومستودعاتهم ، واقيم فيها ايضاً للمرسلين دير و كنيسة (١)

ولم يقلّ ما عمله اللبنانيون للمرسلين عما عملوه للتجار فانّ للموارنة فضلاً يُذكر في انشاء الرسالات الافرنسية في لبنان . ففي سنة ١٦٥٢ وهب الشيخ ابو نوفل الخازن لليسوعيين محلاً في عين طورة وبنى لهم فيه ديراً ومعبداً . وهناك انشئت مدرسة عين طورة الشهيرة التي آلت بعد الغاء اليسوعية الى الاباء اللعازاريين . وقد اثبت الاباء اليسوعيون ذلك في « رسائلهم البانية » حيث جاء ما ترجمته « ان السفينة التي ركبها الاب فرنسيس لمبر مع رفيقيه هاجت عليها ريحٌ شديدة فالقتها في ناحية قريبة من قرية عين طوره . فلما ابصر سكانُ هذه القرية ان السفينة تقترب من جهتهم ظنوا ان فيها لصوصاً بحرية فاسرعوا بدون ان يفحصوا عما كان من امرها وقبضوا على الاب

١ زرت هذه البناية في صيدا فاذا هي في يد الراهبات ولا ذكر فيها لفخر الدين

لمبر ورفيقيه واخرين غيرهم من المسافرين وجاؤا بهم الى والي البلاد . وكان الوالي وقتئذٍ السيد ابو نوفل الخازن الماروني المشهور . وكان ذا استقامة طار صيتها في الافاق حتى ان لويس الرابع عشر اختاره ليكون قنصلاً على شعبه الافرنسي وبعث اليه بالفرمان المؤذن بذلك

« فامام هذا السيد مثل الاب لمبر ورفيقاه وبعد السؤال علم انهم ليسوا لصوصاً بحرية بل هم فرسان مرسلون بعثت بهم العناية الالهية اليه . فانزلهم عنده واكرم ضيافتهم ووهب لهم محلاً من املاكه في احدى جهات لبنان المدعوة كسروان وامر ببناء بيت ومعبد في ارض مناسبة لذلك وقد انفق هو نفسه ما اقتضاه هذا العمل

« وما زال السيد ابو نوفل مدة حياته اعظم محامٍ عنا واجلّ متفضل علينا حتى ان رسالتنا في عين طوره لا تنسى ابداً ان تأسيسها منة منه » ١

وما فعله الشيخ ابو نوفل الخازن في اواسط الجيل السابع عشر فعل مثله الامير بشير الكبير والامير حيدر اللمعي وغيرهما من اللبنانيين في اواسط الجيل التاسع عشر

(١) الدويهي ص ٢٢٢

وقد اثبت ذلك الاب جوليان اليسوعي في كتابه « رسالة اليسوعيين الجديدة في سوريا » فذكر هبة الامير بشير لهم في المعلقة وذكر عن منحة الامير حيدر ما ترجمته :

« ارسل الامير حيدر في طلب الاب ريكادونا فجاءه المرسل الى جوار الحوز في ١٦ حزيران سنة ١٨٠٣ فقال له الامير : « طف املاكي واختر فيها المحل الذي تريده لاقامة الدير وانا ابنيه واقف عليه الاوقاف ». وفي اليوم الثاني كلف الامير كاخيته بمرافقة الاب ريكادونا ، وكان كاخية الامير الشيخ ميخائيل الحاج نصار (وكلمة كاخية في التركي معناها المستشار والمدبر الاول للاشغال) وهو من اسرة تقطن بكفيا

وبعد البحث وصل المرسلان الاب بلانشه والاب ريكادونا حيث تقابلا مع رئيس الرهبانية الانطونيانية المعروفة بالبلدية التي كان لها محبسة هناك ، فرضي الرئيس ببيع المحل وطلب ثمنه شيئاً زهيداً قائلا : انه كان يود لو

استطاع اهداءه بلا ثمن . وفي اليوم التالي جاء الشيخ ميخائيل نصار ومعه عقد البيع والمخالصة . .

« وبعد ان تم كل شيء شرع الاب ريكادونا ببناء الدير (في بكفيا) بينما الاب بلانشه كان مهتما باقامة الدير الاخر الذي تفضل به الامير بشير الكبير في الجهة الاخرى من لبنان في المعلقة (١)

وقد تأصلت محبةُ اللبنانيين للفرنسيين حتى انهم كانوا يستقبلون كل افرنسي يزور لبنان كما تستقبل العائلة فرداً من ابنائها ، وقد شهد بولائهم وسمو اخلاقهم كل من زار لبنان من رحالاتهم قديماً وحديثاً ، نكتفي بايراد بعض ما ذكره فولني ولامارتين في هذا الصدد :

زار فولني لبنان سنة ١٧٨٣ فذكر في ما ذكره عن الموارنة : « ان حق التملك مقدسٌ في بلادهم شانه في اوروبا ، فلا تجد عندهم ما تجده عند الاتراك من الظلم والتعديات . ويسافر المرء ليلَ نهارَ بامن غير معروف في بلاد السلطنة ، ويجد الغريبُ في بيوتهم الضيافة الطيبة

---

(١) *P. JULLIEN : La Nouvelle Mission de la Cie de Jesus en Syrie 1831 - 1895 , P,43 et s,*

« ان الجميع من مشايخ واهالي يمشون مسلحين ببندقية وخنجر حتى اصبحوا يحسنون استعمال السلاح في الاوقات اللازمة كساعة يضطرون الى الدفاع عن بلادهم من الاتراك . ولما لم يكن في البلاد جيش منظم فهم ملزمون جميعاً بالتجند اذا وقعت حرب ، ولو اتيح لهؤلاء الجنود قيادة ماهرة لفاقوا معظم جيوش اوروبا . وتدل الاحصاآت الاخيرة ان عدد الرجال القادرين على حمل السلاح لا يقل عن ٣٥٠٠٠ مقاتل »

وما لقيه فواني في الجبل الثامن عشر من حسن الضيافة عند اللبنانيين وخبره فيهم من مضاء العزيمة ووجده في البلاد من أمن وراحة ، لقي مثله لامارتين حين زار لبنان على ايام الامير بشير الكبير . فقد جاء في « رحلته الى الشرق » عن الموارنة اللبنانيين ما ترجمة بعضه :

« ان الرجال عندهم طوال القامة حسان الطلعة ذوو نظر ينم على الحرية والاباء ، ولهم ابتسامة تدل على الذكاء والانس . . . اذا مررت في بلدة ورايت الشيخ جالساً على باب داره ذات الشرفات ، وقد ربطت في باحتها الجياد المطهمة مشكولة ، ورأيت وجوه البلدة عنده وقد ارتدوا

الفراء الثمينة تشد اوساطهم زنانير من الحرير الاحمر وقد شكت فيها خناجر وتدلت منها سيوف مقابضها من فضة وعلى رؤوسهم عمائم كبيرة مختلفة الالوان وعلى اكتافهم شالات من الحرير الارجواني ، اذا رأيت كل ذلك خيل اليك انك ماثل امام شعب من الملوك

« وهم يحبون الاوروبيين كاخوة لهم ... ويعتقدون اننا نحميهم من الاتراك بواسطة قناصلنا وسفرائنا ... واذا اتاهم منا مسافرون او مرسلون او تراجمة لدرس اللغة العربية تراهم يستقبلونهم في قراهم كما تستقبل العائلة اقرباءها البعيدين فيصبح المسافر والترجمان ضيف البلدة المحبوب فينزلونه في الدير او بيت الشيخ ويقدمون له الهدايا ويصطحبونه معهم الى الصيد ويدخلونه في العائلات كانه فرد منها فلا تحتجب عنه النساء . »

ولقد طابت للامارتين الاقامة في لبنان حتى قال انه لا يجد في العالم بلاداً يمكن ان يعتاض بها عن وطنه مثل لبنان قال : « اذا اضطررت يوماً الى هجر بلادي فلا ارى خيراً من الاقامة في قرية مارونية قائمة في وسوط لبنان او منبسط على سواحله ، فاعيش بين ظهراني ذلك الشعب

الممتاز بصفاء سريرته وشدة تدينه ورحابة صدره ، وأمتع من ثم الطرف بمشاهد تطل على البحر او تبلغ به الى الثلوج العالية ، في ظلال اشجار مثمرة وسط حدائق غناء تزين هاتيك الديار .

« اما الامن فسائد في كل انحاء البلاد التي يسكنها الموارنة ، ومرجعه ليس لقوة القوانين بل لحاسات تدينهم وسمو اخلاقهم ، فاذا سافرت منفرداً وبغير دليل ليلاً او نهاراً فانك لا تحذر سرقة ولا تخشى اعتداء فالجنايات تكاد تكون غير معروفة عندهم

« اما عن الضيافة فحدث ولا حرج . ان الضيف مقدس عند العربي المسلم وهو مقدس اكثر عند العربي المسيحي (الوطني) فهو يفتح بابه للضيف في اية ساعة طرقه وينحر جديه ليقوم بواجبه ويتنازل له عن حصيرته .»

وقد عرف لامارتين اللبنانيين على اختلاف طوائفهم فعاشر الدروز كما عاشر النصارى ولقي عندهؤلاء مالقيه عند اولئك من الادب والمعروف . قال : « ان الضيافة مقدسة عند الدروز وليس من وعد اووعيد يغري الدرزي على تسليم ضيف احتمى به ولو كان طالب تسليمه نفس الامير . في

ايام موقعة ناڤارين (١) خشي الاوروبيون الساكنون في مدن سوريا نتقام الاتراك منهم فلجأوا الى بلاد الدروز حيث اقاموا بامان تام شهوراً عديدة »

ثم نظر الى الدروز والنصارى من الوجهة الاجتماعية فرأى ان اخلاق الطائفتين خير مساعد لهما على ان يصبحا امة واحدة في لبنان تتمشى باتفاق واتحاد على طريق التقدم والعمران، قال: « وللدروز في آدابهم شرعة مثلى وهي ان الناس كلهم اخوة . . . وقد اعتادوا السكنى مع الموارنة واصبحوا واياهم على شيء من الاخوة، ومن اسهل الامور ان يصبحوا والشعب الماروني أمة واحدة يسيرون سوية في سبيل الحضارة والرقي . »

وقد طاف لامارتين كثيراً من بلاد الشرق فزار مصر واليونان وسوريا والاستانة وخبر الناس والبلاد وختم كلامه في هذا الفصل بما ترجمته مما ينطبق على اللبنانيين عموماً : « ان الموارنة شعب باسل وهو حربي من طبيعته ككل سكان الجبال . اذا دعاهم الامير بشير لحمل السلاح لبوا

(١) ناڤارين من بلاد اليونان دمرت فيها العمارة الاوروبية العمارة المصرية العثمانية انتصاراً لليونان

نداءه يربون على الاربعين الف مقاتل واذا كان هذا الشعب متفقاً فلا يجسر الاتراك على دخول لبنان .

« قد يخبي الدهر لهذا الشعب مستقبلاً كبيراً . فهذه البلاد هي بلاد المستقبل اكثر من مصر . ان مصر فيها رجل (يريد محمد علي) اما لبنان ففيه شعب »

وقد استمرت تلك العلاقات بين لبنان وفرنسا بل زادت استحكاماً بتوالي الازمان حتى وقعت هذه الحرب فاظهر اللبنانيون من التعلق بفرنسا ما حمل الاتراك على الانتقام منهم وهو امر اصبح مشهوراً لدى الخاص والعام. ولم تقصر فرنسا في مبادلة اللبنانيين الولاء والجميل ومد يد المعونة اليهم في كل طارئة ، وقد بلغ استخلاصها اياهم انها اقامت منهم قناصل لها في بيروت مدة قرن وربع قرن من سنة ١٦٦٢ الى سنة ١٧٨٨ فتولى تلك الوظيفة السامية الشيخ ابو نوفل الخازن من سنة ١٦٦٢ الى وفاته ١٦٧٩ . فخلفه ابنه الشيخ ابو قانصو حتى وفاته سنة ١٦٩٧ فخلفه . ابنه الشيخ حصن حتى وفاته سنة ١٧٠٨ . فخلفه ابنه الشيخ نوفل الى

سنة ١٧٥٣. ثم تقلدها الشيخ غندور الخوري سنة ١٧٨٨ (١)
وقد كان لهؤلاء القناصل اللبنانيين يدٌ طولى في توسيع نفوذ فرنسا في الشرق كما تثبت ذلك مراسيمُ ملوكها لهم كقول الملك لويس الرابع عشر في رسالته الى الشيخ ابي نوفل: «قد تحققنا كل ما يُبديه السيد ابو نوفل نادر الخازن من مواصلة العناية والاهتمام لاجل صيانة تاج هذه المملكة حتى انه يصرف اكثر اوقاته فيما يعود بالشرف والنفع لسلطتنا اذ يشهد رعايانا الذين يأتون بلاد المشرق بحسن معاملته لهم وحمايته اياهم ومساعدتهم فيما يصون حياتهم ويحفظ تجارتهم ..» (٢)

وقد شهد كتاب الفرنسيس وقناصلهم أن علاقاتهم المتواصلة مع لبنان هي التي جعلت لهم مركزاً في سوريا يحسدون عليه، وان لبنان كان الاساس الذي بُنيَ عليه صرح نفوذهم في تلك البلاد، فقد جاء في كتاب المسيو

---

(١) مسعد (البطريرك بولس): «الدر المنظوم» ص ١٨٦ وما يليها. الدبس: تاريخ سوريا ج ٧ ع ١٠١٦ وع ١٠٥٨
الشدياق: ص ٨٧ وما يليها وص ١٠٠

(٢) الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية ص ٣٣٣ وما يليها

رستلهوبر قنصل فرنسا سابقاً في بيروت عن « تقاليد فرنسا في لبنان » ص ٢٨٠ ما ترجمته :

« ان هذا الارث لا يقع تحت وزن او قياس غير ان له من المكانة والسلطان ما لا ينكر ، وهو الذي جعل لنا في سوريا مركزاً لا يستهان به »

ولا ينسى اللبنانيون ان فرنسا سنة ١٨٦٠ خدمت لبنان ، ان لم يكن في انالته الاستقلال التام واعطائه حدوده الطبيعية لاضطراب السياسة يومئذ ، فهي ولا شك قد خدمته في حفظ كيانه وصون امتيازاته ، وهي منة لا يزال ذكرها حياً في صدور اللبنانيين اينما وجدوا...

وقد أعلنت فرنسا يومئذ انها تسعى لصون لبنان مجردة عن كل غاية سياسية ومنفعة استعمارية ، متبعة في ذلك سياستها التقليدية في لبنان بل في سائر اقطار المسكونة حيث لها في كل بلاد مأثرة مجردة جعلت لفرنسا في العالمين مركزاً ادبياً لا ينازعها فيه منازع : هكذا فعلت لاميركا على يد لافايت وروشامبو ، وهكذا فعلت لليونان في موقمة نافارين وبلاد المورة ، وهكذا فعلت اتركيا تحت اسوار سباستوبول ، بل هكذا فعلت بالامس حين تسابقت فيالقها

الى سالونيك محافظةً على صربيا ، والى بخارست استبقاء لرومانيا ، وهي في كل ما فعلت لم تسعَ الى كسب ولا طمعت بمغنم : ففي اميركا واليونان وتركيا وصربيا ورومانيا آثار خالدات تحدث الاجيال الحاضرة والمقبلة عن نبالة فرنسا وشرف مبادئها . وقد أولاها هذا المركز الادبي الفريد من القوة والسطوة ما لم تولها اياه جيوشها الجرارة واساطيلها الضخمة مع ماهي عليه تلك الجيوش والاساطيل من البسالة والمنعة . وقد ظهرت نتائج ذلك في هذه الحرب الطاحنة يوم التفت برايتها الامم ، فلا يغالي من قال إن فرنسا لو خسرت الحرب لخسرت كثيراً لكنها اذا فقدت مركزها الادبي في العالم فهي تفقد كل شيء .

تلك حقيقة عرفها اقطاب الفرنسيس وعملت بموجبها حكوماتهم المختلفة ، والى هذه الحقيقة اشار نابوليون الثالث في خطابه الذي نشره على حملة سوريا في معسكر شالون بتاريخ ٧ آب سنة ١٨٦٠ حيث جاء ما ترجمته :

« ايها الجنود :

انكم مسافرون الى سوريا . ففرنسا تحيي بسرور حملة

غايتها الوحيدة نصر حقوق العدالة والانسانية ...

«ستقومون بواجبكم في هذه الارض السحيقة الغنية بتذكارات مجيدة فتبرهنون انكم اولاد اولئك الابطال الذين حملوا علم المسيح في تلك البلاد بعز وشرف .

«ان عددكم قليل واني انا واثق بان بسالتكم وسطوتكم تغنيانكم عن كثرة العدد لان الشعوب تعلم انه حيثما يجتاز علم فرنسا فهناك غاية نبيلة تتقدمه وشعب عظيم يتبعه» (١)

ولم تدخر فرنسا يومئذ وسعاً لصون الامارة اللبنانية ولانالة لبنان حدوده الطبيعية مع توسيع استقلاله السياسي فلم تصادف التأييد الكافي من اوروبا بل لقيت في ذلك معارضة شديدة لم يكن سببها الرغبة في التضييق على لبنان كرهاً بلبنان ذاته وانتقاماً من اللبنانيين انفسهم بل كان سببها الحذر من ان يكون لبنان في يد دولة قوية تمتد منه على سواه .... كما تثبت ذلك محادثة جرت بين المسيو غيزو سفير فرنسا في لوندرا واللورد بلمرستون وزير خارجية بريطانيا في ٤ اذار سنة ١٨٤٠ على ذكر حوادث مصر

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٥٢

وسوريا والبحر المتوسط عموماً ، قال اللورد : « لا شك في ان فرنسا ترى بعين الارتياح قيام مملكة جديدة نشيطة مستقلة في مصر وسوريا تكون حليفة لها حتماً .... ان لكم السيطرة على الجزائر فلا يبقى ما يعترض بينكم وبين حليفتكم مصر سوى تينك الحكومتين الضعيفتين تونس وطرابلس ، فتصبح كل سواحل افريقيا وقسم من سواحل اسيا على البحر المتوسط من مراكش الى خليج الاسكندرونة في قبضتكم وتحت سيطرتكم .... ان ذلك لا يمكن ان يوافقنا » (١)

اما وقد تغيرت احوال الزمان والمكان ، واصبح نظراء الامس حلفاء اليوم فقد دقت ساعة التعويض للبنان ، ولم يبق ما يحول دون استقلاله ..

ولئن كان لنذر السياسة يومئذٍ قد حل ما حل بالامير بشير كما قال لامارتين في مجلس النواب ومن اجل ذلك جرى ما جرى في معاهدة سنة ١٨٦١ ، ولدواعٍ سياسية حصل

---

(١) تستاج ٢ ص ٥٢٤

ماحصل في عهد المتصرفية من حوادث « كرم » (١). الى حادثة المطران البستاني . الى سواها مما لامجال لذكره ، فهاان الفرصة اليوم سانحة لتعويض مافات بعد ان زالت العقبات. وفرصة مثل هذه لا تسنح مرتين في تاريخ امة .

تلك التقاليد القديمة والطيبات المتبادلة بين لبنان وفرنسا تحمل اللبنانيين على الآمال الكثيرة والاماني الكبيرة ، لاسيما وتاريخ فرنسا في لبنان وفي كل مكان سواه يشهد انها لم تفعل يوماً ماحاولت روسيا فعله في رومانيا

---

(١) اثناء بحثي في مايختص بالمسألة اللبنانية علمت ان « يوسف بك كرم » اصدر في منفاه يوم كان في روما مذكرة رفعها الى الدول الحامية سنة ١٨٧١ بسط فيها اسباب حوادث ، واتى فيها على خلاصة القضية اللبنانية . فسعيت كثيراً منذ اوائل سنة ١٩١٧ للحصول على هذه المذكرة وكلفت في باريس وروما من تفضل بالبحث والتفتيش عليها . ولاسباب لا محل لذكرها لم تصل الي تلك المذكرة الا وهي منه الملزمة تحت الطبع بعد ان فات الوقت . ان في مذكرة « كرم » الى الدول من المستندات مايميط اللثام عن امور كثيرة وسأرجع اليها متى سمحت الظروف

سنة ١٨٢٩ ، فيكون الماضي حجة لارتهان الحاضر وامتلاك المستقبل

ان اللبنانيين يتطلعون الى الحلفاء عموماً والى فرنسا خصوصاً لتقرير استقلالهم وللحصول على حدود بلادهم الطبيعية . وقد يكون لفرنسا اليوم القول الفصل في أمر لبنان ، فاما استقلاله قولاً وفعلاً وإما غير ذلك . والغد القريب كفيل بان يمزق الحجب عن حقيقة حال لا يغني عنها اذا وقعت تنميق مقال ولا يغير هويتها ترويق آمال فيعلم اللبنانيون عندئذ اذا كان قد غرّهم توهم آل في أفق الصحراء .

لبنان جغرافياً

اذا طالب اللبنانيون باستقلال لبنان فهم يعنون لبنان الجغرافي كما اوجدته الطبيعة ، لا لبنان المبتور كما شذبته المعاهدة . وما دام الحلفاء قد اخذوا على انفسهم تشييد عالم جديد على انقاض العالم القديم ونفي ما أنزلته المؤتمرات السابقة بالشعوب الصغيرة من الظلم والحيف ، فاحرى بهم ان يصلحوا في لبنان ما افسدته فيه معاهدة سنة ١٨٦١ اسوة له بتلك الامم الضعيفة العديدة التي ازالوا الاجحاف عن بعضها وانتشلوا البعض الاخر من دياجير الماضي الكثيفة فصيروها جميعاً ممالك ودولاً مستقلة وضمنوا لها حدوداً تكفل لها الحياة والعمران

ذلك هو الحق الصراح الذي يطالب به لبنان جغرافياً وسياسياً . وهو حق مترابط لا انفصام فيه ولا تجزئة فاما يناله كاملاً واما يحرم منه ، ولا وسط بينهما : فرد الاراضي

المسلوخة حق طبيعي لا جدال فيه فضلاً عن انه امر حيوي له. فاذا حرم منها حكم عليه بالاعدام اقتصادياً ، وهو ما قصدته تركيا سنة ١٨٦١ فلا يقدم الحلفاء على مثله اليوم

اما الاستقلال السياسي فهو حق تاريخي سجله لبنان بدماء ابنائه على ممر الاجيال ، بل هو النتيجة اللازمة لاستقلاله الداخلي الذي تمتع به ودافع عنه الاعصر الطوال توصلاً الى الاستقلال التام

ولا شكَّ في ان اثبات هذا الحق للبنان كاف لانالته اياه لانه حق ، بصرف النظر عما في خدمته من القوة ولا قوة في لبنان ، هذا اذا صح ان هذه الحرب هي حرب الحق لا حرب القوة . فعملاً بتلك المبادىء النبيلة التي اعلنها الحلفاء يقرر المؤتمر مبدئياً ان المفهوم بلبنان جغرافياً انما هو تلك البلاد التي حددتها الطبيعة من النهر الكبير الى ناقورة عكا ومن البحر الى العاصي والجبل الشرقي . ثم يعترف لتلك البلاد بحقها بالاستقلال التام وبوضع قانونها الاساسي ، وهكذا ينال لبنان حقه جغرافياً وسياسياً كاملاً غير مجزء

اما تخيير لبنان بين ان يظل مبتوراً ويستقل وبين ان تعاد اليه حدود ويحرم استقلاله ، فتخيير الحرث بن ظالم رسول المنذر لصاحب الاباق بين الغدر والشكل (١)

---

(١) يصرح اللبنانيون بارتياح وامتنان ان لفرنسا الفضل عليهم باعطاء لبنان اليوم حدوده الطبيعية

ويقرون بهذا الفضل على رؤوس الاشهاد في حين انهم لا يكذبون على الله وعلى البشر في ما سواه . فاذا كانت قد تحققت آمال اللبنانيين من الوجهة الجغرافية ، فلا يزال التعليل نصيبهم من الوجهة السياسية ومن الوجهة الاقتصادية

غير انهم لا ييأسون

فعسى يحقق المستقبل القريب أملهم من هاتين الوجهتين السياسية والاقتصادية كما تحقق من الوجهة الجغرافية . وليس في ذلك ما يضير فرنسا . بل الامر بالعكس اذا كان هنالك فكر صائب

سوريا ولبنان

—

ان بين سوريا ولبنان من المنافع الاقتصادية مايحسن شد روابطه بعقد اتفاقات بين الحكومة اللبنانية والبلاد المجاورة .

اما استقلال لبنان السياسي فقضية راهنة وواجب محتم فلا محاباة به ولا تساهل

قد تدفع المرء اهواؤه الى التغاضي عن حقوق غيره كما حصل للدولة العربية الفتاة على عهد المردة يوم شاءت اخضاع لبنان رغم تشبث اهليه بكيانهم واستقلالهم ، فاضطر الى محالفة الاجانب عليهم ، وتجدد الامر ذاته على عهد الصليبيين

ولئن تعارض المنقبون في اصل المردة واختلف المؤرخون في تقدير المساعدة التي بذلها اللبنانيون للصليبيين فالحقيقة التي لا نزاع فيها هي ان لبنان سواء على عهد

هؤلاء او اولئك ظل متشبثاً بكيانه القومي ذائداً عن امتيازاته حتى جرت هذه العاطفة في دم ابنائه فتوارثوها خلفاً عن سلف

وما حصل على عهد المردة والصليبيين جرى مثله على عهد الاتراك وافضى الامر الى تدخل اوروبا. وهو عكس ما كانت ترجوه تركيا

ولئن سعى الساعون اليوم لادغام لبنان في سوريا فقد يقعون هم ايضاً في عكس ما يتوخون . ان للتاريخ عبراً تكاد تلمس واماثيل تكاد تتكلم ، وقد لا يستفيد المرء منها على ما فيها من جلاء وصراحة ، غير ان الاغضاء عنها لا ينفي وجودها ، واهمالها لا يدفع شر الوقوع في نتائجها

ان تربة الارض في لبنان والدم الفائر الذي يغلي في عروق ابنائه والارث المقدس الذي خلفه الجدود وديعة بين ايديهم ، كل ذلك يجعل الاستقلال عند اللبنانيين كالروح من الجسد . وما هي الا ان يروعوا في كيانهم ويهددوا في استقلالهم حتى تراهم وهم ابناء ابائهم يهبون ثائرين ويزأرون غاضبين كأنهم لبؤة جائعة ريعت في اشبالها.

تلك حقيقة لا تغيرها تصريحات افراد ولا تعدلها مساعي فئات مهما حسنت نيتهم وعزت مكانتهم . وخير ما يسعى له الوطني الصادق، لمصلحة الفريقين، هو تمكين روابط الالفة بين سوريا ولبنان على القواعد الاقتصادية، على ان يقيم لبنان على استقلاله السياسي التام

وخير لسوريا ذاتها ان تصادق لبنان مستقلاً من ان تدغمه بها سواء مرغماً او راضياً : فابن أرغم او رضي ابناء اليوم فلا يرغم ولا يرضى ابناء الغد : فضعف آونة في شعب او هي ساعة في نفس فئة منه لا يمحو تاريخ اعصر ولا ينسخ تقاليد اجيال، فتجدد اذ ذاك عبر التاريخ وتنفتح ابواب من مصلحة سوريا قبل سواها ان تظل مقفلة على ما فيها من محذورات واسرار

وليس من حسن السياسة في شيء ان يصدم المرء شعباً في اعز ما لديه، او يغنم منه فرصة برق خلب... بل من الحكمة البليغة ومن النظر البعيد الصائب ان يهتم السياسي في ما يبنيه بالآجل اكثر من اهتمامه بالعاجل، عاملاً في الحالين على تشييد بنيانه على قواعد وطيدة تتفق مع النواميس الطبيعية لا على أسس مائعة تخالف سنن

التاريخ والاخلاق والاجتماع . فتكون كالرمال تمور فينهار ما يبنى عليها من الصروح الشواهق

والبلاد السورية الطامحة اليوم الى العلاء لأرحب نفساً من ان يضيق صدر عقلائها بامانى جار كريم يريد ان يحتفظ بكيانه القومي ويقيم على استقلاله السياسي . على ان يكون في المصالح الاقتصادية المشتركة يداً واحدة مع سوريا فيعيش الشعبان اخوي صفاء شريكين في البؤس والنعيم حليفين على الطواري . ذلك ابقى للفريقين واسلم عاقبة . بل هو الاساس الوحيد الوطيد لعهد جديد لا يجد فيه السوريون واللبنانيون ما يعكر جو سمائهم الصافية ويباغتهم بمخبآت الاقدار . . .

وليس بكثير على نجباء الشعبين وعلى الوطنيين المخلصين منهم ان يسيروا بقومهم في هذا السبيل هداةً لهم الى شاطئ المستقبل الامين . . .

لبنان في العهد الجديد

عُقد النصر بالوية الحلفاء فباتوا قادرين على تنفيذ مبادئهم النبيلة باقامة العالم الجديد على قواعد الحق والعدل والحرية . وسيكون مقياس اعمالهم ما يجرونه من العدل للشعوب الصغيرة وما يضمنونه من الاستقلال للامم الضعيفة لان الكبيرة والقوية منها كفلت حقوقها بالقوة ووسعت رحابها بحد السيف فهي في غنى عن سواه

ولبنان في مقدمة الشعوب الصغيرة التي قامرت بكيانها وعلقت مصيرها بمصير الحلفاء فاما الى الانكسار والذل واما الى الغلبة والاستقلال . وقد كلفت لبنان تلك المقامرة فقد نصف ابنائه فهو لا قوة له الان فتنصفه ولا حجج يدلي بها غير ما يستمده من قوة الحق المبني على تاريخه واستبساله وعلاقاته وتقاليده . وكفى مافاته من فرص سنحت له لنيل الاستقلال اخصها سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠

فحرم منه لحذر السياسة المعلوم . وقد شاءت الاقدار ان يكون مصيره اليوم في ذات الايدي التي كان فيها يومئذ فهي فرصة قد تكون الاخيرة للتعويض عليه مما فات. فلا تجدد خيبته ولا تظل تتقاذفه الايدي فيحرم اليوم ايضاً حقوقه ان لم يكن بفعل هذه اليد فبفعل تلك ، والموت واحد وان تنوعت اسبابه

وليس من ينكر على لبنان كفاءته واهليته للاستقلال بعد ان اعترف به الحلفاء لشعوبٍ في الغرب وفي الشرق ايضاً وهي قد لا تفضل لبنان بشيء .

واذا وضع استقلال الشعوب الصغيرة في ذمة القانون الدولي العام وأخذت كل دولة على نفسها احترامه وايجاب احترامه على سواها بات ذلك الاستقلال في مأمنٍ من طمع الطامعين ولم يعد من ثم مسوغ لخوف الخائفين إشفاقاً على لبنان من ان يعجز عن صون استقلاله بنفسه

اما اذا خرق القانون الدولي العام ولم تُصن حرمة المعاهدات فالاستعانة للبنان بدولةٍ تحميه لا يدفع عنه مقدراً ، لان تلك الدولة تكون اذ ذاك معرضةً هي ايضاً للحرب مع سواها فان حمت لبنان من جيرانه ، اذا كان ثمة

داع للحماية، فهي لا تحميه من جيرانها اومن سواهم. ومتى اشتبكت الدولة الحامية في حربٍ مع دولة أخرى اصبح لبنان مرسحاً للجيوش وهدفاً للبوارج. واقصى ما يخشاه اذا كان مستقلاً هو دون ذلك شراً وعاقبة

اما الضمانة الادبية المستمدة من المعاهدة الدولية فهي تعني ان موقعي المعاهدة يحترمون الاستقلال الذي يعترفون به لبلادٍ كسويسره وبلجيكا ويصونونه ممن يحاول مسهُ وخرق المعاهدة، وهي لاتعني ان لتلك الدول الموقعة حق التدخل في شؤون تلك البلاد بوجه من الوجوه، وهو مبدأ قانوني لا نزاعَ فيه

وعلى اعتبار ان الحق يعلو ويسود وان لبنان ينال استقلاله التام بحدوده الطبيعية وباعتراف القانون الدولي العام وضمانته، لايرى الوطني بدأً من الاشارة الى القواعد التي يحسن ان تشاد عليها حكومة لبنان في العهد الجديد.

اساسُ دستور الممالك احد مبدأين: حق مستمد من الله وهو ما يسمونهُ الحق الالهي، وحق مستمد من الشعب

اما الحق الالهي فخلاصته ان الله أصل كلَّ سلطان فهو يمنحهُ الملوكَ فلا يكونون مسؤولين الا امامه وحده

لا حقّ للشعب عليهم بشيء. ينهون ويأمرون ما بدالهم في كبير القوم وصغيرهم. وقد جمع لويس الرابع عشر كلّ ذلك في قوله: «المملكة هي انا». وهو مبدأ قد خلقت جدته وكاد يتقاص ظله. وسار العالم على المبدإ الثاني. وخلاصته ان كل سلطان على الارض مستمد من الشعب والشعب يقيم عنه وكلاء في اجراء سلطانه فتتألف منهم هيئة تسن القوانين، ويسمونها السلطة الاشتراعية. وهي تكلف هيئة ثانية باجراء الاحكام وتسمى السلطة القضائية. وتنيط بهيئة ثالثة امر تنفيذها وتسمى السلطة التنفيذية، وقوامها وزارة على راسها حاكم عام يكون إما رئيس جمهورية، اما ملكاً واما اميراً: تلك هي خلاصة شكل الحكم المتبع في اكثر البلاد الدستورية وقوامه: سلطة تنفيذية مؤلفة من الحاكم والوزارة، وسلطة اشتراعية مؤلفة من مجالس النواب والشيوخ. وسلطة قضائية مؤلفة من القضاة والمستشارين.

اما لبنان فلا يخرج عن قاعدة الحكم الدستوري العامة. وخير دستور يسن لبلاد هو ما كان اقرب ما يمكن الى تقاليدها وعاداتها. واذا نظرت الى شكل الحكم في لبنان قديماً وحديثاً، قانوناً وتقليداً تبين لك منه خلاصة قوامها:

حاكمٌ عام ، امير او متصرف في جنبه هيئة مديرين او مفتشين ، وهو ما يقابل الوزارة . ثم مجلس ادارة . ثم هيئة قضائية .

فترى ان في شكل الحكومة اللبنانية المعروف نواة حكومة دستورية لا ينقصها الا توسيع الاختصاص وتغيير الاسماء في بعض المواطن : فما الحاكم والمفتشون الا هيئة السلطة التنفيذية ، وغاية ما يعدل في هذه الهيئة ان يكون الحاكم منتخباً من الشعب لمدة معينة يحسن ان لا تزيد عن سبع سنوات ، وان يكون وطنياً كما كان قبل المتصرفية وكما جرى التقليد به اثناء غياب المتصرفين ، ويصبح المفتشون وزارة مسؤولة امام المجلس كما هي الحال في البلاد الدستورية .

ويوسع اختصاص مجلس الادارة ويعترف له بما للمجالس النيابية . فيصبح هو السلطة الاشتراعية المعروفة في البلاد البرلمانية ، على ان يكون انتخاب اعضائه عاماً من الشعب . وليس من داع الى مجلس شيوخ فالبلاد على صغرها لا تستلزم مجلسين .

اما الهيئة القضائية فتبنى على قاعدة الكفاءة وتكون كاملة مستقلة في لبنان لا مرجع لها خارجاً عنه

ولما كان الشعب مصدر كل سلطان في الحكومة ولم يكن للبنان قانون اساسي دستوري وجب بادي، ذي بدء أن يرسل الشعب وكلاء عنه لتاليف « الجمعية المؤسسة » وهي تضع القانون الاساسي .

اما تشكيل « الجمعية المؤسسة » فيكون بطريقة الانتخاب العام . وبعد سن القانون الاساسي يشكل « مجلس النواب » بطريقة الانتخاب العام ايضاً

ومتى وضع القانون الاساسي وتم انتخاب مجلس النواب وانتخاب الحاكم العام ، تشكل الوزارة على القواعد البرلمانية . وهكذا تتألف الحكومة اللبنانية على الشكل الاتي :

حاكم عام وطني منتخب من الشعب لمدة معينة ، وفي جنبه وزارة مسؤولة امام المجلس

ومجلس نواب له السلطان الاعلى في البلاد لا سيما في الامور المالية وفي الاشتراع .

وهيئة قضائية كاملة مستقلة

ويطلق على هذه الحكومة اسم جمهورية او امارة بحسب قرار الجمعية المؤسسة (١)

وفي ظل هذه الحكومة الشعبية النيابية وفي حمى الاستقلال التام يسير لبنان في سبيل الرقي الذى تؤهله له كفاءة اهليه ويستحقه تاريخه المجيد . حتى اذا نشرت راية الاستقلال أمن الوطني على كرامته من ان تمتهن ، وعلى قوميته من ان تضيع ، وعلى نغته من ان تذبل ، وعلى اخلاق شعبه وادابه من ان تثلم ، وعلى عادات بلاده من ان تصدم ، وعلى مرافقه ومصالحه من ان تتسرب مواردها الى الغير ، وعلى بلاده من ان تكون ميدانا للتزاحم ومرسحاً للدسائس ، وعلى ارضه من ان تصبح ساحة للحروب بين الدول تبقرها سنابك الخيل وتنفض احشاءها القنابل وتتلقف المدافع خيرة شبانها اشلاء دامية . وهي شرور يبلى بها لبنان اذا فقد الاستقلال . وتاريخه وتاريخ الامم اصدق شاهد على ذلك . فاما استقلاله والحياة واما حرمانه منه والموت . لا سيما والعالم يخرج من هذه الحرب مقسما الى قوميات

---

١ وللحكومة اللبنانية المستقلة اذا رأت موجبا لذلك ان تستعين في بادىء الامر ولمدة معينة بموظفين اختصاصيين من الاجانب

تغار كل واحدة منهن على حفظ كيانها وصون هويتها. فتسعى الى تمكين روابط العنصرية واثارة نعرة الجنسية بين ابنائها ، فتستقل في بقعة من الارض لا سيادة فيها لسواها. فيكون لكل فرد من افرادها ان يقول : « هذا القوم قومي وهذه البلاد بلادي » . حتى اذا اغترب حماه علمه حيث سار وكان مرجعه الى تلك البقعة مهما طال اغترابه

ولبنان ، وهو منذ القدم مفزع الخائفين وحمى اللاجئين اليه ، ايحكم على بنيه ، وقد تنكرت عليهم معالم وطنهم كالخيل جفلت من مرابطها والطير نفرت من اوكارها ، ان يظلوا يضربون في مغارب الارض ومشارقها غرباء اينما نزلوا ، دخلاء حيثما حلوا ، لا يتاح لهم ان يقولوا كغيرهم من بني الناس « هؤلاء قومي وهذه بلادي » . في حين انهم ليقنعون بارضهم على ضيقها وطناً ومعاداً ، وبارزهم على ضعفه حمى وراية . فلا تنام لهم عنها وعنه العيون

ان ذلك ، اذا كان ، لوصمة في جبين هذا العهد بل هو حكم فظيع جائر لم يستحقه لبنان

لبنان وريث امجاد فينيقيا سلطانة البحر الاولى ومبعث انوار المدنية . منبت الارز الخالد ، عمود الهيكل ، ومفخرة

اشور وبابل . مُجلِسٌ ابناءه على عرش روما ومانحٌ الامبراطورية الرومانية عصرها الذهبي . لبنان موئل المردة وحصنهم الحصين ، ترس الصليبية وملجأها الامين ، مجلى عظمة فخر الدين وسطوة الامير بشير ، وطن يوسف بك كرم . منارة العلم والمدنية في الشرق . لبنان الباسل الدامي يتطال الى استقلاله ويشرئب الى حريته فمن الظلم ان لا تفك عنه القيود ولا تقطع السلاسل

لبنان أترى عيون ابنائك مشعلَ العدل على راس صنين يضوء في ليل ارهاقك البهيم فينير قمم اجبالك الشما وبطون اوديتك البعيدة القرار . . أتسمع اذانهم صوت الحرية يدوي في وادي قاديشا المقدس فتهتز له عظام الجبابرة ويحرق البخور على مذابح شهدائك الابطال حيث تختم وثيقة الاخاء والوحدة القومية

امل وطيد في الصدر وايمان راسخ في النفس ان العناية لا تهمل لبنان ، وان اللبنانيين ينهضون ويتحدون . ويثبتون للملا . انهم رجال هذه الساعة الخطيرة . فتفلت الطير من اقفاصها وتنطلق ألهمم من عُقالها وتطلع شمس العهد الجديد ترسل اشعتها المحيية على ارض الميعاد فاذا في فضائها راية العلم

والمدنية خفاقة الجوانح تنشر افياءها على مهد الحضارة فتستعيد فينيقيا امجادها وتجدد عهد حاملي لواء العلم والادب في العالم ، فترتفع ارزتك يالبنان « بهيجة الافنان غبياء الظل شامخة القوام . . تعشش في اغصانها جميع طيور السماء وتسكن في ظلها جميع الامم الكثيرة » ويسدل ستار السلام على مأساة تاريخك المفجع ويترك أبناؤك يعيشون في بلادهم آمنين . . .

ملحق

لواء جبل لبنان

مركزه : بعبدا

قضاء الشوف :

مركز القائمقامية		بعقلين
مديرية الشوفين	مركزها	المختارة
» اقليم الخروب	»	شحيم
» المناصف	»	كفرحيم
» الشحار	»	عبيه
» الغرب الاقصى	»	الشويفات
» الغرب الشمالي	»	سوق الغرب
» الغرب الجنوبي	»	عاليه
» الجرد الشمالي	»	بتاتر
» الجرد الجنوبي	»	رشميا
» العرقوب الاعلى	»	عين زحلتا
» العرقوب الشمالي	»	مجدل معوش
» العرقوب الجنوبي	»	الباروك

قضاء المتن :

مديرية المتن الاعلى	مركزها	حمانا
» الساحل	»	الحدث
» القاطع	»	بكفيا
» الشوير	»	الشوير
» بسكنتا	»	بسكنتا
» المتن الشمالي	»	الجديدة

قضاء كسروان :

مركز القائمقامية		جونية
مديرية الزوق	مركزها	الزوق
» الفتوح	»	غباله
مديرية غوسطا	»	غوسطا
» جرد كسروان	»	ريفون
» المنيطرة	»	عين الدلبة

« جرد جبيل	مركزها	العاقورة
« جبيل العليا	«	لحفد
« جبيل السفلى	«	جبيل

قضاء دير القمر

مركز القائمقامية	دير القمر

لواء لبنان الشمالي

مركزه : زغرتا

قضاء الكوره — البترون

مركز القائمقامية		اميون
مديرية الكورة الوسطى	مركزها	عين بطرام
« الكورة الشمالية	«	دده
« القويطع	«	بتعبوره
« تنورين	«	دوما
« قنات	«	قنات
« حصرون	«	حصرون
« البترون السفلى	«	البترون
« البترون العليا	«	شبطين

قضاء عكار

مركز القائمقامية		حلبا
مديرية الجومة	مركزها	بينو
» الدريب — وادي خالد	»	القبيبات

قضاء زغرتا

مديرية اهدن — الزاوية	مركزها	زغرتا
» بشري	»	بشري
» الضنية	»	سير

لواء لبنان الجنوبي

مركزه : صيدا

قضاء صيدا

مديرية الشقيف	مركزها	النبطية
» الشومار	»	عدلون
» جباع	»	جباع

قضاء صور

مركز القائمقامية		صور
مديرية جبل هونين	مركزها	بنت جبيل
» تبنين	»	تبنين
» علما الشعب	»	علما الشعب

قضاء مرجعيون

مركز القائمقامية		جديدة مرجعيون

قضاء حاصبيا

مركز القائمقامية		حاصبيا

قضاء جزين

مركز القائمقامية		جزين
مديرية الريحان	مركزها	عرمتي
» اقليم التفاح	»	الصالحية

لواء البقاع

مركزه : زحلة

قضاء بعلبك

مركز القائمقامية	بعلبك
مديرية دير الاحمر	مركزها دير الاحمر
« سرعين	« سرعين
« الفاكهه	« راس بعلبك
مديرية شمسطار	مركزها شمسطار

قضاء راشيا

مركز القائمقامية	راشيا

قضاء الهرمل

مركز القائمقامية	الهرمل

قضاء البقاع

مديرية قب الياس	مركزها	قب الياس
« مشغره	«	مشغره
« جب جنين	«	جب جنين

بيروت	المدينة وعليها حاكم اداري
طرابلس	المدينة وعليها حاكم اداري

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU16934148